الجزء الأول

عبقرية الشريف الرضي

زكي مبارك

عبقرية الشريف الرضي

زكى مـبـارك، زكى بن عبـد السـلام بن مبـارك،
١٨٩١ ـ ١٩٥٢ .
عبـقـرية الشـريف الرضى/ زكى مـبـارك. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
مج ١ ؛٢٤ سم.
تدمك ٨ ٦٠٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الشريف الرضى، محمد بن الحسن بن موسى،
٩٧٠ ـ ١٠١٥ .
٢ ـ الإسلام ـ تراجم.
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦١٢٤/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -600 - 8
ديوى ٩٢٢,١

زكي مبارك

عبقرية الشريف الرضي

الجزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٠

أنا النُّضار الذي يُضَنُّ به لو قلَّبَتْني يمينُ مُنتقِدِ

الشريف الرضي

اشهدْ انك وجدت المُنتقِد ، أيها النضار .

زكي مبارك

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

اما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضي » وما أقول اني شغلتُ به نفسي سنة كما قلت يوم اخرجتُ شرح « الرسالة العذراء » ولا سبعَ سنين كما قلتُ يوم اخرجتُ كتاب « النثر الفني » ولا تِسعَ سنين كما سأقول بإذن الله يوم أخرج كتاب « التصوف الإسلامي » .

فما شغلت نفسي بكتابي هذا غير خمسة اشهر ، ولكنها من اشهر بغداد ، لا اشهر القاهرة ولا باريس ، وما كان لي في بغداد لهوٌ ولا فتون ، فكانت الليلة في بغداد كليلة القدْر خيراً من الف شهر . والتوفيق من اشرف الارزاق .

وكتابي هذا هو مجموعة المحاضرات التي القيتها في قاعة كلية الحقوق ،وكانت تلك المحاضرات من اشهر المواسم في حياتي ، فقد كان اصدقائي يخشون أن يملّ الجمهور بعد اسبوع او اسبوعين ، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من اسبوع الى اسبوع ،ولم يُنقذني منه غير التصريح بأني انفقتُ كل ما كنت املك ، ولم يبق إلا ان استريح !

ومحاضراتي بكلية الحقوق في بغداد هي الموسم الثاني بعد محاضراتي عن « المدائح النبوية » وهي المحاضرات التي القيتها باسم الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث في القاهرة او في بغداد ؟

• • •

لا تسألوني كيف ظلمتُ نفسي فأعددتُ هذه المحاضرات وأنشأت معها

مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ، ورججتُ الحياة الأدبية في بغداد رجاً عنيفاً ، فذلك كان أقلّ ما يجب أن أصنع في مقابل الثقة التي شرفتني بها حكومة العراق ، وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسي مكاناً بين المصريين الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق من أمثال الأساتذة محمد عبد العزيز سعيد وأحمد حسن الزيات وعبد الرزاق السنهوري وعبدالوهاب عزام ومحمود عزمي ، وذلك كان اقلّ ما يجب أن أصنع في خدمة تلاميذي وتلميذاتي في بغداد ، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائي وبناتي فكلفت نفسي في خدمتهم فوق ما أطيق .

لا تسألوني كيف ظلمتُ نفسي فأنفقتُ من العافية ما أنفقتُ ، فقد ساءني أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها في بغداد تاريخ : فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله وانتفعت بعطف معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبي وأريحية الأستاذ طه الراوي ومودة الدكتور فاضل الجمالي ، وعولتُ على همة زميلي وصديقي الدكتور فؤاد عقراوي ، وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة ، وعلّمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء .

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج في كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحدٌ من قبل ، فألفت كتابي هذا عن الشريف الرضي ، فإن ترفقتْ شواغلي بمصر وأذنتْ لي بالرجوع إلى بغداد فسأخرج في كل سنة كتاباً جديداً ، وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل في بغداد فسيذكر من يخلفني أني طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفر له من أن يشقى في سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت .

وإنما نصصت على هذه المعاني في مقدمة هذا الكتاب لأجتذي العطف على « دار المعلمين العالية » وممن أجتذيه ؟ من حكومة العراق ؛ فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنمـــا يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية .

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضي ؟

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يذكر جيداً أنني قد قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشعار الشريف الرضي .

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ الدكتور طه حسين فهو يذكر جيداً أني نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضي كان أولى مـــن الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث ، لأن له خصائص ذاتية لا تجدها عند أولئك الشعراء .

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة فقد طلب في سنة ١٩٣٢ أن ألقي محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية فكانت محاضرتي عن الشريف الرضي .

ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعد ، فقد رأيتني فجأة بين دجـــلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الاوان لدراسة هذا الشاعر الذي تعصبت له منذ أعوام طوال .

ويشهد الله ـــ وهو خير الحـــاكمين ـــ أني لم أفكر في إنصاف الشريف الرضي يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة مـــن كتاب الاستاذ انيس المقدسي عـــن أمراء الشعر في العصر العباسي ، فأزعجني أن يهتم بأبي العتاهية وينسى الرضيّ ، مع أن ديوان أبي العتاهية لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف .

فمن شاء لهواه أن يزعم أني غاية في التعصب للشريف الرضي فليتق الله في نفسه ، وليذكر ان الدكتور زكي مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه – بلا أسف – سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي .

والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا في طليعة أولئك الشهداء .

سيرى قراء هذا الكتاب أني قد جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبي ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب ، ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب !

والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابه أشعر من الشريف ، والشريف في بابه أشعر من المتنبي ، وكل عبقريٍ هو في ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحدٌ سواه ، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السبّاق على مدى الاجيال .

وما الذي يضرّ أنصار المتنبي حين أقدّم عليه الشريف ؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي ؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي ، ولي على ذلك شهود منهم الشيخ أحمد السكندري والاستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمي .

وما الذي يضر أهل العراق من ان أهتم بشاعر لايعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضي ؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوامّ أحفظ للجميل من الخواصّ !

إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضيَ عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أنني كنت كذلكَ طولَ حياتي فوضعتُ بالنقد قوماً ورفعتُ آخرين ، وَفقاً للحق لا طوعاً للأهواء .

وأنا والله راض بأن يغضب عليّ أهلُ بغداد ، فقد غضبوا على أبي طالب المكي فمنحوه الخلود .

أنا أحب الخصومات لأنها تذكي عزيمتي ، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزَع على مصير خصوماتي في بغداد ، فلن يكون لي في بغداد خصومٌ بعد ظهور هذا الكتاب ، وإنه لقادرٌ على أن يُفجّر العطف في القلوب المنحوتة من الجلاميد .

سيذكر ادباء بغداد أنني أحببت شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق ، سيذكر أدباء بغداد أنني وفيتُ لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عَرَف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد .

•••

و كتابي هذا تطبيقٌ لما شرعتُ من قواعد النقد الادبي ، القواعد التي اذعتها في كتاب « الموازنة بين الشعراء » وهو من أجل هذا لونٌ جديد في اللغة العربية ، وسيكون له تأثيرٌ شديدٌ في توجيه الدراسات الادبية ، وقد يُصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين .

وبيانُ ذلك أني لم أقف من الشاعر الذي أدرسه موقف الاستاذ من

التلمذ ، كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق ، والتشابهُ بيني وبين الشريف الرضي عظيم جداً،ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى في حياته ما عانيتُ في حيـــاتي : كافحَ في سبيل المجد ما كافحَ وَجهِـلَه قومُه وزمانهُ ، وكافحتُ في سبيل المجد ما كافحت، وجهلني قومي وزماني .

وهذا الترفق في معاملة الشريف ليس نَزْوةً شخصية ، وإنما هو وَثْبةعلمية ، فما كان يمكن ان أكون وفياً للبحث إلا إن سايرتُ الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذي ، وهـــذه هي المزية التي انفرد بها بين أساتـــذة الادب العربي .

سايرتُ الشريف مسايرةَ الصديق للصديق : فان آمَنَ آمنتُ ، وإن كفرَ كفرتُ ، وإن جَدّ الشريف جَدَدْتُ ، وإن لعِب لعبتُ ، إن عَقَل الشريف عقلتُ وإن جُنّ جُنِنْت ، إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هي الحرب قلت صدقتَ ، وإن قال : إن الحياة هي الحب ، قلتِ : والحب حياة !

ولكني مع هذا عاملتُهُ معاملة الصديق الامين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ، نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن اليه إلا الاذكياء — وفي بني آدم اذكياء نبهتُه إلى عيوبه اكثر من ستين مرة ، ومَا أظنه يحقد عليّ لأن الصديق الذي في مثل حالي تُغفَر له جميع الذنوب .

والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جداً ، وذلك هو اسلوبي في البحث فأنا اشغَل القارىء بالشاعر الذي أدرسه اكثر مما اشغله بنفسي ، وهذه إشارة ارجو ان ينتفع بها المتحذلقون .

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفني فيها من اغلاط ، وشرحت

ما يجب شرحه من الاشعار خدمة للقارىء الجاحد الذي لا يفهم قيمة الوقت الذي ينفقه الشارح في تحديد المعاني ، وصححت الكتاب كله بنفسي تصحيحاً دقيقاً ، فان رأى فيه القارىء أغلاطاً فذلك ذنبُ العَجَلة لا ذنبي ، وأدخلتُ فنوناً من الذوق على الطباعة في بغداد سيذكرها مَن عاملتُ من اصحاب المطابع.

• • •

بغداد

هذا كتابي ، أقدمه بيميني في تهيّب واستحياء ، فان رضيتِ عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلستِ أول حسناء تجحد الجميل !

اصنعي في ودادي من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال ، أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما عجزت عنه القاهرة وباريس .

أنت مظلومةٌ يا بغداد ، وانا مظلومٌ يا بغداد ، والظلمُ يجمع بين القلوب . نصرك الله ونصرني ؛ ورعاك ورعاني ، إنه سميع مجيب ! وعليك مني السلام !

٣١ آذار سنة ١٩٣٨ — زكي مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله الذي أمدّني بالصبر على مكاره الحيـــاة الأدبية ، باسم الله الذي حبب إليّ الأنس بعناء البحث والدرس في غفَوات الليل ، باسم الله اقدم الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضي » مصحوبة بزيادات وتحقيقات رجوت بها أن يكون كتابي هو الفيصل في قضاء حق الشريف .

وهذا الكتاب هو صورةٌ من صور النشاط الذي بذلته حين تشرفتُ بخدمة العلم والأدب بدار المعلمين العالية في بغداد ، وهو عزيزٌ علي جداً : لأنه جعل لي مقام صِدقٍ في الأقطار العربية والإسلامية ، ولأنه من كرائم الذكريات التي خلفتها في ديار الرافدَين ، ولأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبني سُبقتُ اليه في شرح اغراض الشعراء ، حتى كدت اتوهم أني طُفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين !

وما تذكرت عهدي بدار المعلمين العالية في بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتي وزملائي هناك : فقد كانت أيامي في صحبتهم من أخصب العهود في حيـــاتي . حفظ الله عليهم نعمة العافية ، وجعلهم من ذخائر الأدب الرفيع !

هذا ، وقد كان قيل إني احتفلتُ بالأسلوب في هذا الكتاب ، واقول إني لم أتعمد ذلك ، فقد كانت المطابع تأخذ الموادّ ورقة ورقـــة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث ، وكنتُ حينذاك اغذّي مطبعتين في وقت واحد ، مع الاشتغال بأصول كتاب « وحي بغداد » وكتاب « ليـلى المريضة في العراق » وكتابٍ ثالث سيعلم القراء أنباءه بعد حين ، وتلك جهود لا يتسع معها الوقت للزّخرف والتنميق .

وإنما فُتن بأسلوبي في هذا الكتاب من فِتن لأنه رآني اقبس من النار التي

قبَس منها الشريف ، ومن هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول في إحدى مجلات بغداد « إن نثر زكي مبارك له روعةٌ تفوق روعة شعرالشريف في بعض الأحيان» فان صح ذلك القول فهو شاهدٌ على قوة الصلة بيني وبين الشريف ، وهو ايضاً من علائم التوفيق ، فما كان يجوز ان نلقى الشريف إلا بنثرٍ يماثل شعره في القوة والعذُوبة والصفاء .

...

أيها الشريف !

لقد قضيت حقك وانصفتك ، وأيدت مركزك في عالم الخلود ، بـــلا مَنٍّ عليك ، وهذا كتابي أُقدمه هديةً اليك بمناسبْة مرور الف سنة على ميلادك ، وانا أحمد الله الذي وصل جناحي بوطنك لأحلق في الجوّ الذي عشتَ فيه فأرى اسرار قلبك وسرائر روحك ، والقاك وجهاً لوجه بين مدارج الرشْد والغي في ضمائر « الزّوراء » .

وأرجو – ايها الشريف – أن تنسى بعض ما قدمتُ اليك من إساءة في هذا الكتاب ، فمن واجب الصديق ان ينسى هفوات الصديق ، إذا صدرتْ عـــن إخلاص للأدب وغيرةٍ على التاريخ .

مصر الجديدة محمد زكي عبد السلام مبارك

عبقرية الجندي المجهول

أيها السادة :

من طرائف ما اصطلح الناس عليه في العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة والأبطال ، وهو الذي يسمونه قبر الجندي المجهول ، وذلك القبر يضم عظاماً لا يعرف صاحبها على التحقيق ، ولكنها في أذهان الناس رمز التضحية والاخلاص .

قد يكون ذلك الجندي أشجع الجنود ، وقد يكون أجبن الجنود ، ولكنه في جميع حالاته أسعد الأموات ، لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء ، ولأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين ، من الازهار والرياحين ، فهو إن كان في حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذي قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء ، وإن كان من الضعفاء الجبناء شكر الله على ستر حاله فأضافه إلى الشهداء .

وإقامة الضريح للجندي المجهول هي أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت ، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التي يتمثلها من يزور قبر الجندي المجهول ، وكلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى ومن الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر في المواسم والأعياد .

ولكن حدثوني ، أيها السادة ، كيف يكون شعور الروح ، روح الجندي المعروف لا المجهول ، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة ، ولا يعترضهم من روحه مثال ؟

كيف يكون شعور الروح ، روح القائد المغوار الذي يمر الناس على قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب ؟

حدثوني كيف يكون شعور ذلك الروح ، وكان في دنياه أرقّ من الزهر ، وأقسى من الزمان؟

ولو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت في أرض مواتٍ لهان عليه خطب النسيان!

ولكنه يعرف أن عظامه دفنتْ في أرض تُخرج أطيب الثمرات ، وتختال بمن يمشي فوقها من أقطاب الرجال ، كيف يكون شعور ذلك الروح في تلك الأرض: الروح الذي اسمه « الشريف الرضي » في الوطن الذي إسمه « العراق » ؟

ولكن مهلًا فلن يُنسَى الشريف الرضي بعد اليوم ، فستنشر ذكراه في جميع الأقطار العربية ، وسيذكر في أكثر اللغات الاجنبية ، وسيحيا شعره على الالسنة والقلوب فيما سيأتي من الأجيال ،

قد تسألون؟ وكيف تحكم على الشريف الرضي بالخمول وهو جدّ معروف؟

وأجيب بأن الشريف الرضي لقي في دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق : فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وأعظم شاعر تنسم هواء العراق ، ومع ذلك سكت عنه النقد الأدبي فلم يؤلف عنه كتابٌ ولا فصلٌ جيدٌ من كتاب ، ولو كان ديوان الشريف الرضي في لغة الفرنسيس أو الانجليز او الالمان لصنّفت في شعره مئات المصنفات وأقيمت له عشرات التماثيل :

أليس من العجيب أن يُطبع ديوان الشريف الرضي منذ ثلاثين سنة في وطن غير وطنه، ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين .

أليس من العجيب أن لا يُعرَف قبر الشريف الرضي على التحقيق فيقام له ضريح في الكاظمية ، مع ان مترجميه ينصون على أنه دُفِن في كربلاء ؟

أليس من العجيب أن يسألنا الاستاذ علي الجارم بك المفتش الاول للغة

العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذي يرجع اليه في أبيات الشريف:

ولقـــد وقفتُ على ديارهمُ وطلولُهـــا بيد البلَى نَهْبُ
فبكيتُ حتى ضج من لَغَبٍ نِضْوى ولجّ بعذلِيَ الركبُ
وتلفتتْ عيني فمذ خَفِيَتْ عني الطلول تلفت القلب

وأن يجزم بأنه لم يرها في ديوان الشريف مع أنها مثبتة في الديوان وكان ذلك دليلا على أن الشريف منسي لا يعرف ديوانه رجل في منزلة الجارم وهو شاعر مجيد؟!

على أن هذه الأبيات لم يعرفها الادباء إلا لأنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، ولولا ذلك لظلت مطمورة لا يرويها سامر ولا يتمثل بها خطيب.

...

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضي من الخاملين.

وأنا أيضاً أنكر ذلك الخمول.

ولكن حدثوني في أى ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين والناقدين

لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، وعند المحدَثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه في اللغات الأوربية.

ولكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع في معرضين: الأول في التاريخ السياسي حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين في مصر والعباسيين في العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضي قال في التعريض بحكومة الخليفة القادر بالله.

ما مقامي على الهوان وعندي مِقْولٌ صارمٌ وأنفٌ حميٌّ
وإباءٌ محلِّقٌ بي عن الضَّيْـ ـمِ كما راغَ طائرٌ وحشيٌّ
أيُّ عذرٍ له إلى المجد إن ذلّ غلامٌ في غِمدهِ المشرفيٌّ

ألبسُ الذل في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويُّ
مَن أبوه أبي ومولاه مولا يَ إذا ضامني البعيد القَصِيُّ
لفَّ عِرقي بعرقه سيدا النا س جميعاً محمدٌ وعليُّ
إن ذلي بذلك الجوِّ عز وأوامي بذلك النقع رِيُّ
قد يذل العزيز ما لم يشمِّر لانطلاقٍ وقد يضام الأبيُّ
إن شراً عليَّ إسراع عزمي في طِلاب العلا وحظّي بطيُّ
أرتضي بالأذى ولم يقف العز مُ قصوراً ولم تعزَّ المطيُّ
تاركاً أسرتي رجوعاً إلى حيـ ث عذيري قدٌّ ورَعيٌ وبي
كالذي يخبط الظلام وقد أقـ مَرَ من خلفه النهار المُضيُّ

ولهذه الابيات قصة أشار اليها ابن أبي الحديد ، ولولا صلتها بالتاريخ السياسي لسكت عنها الكاتبون ، وللسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته في خطاب القادر بالله :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ أبداً كلانا في المعالي مُعْرقُ
إلا الخلافة ميزتك فانني أناعاطلٌ منها وأنت مطوَّقُ

أما المعرض الثاني الذي أثير فيه اسم الشريف الرضي فهو الكلام عن صحة النسب ، نسب كتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف ما أوثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الخطب والحكم والعهود، فقد ارتاب بعض الناقدين في نسب ذلك الكتاب ورجحوا أنه من إنشاء الشريف . والمقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية ، وقد أشرت اليها في كتاب النثر الفني[1] فلا أعود اليها الآن ، وإنما يهمني أن أسجل أن الثورة

(١) ج١ص٩٦ واشرت اليها بعد ذلك في كتاب (وحي بغداد) ص ٢٤٦و٢٤٧ .

على نهج البلاغة كانت السبب الثاني في نباهة الشريف ، وإنما كانت كذلك لأن الكتاب منسوب إلى علي بن ابي طالب ، وهو في جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية والخطابية في العصر الاسلامي ، وتصحيحه أو تزييفه يعدُّ من المواقف الحاسمة في ذلك التاريخ .

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يُقرَن اسم الشريف الرضي باسم علي بن أبي طالب ، تصوروا كيف كانت تحمل ذكراه وهو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الادبي له أثراً في النثر الفني إلا حين يدّعي أنه المنشىء لتلك الخطب والحكم والعهود .

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم علي بن ابي طالب ، وإلا فحدثوني أين رسائله الطوال التي كانت تقع في ثلاث مجلدات ؟

تقولون : إن التاريخ تحامل على الشريف بسبب التشيع ، إن صح ذلك فحدثوني كيف سكت عنه ادباء مصر والشام والحجاز والمغرب والاندلس وهم لا يعرفون العصبية ضد التشيع ؟ بل حدثوني كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ .

تقولون : إن للشريف الرضي قبة تزار بالكاظمية ؟

أهلًا وسهلاً ، ولكن هل تعرفون لأي معنى يزور الناس قبته بالكاظمية ؟

أعيذكم ان تقولوا إنهم يزورونها باسم الادب والبيان .

إنهم يزورونها لمعنى ديني صرف ، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض ، ولولا ما شاع وذاع من أن ابن الفارض من الاولياء لما عرف المصريون ان له ضريحاً يزار وتلتمس به البركات وهل عرف المصريون قبر ابن هشام الانصاري الذي رفع القاهرة مكاناً علياً وجعل هامتها في النحو مساويةً لهامة بغداد ؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذي يعدُّ أشرف وأعلم من

درسوا بالازهر الشريف ؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندي الذي دان اللغة العربية بأفضل كتاب في تاريخ الإنشاء وهو « صبح الأعشى » ؟

هل عرف المصريون قبر النويري أول مؤلف في الموسوعات العربية ؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقي على الزمان ، صاحب لسان العرب الذي ألفه وهو جالس على الحصير الممزق بحي الحسينية ؟

وكيف تقولون ان الشريف الرضي خمل بفضل التشيع وهو مذهب له قواعد وأصول ، مع أن المجون كان من أسباب شهرة أبي نواس ، ومع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبي العلاء ؟

أفي الحق ان الرجل لا يشتهر إلا إن أصبح على وفاق مع جميع الناس ؟

أفي الحق أن الفضل وحده يسمو بالرجل إلى أرفع الدرجات ؟

إن قلتم ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بضد ما تقولون ، ألسنا في هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية والسياسية ؟

ما هي الاسباب التي قضت بشهرة محمد عبده وقاسم أمين ؟

هل يعرف أحدٌ اليوم ان محمد عبده كان في حقيقة أمره من العلماء المحققين الذين يدركون أسرار العلوم العقلية والنقلية ؟ هيهات ، إنه لا يُعرَف إلا بفضل نضاله الدموي في إصلاح المناهج الازهريـــة والثورة العرابية ، ولو رُفع هذان الحادثان من حياته لما عُرِف له تاريخ .

هل يفهم أحدٌ اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع ؟ هيهات هيهات ، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته في الدعوة إلى السفور وحرب الحجاب

• • •

آمنتم الآن بان الشريف الرضي لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية والدينية ، ثم تسالون : ولكن كيف كُتِب على الشريف الرضي

أن يُرْزأ في عالم الشعر بذلك الخمول ؟

ونجيب بان الامر كان كذلك لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة والشهرة وبُعد الصيت : فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته ، ولولا انتقاله من أرض إلى أرض وموته مسموماً في سبيل الثأر لابيه لما ذكره الذاكرون ، وطَرَفة بن العبد لم يَسِرْ ذكره إلا لموته قتيلا وهو في سن العشرين ، وحسان لم يشتهر إلا لانه كان شاعر الرسول ، والشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته وإنما اشتهر بفضل اشتراكه وهو راغم في فتنة الامين والمامون ، وأبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته ، وإنما اشتهر لانه سجل في شعره حادثة رجّت الارض وهي فتح عَمُّورية ، والبحتري لم يشتهر بفضل شعره ، وإنما اشتهر لانه حضر ماساة دوّنها التاريخ : وهي شهوده قتل المتوكل والفتح بن خاقان ، والمتنبي لم يكن شعره سبب شهرته ، وانما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين :

الاولى : رحلته إلى مصر في سبيل المجد ، والثانية : موته قتيلا بالبيداء.

ولم يتفق للشريف الرضي شيء من ذلك ، فقد كان يطلب الخلافة سراً لا علانية ، ولو تمّ له ما أراد من المُلك لعرف الناس شاعريته وسطروا في الثناء عليه مئات التآليف ، ولكنه مات ميتة عادية ، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغي أن يدفن بجانب جده الحسين في كربلاء.

ولست بهذا أتجنّى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية ، وإنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الاصيل في انحراف الموازين .

فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثوني عن المشهور من قصائد الشريف ؟ أليست قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي أشهر شعره ؟ بلى ، هي كذلك ، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تشتهر إلا بفضل ما اتصل بها من

الشذوذ ، إذ كانت في رجل صابىء يرثيه سيد شريف؟

فان تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد في ديوان ذلكم الشاعر العظيم .

أين من يعرف الدالية :

جرّي النسيم على ماء العناقيد وعللي بالأماني كل معمودِ

يا نفحةً هزت الأحشاء شائقةً فذكَّرَتْ نفحات الُخرّد الغيدِ

أين من يعرف الغينية :

منابت العشب لا حامٍ ولا راعٍ مضى الردى بطويل الرمح والباع

أين من يعرف اللامية :

أمِلْ من مثانيها فهذا مَقيلُها وهذي مغاني دورهم وطلولُها

ولو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعاني مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا في أشعار الشريف أوسع مجال : فسترون عنده كرائم الطيبات ، سترون أن ذلك الرجل عاني في حياته أعنف أزمات الوجدان ، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية وهي نقابة الأشراف ثم يكون في الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب والجمال ، سترون أن الشريف الرضي تفرد بوصف مواسم العيون والقلوب في الحجازيات ، سترون أنه قال في الصداقة والأصدقاء ما لم يسبقه اليه سابق ، وما يعسر أن يلحقه فيه لاحق ، سترون أن كلمة (العلا) وكلمة (المعالي) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر ، ولم يلهج بهما لسانٌ أفصح من ذلك اللسان ، سترون أن العفاف لم يجد شاعراً يجعله أظرف من الفسق وأعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف ، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يبكيهم باندى من ذلك الدمع وأصدق من ذلك الفؤاد ، سترون أن لئام الناس لم تُوسم جباههم وجنوبهم بميسم أقوى وأعنف من

قصائد ذلك الفاتك الصوال .

سترون أيها السادة أن الشريف الرضي كان شاعر القلب والعقل والذكاء ، سترون شاعر الانسانية يفصح عما تعاني من شهوات وأهواء وآلام وأرزاء ، وأمانٍ وآمال .

سترون انه يحس ما تحسون اليوم ، ويشعر بما تشعرون ، مع أنه سبقكم إلى تنشُّم هواء العراق بنحو ألف سنة ، وسيظل يشارك الناس في أحلامهم وأحقادهم آلاف السنين .

أفما كان في تلك الجوانب النفسية والذوقية والعقلية ما يَلفِتُ أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعاني ؟

ألم تكن هموم الجد في أشعار الشريف الرضي أولى بعناية النقاد من البحث عن شرقات المتنبي ؟

ألم يكن الحرص على تدوين أوابده في نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومي في شتم الناس ؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف وهو يصرخ فيقول :

أنا النُّضار الذي يُضَنُّ به   لو قلَّبتْني يمينُ منتقدِ

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل في بغداد إذ يقول :

ليلي ببغداد لا أقرُّ به   كأنني فيه ناظر الرمدِ
ينفر نومي كأن مقلتَه   تُشْرَجُ أجفانها على ضَمَد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد فقال يخاطب الثلج الذي رآه أهلها أول مرة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٨ .

أقول له وقد أمسى مُكِباً   على الأقطار يضعف أو يزيدُ

وراءكَ فالخواطرُ باردات ٌ على الإحسان والأيدي جُمودُ
وإنك لو تروم مَزيدَ بردٍ على بَرْدٍ لأعوزك المزيدُ

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق ، ولكنهم لم يسكتوا عن ضجر المتنبي من مصر ، لأن ضجر الشريف من العراق لم تشهره الحوادث ، أما ضجر المتنبي من مصر فقد صحبته خطوبٌ تحدث بها الركبان ، فكأنّ الرواة والنقاد لا يلتفون إلى الشعر إلا أن دُقّتْ من حوله الطبول .

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار في التعريض بخلفاء بني أمية ولا يذكرون ما قال الرضي في التعريض بخلفاء بني العباس ؟

انهم يذكرون أبيات بشار لأنها جرَّت عليه القتل ، ولا يذكرون أبيات الرضي لأنه خرج منها بعافية ، وإلا فأي شعر أخطر من شعره وهو يقول في التعريض بخلفاء بني العباس :

أمَا تُحرِّكُ للأقدار نابضةٌ أما يُغيِّرُ سلطانٌ ولا مَلِكُ
قد هادَنَ الدهرُ حتى لا قِراع له وأطرق الخطب حتى ما به حرَكُ
كلٌّ يفوت الرزايا أن يقعن به أما لأيدي المنايا فيهمُ دَرَكُ
قد قصّر الدهر عجزاً عن لحاقهمُ فأين أين ذميل الدهر والرتَك [1]
أخلّت السبعةُ العُليا طرائقها ؟ أم أخطأت نهجها أم سُمِّر الفلكُ ؟

...

لقد غفل النقاد عن المعاني الانسانية والشخصية في أشعار الشريف الرضي ، ولم يتحدثوا عن عيون القصائد في ديوان ذلك الشاعر القليل النظائر والأشباه ، فهل ترونهم قيدوا ما في أشعاره من الحكم والأمثال ؟ هل سمعتم أن أديباً جاد من وقته باسبوعين أو ثلاثة أسابيع في الغوص على

(١) الذميل : السير ، والرتك : تقارب الخطو

ما في ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التي تفصح عن بصره بخلائق المجتمع وسرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بانه في هذه الناحية أشعر من المتنبي: لأن المتنبي كان يقصد إلى الحكمة قصداً، ويتعمدهـا وهو متكلف، أما الرضي فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية والطبع، فيرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف.

ما رأيكم في هذا البيت:

إذا قلَّ مالي قلَّ صحبي وإن نما فلي من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ

وهذا البيت:

يغرُّ الفتى ما طال من حبل عمرهِ وتُرخي المنايا برهة ثم تَجذبُ

وهذا البيت:

وآمل أن تقي الأيام نفسي وفي جنبي لها ظفر ونابُ

وهذا البيت:

تفدي الفتى في عيشه ألسُنٌ وما له من حتفه فادِ

وهذا البيت:

كل حبس يهون عند الليالي بعد حبس الأرواح في الأجسادِ

وهذا البيت:

علامة العز أن حُسِدتَ بهِ إن المعالي قرائن الحسدِ

وهذا البيت:

ينال الفتى من دهره قدر نفسهِ وتأتي على قدر الرجال المكايدُ[1]

(١) في هذا البيت معنى يغاير قول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وهذا البيت :

يعرفك الاخوان كل بنفسه　　وخير أخ من عرَّفتك الشدائدُ

وهذا البيت :

ليس الغريب الذي تنأى الديار بهِ　　إن الغريبَ قريبٌ غير مَودودِ

وهذا البيت :

ما الفقرُ عارٌ وإن كشفتَ عورته　　وإنما العار مالٌ غير محمودِ

وهذا البيت :

إذا بزَّني مالي عطاءً تركتهُ　　حميداً وطالبت القواضب بالردِّ[1]

وهذا البيت :

إذا الشمس غاضتْ كل عينٍ صحيحةٍ　　فكيف بها في هذه المُقل الرُّمدِ

وهذا البيت :

كلُّ جوادٍ كاذبٌ في الوعـدِ　　وكل خِلٍّ خائنٌ في الودِّ

وهذا البيت :

واهاً لنفسٍ حُبستْ في جلدي　　إن الأسير غَرضٌ بالقِدِّ[2]

وهذا البيت :

وعتاب الزمان مثل عتاب العـين تُنهَى ودمعها بازديادِ

وهذا البيت :

وما هـذه الدنيا لنا بمطيعةٍ　　وليس لخَلقٍ من مداراتها بُدُّ

وهذا البيت :

والمال أهون مطلباً من أن أرى　　ضَرعاً أرامي دونه وأداري

---

(١) القواضب : السيوف القواطع

(٢) الغرض – بكسر الراء – التضجر ، والقد بالكسر :القيد

وهذا البيت :

قالوا على قدر الرجاء وإنما يروى على قدر الأُوام الصادي

وهذا البيت :

ما أنصف الفاسق في لحظهِ لما أرانا عِفة العابدِ

وهذا البيت :

كنت أداوي كبـــدي لو تركوا لي كبدا [1]

وهذا البيت :

وإن حديث النفس بالشيء دونهُ رِمال النّقا من عالجٍ لشديـــد

وهذا البيت :

وجدوا وما جادوا ومحتقبٌ للوم من أثرى ولم يَجُـــدِ

وهذا البيت :

أما كان فيكم مُجملٌ أو مجاملٌ إذا لم يكن فيكم أغرٌّ جوادُ

وهذا البيت :

ما مُقامي على الجداول أرجوهـا النَيل وقد رأيتُ البحارا [2]

وهذا البيت :

إذا قيّـــد الليل خطو المنى مشى النوم في مقلة الساهرِ

وهذا البيت :

لحا الله دهراً كثير العـــدوّ حتى الظلام يعادي النهـــارا

وهذا البيت :

وكيف يتمّ في بـــلد صلاةٌ وجُلُّ بقاعه قِبَلُ الفجورِ

---

(١) وقد رأيته في قصة غرامية فهل يكون ورد في شعر الشريف عن طريق الاقتباس ؟

(٢) وهو ينظر الى قول المتنبي : ومن قصد البحر استقل السواقيا

وهذا البيت :

ومــا فَخْرُ العفيف الجسـ م إن فَسَقَتْ سرائرُه

وهذا البيت :

مـــن يعشق العزَّ لا يرنو لغانية في رونق الصفو ما يغني عن الكدِر

وهذا البيت :

والليث لا ترهب الأقران طلعته حتى يصمّم منه الناب والظُّفُرُ

وهذا البيت :

ما كل نسل الفتى تزكوا مغارسهُ قد يفجع العود بالأوراق والثمرِ

وهذا البيت :

كم حاطبٍ خانه حبلٌ فاقعصهُ ذُلاً وشرُّ الحبال الحية الذكرُ

وهذا البيت :

سالم تصاريف الزمان فمن يَرُمْ حرب الزمان يَعُدْ قليل الناصِر

وهذا البيت :

لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطبيب أحق بالعمرِ

وهذا البيت :

كلَّ يوم ندمٌ للدهر عهداً خان فيه ونشتكي منه غدراً

وهذا البيت :

إنمـــا المرء كالقضيب تراه يكتسي الأخضر الرطيب ليعرَى

وهذا البيت :

إذا تناءت بنـــا قلوبٌ فلا تدانت بنـــا ديارُ

وهذا البيت :

ومن قيّد الألفاظ عنـــد نزاعها بقيد النهى أغنته عن طلب العذرِ

وهذا البيت :

والحر تُنهضه إما شجاعته إلى الملمّ وإما خشية العارِ

وهذا البيت :

وهل نافعي يوم أقضي صدًى إذا صاب واديَ قومي المطر [1]

وهذا البيت :

والناس أسدٌ تحامي عن فرائسها إما عقرْتَ وإما كنت معقورا

وهذا البيت :

وليس كل ظلام دام غيهبه يسرُّ خابطه أن يطلع القمرُ

وهذا البيت :

ما كل مُثمِرةٍ تحلو لذائقهـا إن السياط لها من مثلها ثمر [2]

وهذا البيت :

وهبك اتقيت السهم من حيث يُتقى فمن ليدٍ ترميك من حيث لا تدري

وهذين البيتين :

يقولون نم في هدأة الدهر آمناً فقلت ومن لي أن يهادنني الدهر
هل الحرب إلا ما ترون نقيضةٌ من العمر أو عُدمٌ من المال أو عُسْر

وهذا البيت :

وهل نافع يوماً وجَدُّك راجلٌ إذا قيل يوم الروع انك فارس

وهذين البيتين :

---

(١) هذا البيت ينظر الى قول ابي فراس الحمداني :

معللتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

(٢) الثمر هنا هو العقد في اطراف السوط ، والمراد ان من الثمار ما تعافه النفس ومنها ما يجر الى الهلاك .

أن زدتهم فلــــقد نقصتهمُ ان الزيادة بالشَّغا نقصُ [1]
ومن المخازي عنــــد لابسها ما لا تواري الأزرُ والقُمْصُ

وهذا البيت :

يُقْدِمِ الباسل الأبيُّ على الحيف وفيه الهوان نكوصُ

وهذا البيت :

وكُيف وُفورُ العِرض والمال وافرٌ ومن يخزن الأموال يُنفقْ من العرض

وهذا البيت :

والسيف إن مرَّ على هامةٍ زوَّعهـــا إن هو لم يَقْطَعِ

وهذا البيت :

ألا ان رمحاً لا يصول لَنبعةٌ وان حساماً لا يَقُدُّ قطيع [2]

وهذا البيت :

وبعض مقال القائلين مكذبٌ وبعض وداد الاقربين خدوعُ

وهذا البيت :

ما لُبثُ من يمسي مجازاً للردى ومعرَّج القَدَر الغِذِّ المسرعِ

وهذا البيت :

رأى بارقاً لم يروني وهو حاضر فكيف أرجّي ريَّهُ وهو شاسع

وهذين البيتين :

الناس حولك غِربان على جِيَف بُلْهٌ عن الجد إن طاروا وإن وقعوا
فما لنا فيهمُ ان أقبــلوا طمعُ ولا عليهم إذا مـــا أدبروا جزع

---

(١) الحكمة في الشطر الثاني . وللشريف شطرات كثيرة تجري مجرى الأمثال ولكننا سكتنا عنها تجنباً للاسهاب فليراجعها في ديوانه من يشاء

(٢) القطيع : السوط

وهذين البيتين :

يقولون ماش الدهر من حيث ماشى فكيف بماش يستقيم وأظلعُ

وما واثقٌ بالدهر إلا كراقدٍ على فضل ثوب الظل والظل يسرعُ

وهذا البيت :

لقد عاف أمواله من يجود وقد طلّق النفس من يشجُعُ

وهذا البيت :

بالجدّ لا بالمساعي يُبلَغ الشرف تمشي الجدود بأقوام وإن وقفوا

وهذا البيت :

ومن يشرب بصافٍ غير رَنقٍ يَرِدْ يوماً برَنْقٍ غير صافي

وهذا البيت :

كأن الليالي كن آلين حِلفةً بأن لا يُرى فيهن شمل مؤلّفُ

وهذا البيت :

كيف يرجو الكثير من راضه الشوق إلى ان رضي ببذل الطفيف

وهذا البيت :

وضيوف الهموم مــذ كنّ لا ينزلن إلا على العظيم الشريفِ

وهذا البيت :

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي أنكحت بنت عامر من ثقيف[1]

وهذا البيت :

إنما نلبس الدروع ثِقــالا لرجوع إلى خِفاف الشفوفِ

---

(١) لما ظهر ديوان زكي مبارك اعترض ادباء العراق على هذا البيت :

لم تنسني فتنة الدنيا زينتها وما في شمائلك الغراء من فتن

وهذا البيت :

إذا أنت فتشت القلوب وجدتها قلوب الاعادي في جسوم الاصادق

وهذا البيت :

وما جمعيَ الأموال إلا غنيمةٌ لمن عاش بعدي واتهامٌ لرازقي [1]

وهذا البيت :

كم لسان دنا إليـــك بقلبٍ منافقِ

وهذا البيت :

ولادار إلا سوف يُجــلَى قطينُها على نعق غربان الخطوب النواعقِ

وهذا البيت :

وما العيش إلا غمةٌ وارتياحة ومفترَقٌ بعد الدنوِّ وملتقى

وهذا البيت :

أراك تجـــزع للقوم الذين مَضَوْا فهل أمنت على القوم الذين بقُوا

وهذا البيت :

وإذا الحليم رمى بسر صديقهِ عمداً فاولى بالوداد الأحمقُ

وهذا البيت :

كفى بقوم هجاءً أن مادحهم يهدي الثناء إلى أعراضهم فرَقا

— وقالوا لاتوصف الشمائل بأنها غراء ، وإنما توصف بأنها غر ، وأطالوا الجدل في مجـــلة (أبوللو) ، واشترك الاب انستاس في الجدل ، وعارضنا معـــارضة طويلة في منزل الدكتور بشر فارس ، والان نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لابله ، فلينتقل العراقيون المعركة إلى شاعر العراق .

(١) في الديوان « اتهاماً » بالنصب وهو تحريف ، ويظهر ان مصحح الديوان ظن ان خبر « ما » منصوب . وهو كذلك في غير هذا الموضع.

وهذا البيت :

سابقٌ فليس تنال أغــــراض المُنى إلا سباقا

وهذا البيت :

وليس ينال الامر إلا بحازمٍ من القوم أحمى ميسما ثم ألصقا

وهذا البيت :

ولا تزرعوا شوك القتاد فانكم جديرون أن تدموا به وتشاكوا

وهذا البيت :

أبتغي عدل زمانٍ قاسطٍ[1] إنما الناس عــلى دين الملك

وهذا البيت :

وللنفس من عجز الفتى وزماعِه زمامٌ إلى مــا يشتهي وعِقالُ

وهذا البيت :

ولا تسمعنْ من حاسد ما يقوله فاكثر أقوال العداة مِحال[2]

وهذا البيت :

وليس يأتلف الإحسان في ملك حتى يؤلّف بين القول والعملِ

وهذا البيت :

كل حبيبٍ أبداً أيامُهُ قلائلُ

وهذا البيت :

ومن دواء الداء إن ما طلّ كيٌّ عاجلُ

وهذا البيت :

وما طلب البذل من باخلٍ بميسورهِ غــير داءٍ عُضال

---

(١) القاسط : الجائر (٢) المحال – بكسر الميم – المكر والدهاء .

وهذا البيت :

وإن طِراد النفس عما تَرُومه ... أشدُّ عناء من طِرادِ قبيلِ [1]

وهذا البيت :

وأول لؤم المرء لؤم أصوله ... وأول غدر المرء غدر خليلِ

وهذا البيت :

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتها ... بقلبك أمٌّ للبنين أكولُ [2]

وهذا البيت :

وإني رأيت غنيٌّ الانام ... إذا لم يكن ذا علاء مُقِلاَّ

وهذا البيت :

النفس أدنى عدوٍّ أنت حاذرهُ ... والقلبُ أعظم ما يُبلى به الرجل

وهذه الأبيات :

عادةٌ الزمان في كل يوم ... يتناءى خل وتُبكى طلولُ

فالليالي عون عليك مع البـ ... ـين كما ساعد الذوابلَ طُولُ

هي دنيا إن واصلت ذا جفت هـ ... ـذا ملالًا كأنها عُطْبُولُ

كلُّ باكٍ يُبكَى عليه وأن طا ... ل بقاءٌ والثاكل المثكول

وهذا البيت :

نؤمل أن نروى من العيش والردى ... شروبٌ لأعمار الرجال أكولُ

وهذا البيت :

وموت الفتى خير له من حياته ... إذا جاور الأيام وهو ذليلُ

---

(١) في الديوان (قتيل) وهو تحريف   (٣) في الديوان (ثكول)

وهذا البيت :

ومن مات لم يعلم وقد عانق الثرى   بكاه خليل أم سلاه خليل

وهذا البيت :

نُغالِب ثم تغلبنا الليـــالي   وكم يبقى الرميُّ على النبالِ

وهذا البيت :

سلّى عن العيش أنّا لا ندوم له   وهوّنَ الموت ما نلقى من العللِ

وهذا البيت :

هل نافعٌ نفسك أذلَلْتَـــها   كرامةُ البيت وعزُّ القبيل

وهذا البيت :

وسيان عندي من طواني على جوًى   يعذّب قلبي أو طواني على دَخْل

وهذا البيت :

وكل فتًى لا يطلب المجد أعزلٌ   وكل عزيز لا يجود ذليل

وهذا البيت :

وما المكرهون السمهرية في الطلى   باشجع من يُكره المال في البذل

وهذه الأبيات :

اشترِ العزّ بمـــا بيـ   ـعَ فما العزُّ بغـــالِ
بالقصار الصُّفر إن شئـ   ـتَ أو السُّمر الطوالِ
ليس بالمغبون عقـــلًا   من شرَى عزاً بمالِ
إنما يُدّخر المـا   لُ لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ   ـوالَ أثمان المعالي

وهذا البيت :

إذا ما نفع الجهلُ　　قان الضائر العقلُ

وهذا البيت :

وما شررٌ تطاوَحَ عن زنادٍ　　بمفتقدٍ إذا بقَي الضرامُ[1]

وهذا البيت :

وكيف نوم المرء من تحتهِ　　دون الكَرَى مضطرَب الارقم

وهذا البيت :

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعتهُ　　على مضضٍ لم تُبق لحماً ولا دما

وهذا البيت :

كالغيث يخلفه الربيع و بعضهم　　كالنار يخلفها الرماد المظلمُ

وهذا البيت :

أهبُّوا فقد تتيقظ　　الأجداد للقوم النيام

وهذا البيت :

ما الذنب للمزن جازتني مواطرهُ　　وإنما الذنب للأرزاق والقِسَمِ

وهذا البيت :

إن من خاضت النواظر فيهِ　　لَحَرٍ أن تخوضه الأقدامُ

وهذا البيت :

وما الليث الا من يُدِلُّ بنفسهِ　　ويمضي اذا ما بادهته العظائمُ

وهذا البيت :

لا تصفحنَّ عن اُلمليم اذا جنى　　واذا المضارب أمكنتك فصمِّمِ

---

(١) تأمل روعة الخيال في هذا البيت

وهذا البيت :

لا يذخر الضيغم من قُوتهِ ما يذخر النمل من المطعمِ

وهذا البيت :

قد يبلغ الرجل الجبان بمالهِ ما ليس يبلغه الشجاع المُعدمُ

وهذا البيت :

قد يُقدَع المرءُ وان كان ابن عمٍّ ويُقطَع العضو الكريم للألم

وهذا البيت :

وما كل ليث يغنم القوم زادهُ اذا خفقتْ تحت الظلام الضراغمُ

وهذا البيت :

اذا العدوُّ عصاني خاف حدَّ يدي وعرضه آمنٌ من هاجرات فمي

وهذا البيت :

ولو أمن الجبان من المنايا لأغمد سيفه البطل الحامي

وهذا البيت :

من أضمر الصد عمن ليس يضمرهُ بغياً مشى في نواحي سره الندمُ

وهذا البيت :

وغير بعيد منك ناء تزوره وغير قريب قاطنٌ لا تؤُمهُ

وهذا البيت :

أضعتُ الهوى حفظاً لحزمي وإنما يصان الهوى في قلب من ضاع حزمه

وهذا البيت :

تشِفُّ خلال المرء لي قبل نطقهِ وقبل سؤالي عنه في القوم ما اسمه

وهذا البيت :

ولا تيأسنْ من عفو حُرٍّ فإنما تحلمُهُ باقٍ اذا ضاع حِلمهُ

وهذا البيت :

فلا عارَ أن تستنجد الكأسَ راحةٌ ... أضرَّ بها حمـــل الجزارِ المصمّمِ

وهذا البيت :

تمضي الزمان ولا نحس كأنه ... ريحٌ تمر ولا يشمُّ نسيمها

وهذا البيت :

كم ذاهبٍ أبكى النواظر مدةً ... ومضى وطاب لمقلة تهويمها[1]

وهذا البيت :

ونلقى قبل لقيـــات المنايا ... رماحَ الداء تطعن في الجسومِ

وهذا البيت :

فليت كريم قومٍ نال عرضي ... ولم يدنّس بحمدٍ[2] من لئيمِ

وهذا البيت :

تُملي المقاديرِ أعماراً وتنسخها ... ويضرب الدهر أياماً بأيامِ

وهذا البيت :

نصف عيش المرء نومٌ والذي ... يعقل العاقل منه كالحـــلُمْ

وهذين البيتين :

والحرُّ من حـذر الهوا ... ن يزايـل الأمر الجسيما

والضيم أروح منـه مطـ ... رورُ الظُّبا بلغ الصميما[3]

وهذا البيت :

وخاطرٌ على الجُلّى خطار ابن حرةٍ ... وإن زاحم الأمرُ العظيمُ فزاحمِ[4]

---

(١) التهويم : النوم القليل (٢) في الديوان (بذم) والذي أثبتناه أقوى من الوجهة الشعرية

(٣) المطرور : المحدد ، والظبا : جمع ظبة وهي حد السيف او السنان

(٤) الجلى : الامر العظيم

وهذا البيت :

لا تصحبنَّ دهرك إلا خائفاً فراق إلف ونُبُوّا عن وطن

وهذين البيتين :

ومنظرٍ كان بالسّراء يضحكني ياقربَ ما عـــاد بالضراء يبكيني

هيهات أغـــتر بالسلطان ثانية قد ضل ولّاج أبواب السلاطين

وهذا البيت :

لا تامننَّ عدواً لانَ جانبه خشونة الصّل عُقْبَى ذلك اللينِ

وهذا البيت :

لا تُخلدنَّ إلى أرضٍ تهون بها بالدار دارٌ وبالجيرانِ جيرانُ

وهذا البيت :

إذا الفتى كان في أفعـــاله شوَهٌ لم يُغْنِ أنْ قيل إن الوجه حُسانُ

وهذا البيت :

ياقوم إن طويل الحلم مَفسدةٌ وربما ضرَّ إبقاءٌ وإحسانُ

وهذا البيت :

ما ينفع الماضين أن بقيتْ لهم خِطَطٌ معمّرَةٌ بعمرٍ فانِ

وهذا البيت :

وما خير عينٍ خبا نورها ويُمْنَى يدٍ جذَّ منها البنان

وهذا البيت :

ومـــا كل أصل كريم العرو قٍ تابى على الغمز عِيدانُهُ

وهذا البيت :

إذا منزل راب سكانـــهُ من الأرض حُرّم إيطانهُ

وهذا البيت :

وما الحب إلا فرقةٌ بعد ألفةٍ وإلا حِذارٌ بعد طول أمانِ

وهذا البيت :

إذا المرء لم يحفظ ذماماً لقومهِ   فاحجِ به أن لا يفي بضمانِ

وهذا البيت :

تعرّفني بأنفسها الليالي   وآنف أن أعرفها مكاني

وهذه الأبيات :

فكم صاحب تدمّى عليّ بنانهُ   ويُظهر أن العز لثمُ بناني
يضم حشا البغضاء عند تغيّبي   ويجلو جبين الود حين يراني
مسحت بحلمي ضغنه عن جنانه   فلما أبى مسّحتَهُ بسناني
سبقت برميي قلبه فاصبته   ولو لم أصبه عاجلاً لرماني

وهذين البيتين :

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها   لعظيم ما ألقى من الخلّانِ
وإذا أمنتَ من الزمان فلا تكن   إلا على حذرٍ من الإخوان

وهذا البيت :

وما تنفع المرء الشّمالُ وحيدةً   إذا فارقتْها بالمنون يمينُ

وهذا البيت :

وَسِعْتُ أيامي ولم تسعني   أفضُل عنها وتضيق عني

وهذا البيت :

وليس على زُهرِ الكواكب سُبَّةٌ   إذا غَضّ من أنوارها زِبْرِقانها [1]

وهذا البيت :

أكرر في الإخوان عيناً صحيحةً   على أعيُنٍ مرضى من الشّنْثانِ [2]

---

(١) الزبرهان : القمر   (٢) الشنثان : البغض

وهذا البيت :

لا تجعلنّ دليلَ المرء صورتــه ... كم مَخْبَرٍ سمِجٍ عن منظرٍ حسنٍ

وهذا البيت :

وربّ وفاح الوجه يحمل كفّهُ ... أناملَ لم يعْرَق بهنّ عِنان

وهذين البيتين :

وشرُّ الأذى ما جاء من غير حسبةٍ ... وكيد البادي دون كيد المداهنِ
وإنّ بلوغَ الخوف من قلب خائفٍ ... لَدُونَ بلوغ الخوف من قلب آمن

وهذين البيتين :

قصور الجد مع طول المساعي ... وقول الناس لم ينجح فلان
أحبُّ إليّ من سعيٍ هجينٍ ... وإن بلغ العلا جد هجان [1]

وهذين البيتين :

ومن عجبٍ صُدودُ الحظ عنا ... إلى المتممين على الخزايا
أسفَّ بمن يطير الى المعالي ... وطار بمن يُسِفُّ الى الدنايا

وهذين البيتين :

وتفرُّق البُعداء بعد مودةٍ ... صعبٌ فكيف تفرُّق القرباء
وخلائق الدنيا خلائق مُومِسٍ ... للمنع آونةً وللأعطاء

وهذا البيت :

اذا ما الحرُّ أجدب في زمانٍ ... فعفتهُ له زادٌ وماءُ

وهذا البيت :

هيهات يا دنيا وبرقـــك صادق ... أرجو ، فكيف اذاً وبرقك كاذبُ

---

(١) الهجين : اللئيم ، والهجان : الكريم ، والمراد : أن الخيبة مع السعي النبيل اشرف من الفوز مع السعي الخسيس ، فليست القيمة بالحظوظ ، وإنما القيمة بصدق الجهاد . وهذا معنى نفيس لا يخطر على بال شاعر إلا إن كان في مثل هذا الشريف .

وهذا البيت :

وأعظم ما ألاقي أن دهري يَعُدُّ محاسني ليَ من ذنوبي

وهذا البيت :

وللحلم أوقاتٌ وللجهل مثلها ولكن أوقاتي الى الحلم أقربُ

وهذين البيتين :

تجاذبني يـد الأيام نفسي ويوشك أن يكون لها الغِلابُ
وتغدر بي الاقارب والاداني فلا عجب اذا غَدَر الصِّحابُ

وهذين البيتين :

فماليَ طول الدهر أمشي كانني لفضليَ في هـذا الزمان غريبُ
اذا قلت قد علقتُ كفى بصاحبٍ تعُودُ عوادٍ بينـنا وخطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد !

ألاترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين والناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلاً لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما في شعره من الحكم والامثال ثم يبين ما فيها من المبتكَر والمنقول ؟ أما كان أهلا لان يُشغَل به النقاد فيقولون انه ابتكر كَيْت أوسرق زَيت ؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبي فيردون حكمه وأمثاله الى الادب المأثور عن قدماء اليونان فما بالهم سكتوا عن الرضي ذلك السكوت ؟

أتريدون الحق أيها الادباء ؟ الحق ان النقـاد شغلوا أنفسهم بالمتنبي طاعة لبعض الرؤساء ، ولم يشغلوا انفسهم به حباً في الوقوف على اصائل المعاني . ان حقد الصاحب بن عباد على المتنبي هو الذي وجّه الشعراء الى نقد شعره ، وكان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى والغرض أساس الشهرة التي تمتع بها المتنبي في الحياة وبعد الممات، ولولا التحامل على المتنبي

في الحياة وبعد الممات ، ولولا التحامل على المتنبي لما وُجِد له أنصار يرفعون اسمه فوق الاسماء .

وقد حُرم الشريف الرضي أسباب الشهرة من هذه الناحية ، فقدحمله التجمل والتعفف على هجر ابواب الملوك والوزراء ، فلم يكن يمدح حين يمدح الا عن حب او مداراة ، ولم يره أحدٌ يزاحم الشعراء والادباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قلَّ حاسدوه والحاقدون عليه ، فلم يَشقَ في ثَلبه قلمٌ ولا لسان ، ولم يكن الادب في تلك العصور يعرف الحياة الا بفضل المماراة والضجيج .

أفلا ترون معي أيها السادة ، أن الادب كان حظه حظ التاريخ لا لا يُرفَع فيه عَلَمٌ الا بفضل الدماء؟

لقد وَلِي مصر في العهد الاسلامي كثير من المتحكمين ، وكان كافور أقربهم الى الاذهان لانه أزال الغشاوة عن أماني المتنبي ، وتولى الوزارة في بغداد كثير من الرجال ، وكان أقربهم الى الاذهان اقطاب البرامكة لان سلطانهم خُتِمَ بالفجائع .

فيا ليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق ، لا بفضل من يحرسها من الجنود .

انهذه البلية لا تزال تسيطر على العقول والأذواق ، ففي عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل وأساليب لا تعرف المنطق ولا العدل ، وتلك الوسائل والاساليب ستصنع في الادب الحديث أمثال ما صنعت الاساليب القديمة في الادب القديم ، وقد شكا النقاد في فرنسا هذه البلية ،

إذ تبين لهم أن الكتاب والنقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف والثناء، وهم يسمّون ذلك بالكمارادري *Camaraderie* وتلك الكمارادري معروفة في مصر ولعلها أيضاً معروفة في الشام والعراق .

وقد شكوت هذه البلية ،واتفق لي أن أكون من ضحاياها في كثير من الأحيان ، وما شكوته أنا شكاه سواي ، فالنقاد اليوم يعرفون أصدقاءهم قبل سائر الناس، والجرائد والمجلات قد تعامل الكتاب والشعراء والمؤلفين وفقاً لصلاتهم بمختلف الاحزاب .

...

أما بعد فقد بينت لكم بعض الاسباب التي قضت على الشريف الرضي بالخمول ، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفتُ ذلك الشاعر العظيم ؟

لا تظنوا أني تلقيت الاعجاب به عن الاساتذة والادباء ، فقد كان أهل الأدب في عهد حداثتي لا يختلفون إلا حول أبي تمام والبحتري والمتنبي من بين القدماء ، وشوقي وحافظ من المحدَثين ، ثم اتفق ان شرعتُ في سنة ١٩١٧ أؤلف كتاب « مدامع العشاق » فحملني ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجداني في مختلف العصور ، وكانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضي شاعر القلب والوجدان .

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندي المجهول ، حتى أصبح له في مصر أشياع يقدمونه على سائر الشعراء ، وأصبحتم تسمعون رنين شعره من حنجرة « أم كلثوم » .

وها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه ، ها نحن أولاء نعود فنتحدث عنه في المدينة السحرية التي عرف فيها كيف تندّى

الأزهار ، وكيف تقعقع الرعود ، وكيف تصطخب القلوب

ها نحن أولاء نتحدث عنه في خشوع وقنوت ، كما يتحدث المؤمن وهو في حَرَم المحراب .

فيا أيها الشريف : أنا في وطنك وفي ضيافتك ، فارفع الحجب عن أسرار قلبك وسرائر عبقريتك ، في إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة ، ولا يرويه النيل . وسلام عليك بين المصطفَين الابرار من أقطاب الشعراء ...

الشاعر المثقف

أيها السادة :

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضي وبصره بالبلاغة وإحساسه قوة الكلام البليغ .

ولا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية في القرن الرابع ، ذلك العهد الذي رأى كيف تتصاول العقول ، وكيف تصطرع الأقلام، وكيف يكون الحول والطول مقرونين بسلاح المنطق وبراعة البيان .

ففي ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضةً أدبية لا تزال تسيطر على الأقلام والعقول إلى اليوم ، في ذلك العصر نبغ أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه . وفي ذلك العصر نبغ أبو بكر الباقلّاني صاحب إعجاز القرآن . وفيه نبغ أبو القاسم الآمدي صاحب الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري . وفيه ظهر أبو علي الحاتمي الذي سنّ المذاهب للهجوم على المتنبي . وفيه تفجرت فصاحة أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين .

وفي ذلك العصر ظهر إخوان الصفاء الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التي وعت معارف العرب والفرس واليونان . وفيه نبغ أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه . وفيه عرف النثر الفني أقطاباً عظاماً لا يزالون أعلام الفصاحة وفرسان البيان ، وكيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد وابن عباد والهمذاني والخوارزمي والتنوخي وابن وشمكير وابن شُهيد .

ومن هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الادبي والجدل العقلي، والنثر الفني، وهي مزايا كانت تفترق ما شاء لها الزمن الجائر، فيرى بعضها في الشام، وبعضها في مصر، وبعضها في الاندلس، ولكنها كانت تجتمع في بغداد، وكانت بغداد وطن الشريف كما تعلمون.

وصورة بغداد في القرن الرابع تتمثل في قول الصاحب بن عباد في خطابه إلى ابن العميد: « بغداد في البلاد، كالاستاذ في العباد » وتتمثل ايضاً في الجزع على فراقها، الجزع الذي أحسه أبو العلاء، وأبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم تريا من قبل، وصارت المجالس والمساجد هي الزهر والماء في إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

ومن ثقافة القرن الرابع ومعارف بغداد تكونت عقلية أبي العلاء الذي دان الأدب برسالة الغفران وبقصائده اللزوميات.

وقد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضي في القرن الرابع، وبعقل القرن الرابع، وشاءت الظروف أيضاً أن يكون من أسرة لها في العلم والأدب ماض جميل، بل وشاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة في العلوم العقلية والنقلية، ثم قضت بان يكون الشريف الرضي نقيب الاشراف في زمن لم يكن فيه للاشراف عرش ولا تاج، وإنما كان لهم مجد العلم والادب والبيان.

وقد وَفَى الشريف الرضي لعصره واسرته أصدق الوفاء، فاقبل على الحياة العلمية والأدبية إقبال الرجال، وشارك في التاليف مشاركة الفحول، فالف كتاب « حقائق التاويل في متشابه التنزيل » وكتاب: « مجازات الآثار النبوية » وكتاب: « تلخيص البيان عن مَجازات القرآن »

وكتاب: « الخصائص » و « أخبار قضاة بغداد » .

وما أزعم أني اطلعت على جميع هذه المؤلفات ، فقد ضاع أكثرها مع الأسف ، وإنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية ، وهو كتاب ممتع ، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، ويدل على بصره باللغة والادب ومذاهب البيان.

ولم تكن ثقافة الشريف مقصورةً على الجوانب الجافية التي وقف عندها بعض الاعلام في ذلك الزمان ، وإنما رق الشريف وظرُفَ ، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع وأبرعهم في وصف اللهو والمجون ، وقد تخير الشريف طائفة من شعره سماها : (الحسن من شعر الحسين) ولعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبي العلاء الذي سمى كتابه عن المتنبي : (معجز أحمد) وكتابه عن البحتري : (عبث الوليد) وكتابه عن أبي تمام : (ذكرى حبيب).

ولم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات ، وإنما امتد بصره فدرس الدنيا وخبر الناس، وساقه إلى ذلـــك أسباب خطيرة ترجع في جملتها إلى اثنتين : الاول تطلعه إلى الخلافة وحرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء في الحواضر الاسلامية ، والثاني تشوفه الى ماأجنّ الوجود من غرائب الصباحة ، وعجائب الجمـــال، وسترون في الليالي المقبلات كيف كان الشريف يعيش موزّع القلب والعقل بين الحب وبين المجد ، وكيف كان فريسةً للدسائس في عالم المجد وعالم الوجدان .

فالشريف الرضي أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون ، وهو لم يصف أزمات الحياة كما يفعل اللاهون والعابثون ، وإنما وصف حياة رآها بعينيه ، وأحسها بقلبه، وذاق من شهدها وصابها ما يذوق أحرار الرجال .

ونحن بهذه الاحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه ، وإنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرَها العلم ، ولم يشهد مثيلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت في الحياة اصدق كفاح ، وناضلت في سبيل المجد أشرف نضال .

لقد كان الناس في عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا ، اما هو فكان يتفقه ليسود .

كان الشعراء في عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظَوْا باعطيات الخلفاء ، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسي من عروش الخلفاء .

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعبين ، أما الشريف فكان له في كل أرض صبابة ، وكان له في كل بقعة غرام ماحق مُبيد .

وكان ذلك مزاجاً بين طغيان العقل وعدوان القلب ، كان مزاجاً بين العقل المثقف والقلب الحساس .

وجملة القول ان الرضي لم يكن من طراز شعراء الجاهلية ، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء ، ولم يكن من طراز شعراء العصر الاموي الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية ، ولم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسي ، اولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكؤوس الكؤوس ، ولم يعرفوا الخلفاء إلا في طلب الرزق الحرام او الحلال ، وإنما كان شاعراً مثقفاً يدرك تمام الادراك كيف تصطرع العقول والمذاهب والاهواء ، ويفهم ان الدنيا في عصره نهب مقسّم بين الديلم وأحفاد بني العباس ، ويتمنى لو أقام على شواطىء دجلة حاضرة تساوي الحاضرة التي اقامها الفاطميون على شواطىء النيل .

فالشريف الرضي كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف، المثقف الشريف لا المثقف الصُّعلوك ، وكانت أحاسيسه في دنياه لا تُقدَّر بالاوهام ، وإنما كان ينصِب لها دقيقَ الموازين ، ويسعى في تحقيقها سعْيَ الفحول .

كان الشريف في حرب شعواء بين القلب والعقل ، وكان يطمح في أن يجمع لنفسه جميع أقطار المجد ، فيكون من أئمة الفقهاء ، وأقطاب الشعراء ، وأعيان الخلفاء .

وقد ضاعت أمانيه ضياع الزهر في الوادي الجديب ، ولم يبق منها الإمامة في الشعر والبيان .

...

أيها السادة :

قد تقولون : وأين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية والادبية ؟

إن قلتم ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ ، وحجتنا في ذلك ما وصف به شعره وما تحدث به عن البلاغة وهو يتحدث عن اللغويين والشعراء .

وأول ما ننص عليه : إحساس الشريف بالصلة بين المعاني وبين الأوزان ، يدل على ذلك ما جاء في ص ٩٤٥ من الديوان ، فقد أرسل اليه أبو إسحاق الصابي قصيدة مدح نثبت منها هذا المطلع :

أبا كلِّ شيء قيل في وصفه حَسَنْ   إلى ذاك ينحو من كَنَاك أبا الحسَن

قال جامع الديوان : « فاجابه عن هذه القصيدة وجعل الجواب على رويِّها دون وزنها ، لأن ذلك الوزن المقيد لا يجيء في الكلام إلا مقلقَلاً ولا النظم إلا مختلاًّ » .

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن وبين المعنى ، وهذا الاتجاه كان

معروفاً عند أدباء القرن الرابع ، فقد حدثنا الصاحب بن عباد انه لم يجد فيمن صحبهم من الادباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد « فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن والقافية » وحدثنا ان ابن العميد كان يقول « إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب ان يوضع الشعر ويبتدأ النسج لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أي الاوزان يكون أحسن استمراراً ومع أي القوافي يحصل أجمل إطراد »[1]

فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية ، وما كان الشريف شاعراً فحسبُ ، وإنما كان كذلك من أقطاب الناقدين .

ويتصل بهذا حرصه على تحبير القصائد ، وقد كان ذلك الحرص يوقعه أحياناً في المضحكات ، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنىء بها أخاه المرتضى بمولود ، ولكن شاء الحظ أن تلد امرأة أخيه بنتاً ، فصرف القصيدة إلى غيره من الاصدقاء . وقد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين[2] .

وقيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفـــال الشريف بقرض القصائد ، فقد كان يتخير المناسبات ويستعد لها أتم استعداد .

وهناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الادبي ، فقد تفرد بميزة لم نجدها إلا قليلا عند غيره من الشعراء ، وتلك عنايته بتاريخ قصائده ، فهو الشاعر الوحيد الذي نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء ، ولهذا التاريخ نفع من وجهتين : فهو أولا شاهد على شعور الشريف بأن

---

(١) انظر تحقيق هذه القضية في كتاب النثر الفني ج ٢ ص ٥٢ و ٥٦

(٢) انظر الديوان ص ٢٠١ و ٤٦٢

البلاغة من المواد الوصفية في حياة المجتمع ، وانها لذلك خليقة بالتاريخ وهو ثانياً يسعف من يهمهم ان يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال .

ولقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان ، ولم يقم به الشريف ونجيب بأن ديوان الشريف رُتِّب بعنايته وهو حيٌّ ، وقد طلبت منه « تقية » بنت سيف الدولة نسخة وهي بمصر ، وطلبه كذلك الصاحب بن عبـــاد ، ولا يُطلب الديوان إلا وهو عنـــد صاحـــبه حاضرٌ عتيد .

وقد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنّـــان ، فنراه يقول في وصف قصائده الجياد :

منتصِباتٌ كالقنا لا تَرَى عيّاً من القول ولا أفنا
لا يفضُلُ المعنى على لفظهِ شيئاً ولا اللفظ على المعنى

فمَثَلُ الشريف في نظم شعره مَثَل الصيدلي البارع الذي يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركّب الدواء بمقـــادير معينة محددة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان ، وهو يعلم ان الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضاراً أو غير مفيد [(1)]

وكان يشعر بأن اهم عناصر البلاغة قوة الذاتية ، نعرف ذلك من كلامه في تجريح من يسرقون شعره وينتحلونه في بعض البلاد ، فقد هـــددهم بالفضيحة وأعلنهم ان شعره سينمُّ عليه وسيبوؤن بالخيبة والاخفاق ، وذلك إذ يقول :

ألا من عَذيري من رجال تواعدوا لحربيَ من رامى عقوق ورامحِ

(١) النثر الفني ج١ ص ٢٩٦

وغرهمُ مني اصطبار على الأذى | وقد يكظم المرء الأذى غير صافح
فما الجارمُ الجـــاني عقوق بسالم | ولا الماطلُ اللأوي د يوني برابح
أغارُ على ذَوْدٍ من الشعر آمنٍ | تقادم عندي من نتاج القرائح [1]
فياليتهم أدّوهُ في الحيّ خـــالصاً | ولم يخلطوه بالرذايا الطلائح [2]
وإنـــك لو موّهتَ كل هجينةٍ [3] | على ناظر ما عُددّتْ في الصرائح
أرى كل يوم والعجائبُ جمةٌ | على وبر الجربَى وُسُوم الصحائح [4]
إذا طاردوها خالفت برقابهـــا | رجوعاً إلى أوطانها والمسارح
وإن أوردوها غير مائيَ حايدت | حِياد عيوفٍ ينكر الماء قامح [5]
إذا انجفلت [6] في غارة بتُّ ناظراً | أراقب منها رَوحةً في الروائح
كأن بني غبراء اذ ينهبونها | أحالوا على مالٍ بذي الدوح سارح
يرجّون منها والأمـــانيُّ ضلةٌ | رجاء نتاج الحمل من غير لاقح [7]
أباغث أضرّتها السفاهةُ فاغتدت | تخطّفُ هذا القولَ خطفَ الجوارح [8]

---

(١) الذود من الثلاثة الى العشرة في الابل والخيل . وهو هنا مجاز عن القصائد

(٢) الرذايا : جمع رذى وهو الذي أثقله المرض ، والانثى رذية ، وأرذى صارت إبله وخيله رذايا . والطلائح جمع طليح وهو المهزول .

(٣) الهجينة : غير الكريمة ، والهجين من ابوه خير من امه ، والصرائح جمع صريح وهو ضد الهجين (٤) الوبر : صوف الابل والارانب ونحوها . والجربى : جمع جربان والوسوم : جمع وسم وهو العلامة التي يميز بها الحيوان من ضروب الصور

(٥) الحايدة : المجانبة . والقامح : الذي يرفع رأسه عند الخوف ويمتنع من الشرب .

(٦) انجفلت : نفرت

(٧) اللاقح: الناقة قبلت اللقاح

(٨) الأباغث والبغاث : لئام الطير ، وتطلق مجازاً على اخلاط الناس . والجوارح ذوات الصيد من السباع والطير .

هَبوها اليكم مــــن يديَّ مَنيحةً ... لقد آن يا للقوم رَدُّ المنـــائح[1]

دعوا وِرْدَ ماءٍ لستمُ من حلاله[2] ... وحلوا الروابي قبْلَ سيل الاباطح[3]

ولا تستهبُّوا العاصفات وأصلُكم ... نجيلٌ رمتْ فيه الليالي بقادح[4]

فما أنتمُ من مالىء ذلك الحِبـــا ... ولا فيكمُ أكفاء تلك المنـــاكح

ولم تحسنوا رَعيَ السوامخ قبلها ... فكيف تعاطيتم ركوب الجوامح[5]

ولا تطلبوها سُمعةً في معرَّةٍ ... تحدَّث عنكم كل غادٍ ورائح

خُمول الفتى خيرٌ من الذكر بالخنا ... وجر ذيول المُنديات الفواضح[6]

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف الى قصائد غيره بصور الصحاح من الابل والخـــيل حين تضاف الى المِراض ، ويتمثلها تلوى رقابها نزاعاً الى وطنها الاصيل ، وتأبى ورود الماء الغريب ثم يرمي سارقي شعره بأنهم ليسوا أكفاء للزواج من تلك القصائد ، وانهم لم يحسنوا رَعيَ البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامح ؟

ووصف قصائده المسروقة في مكان آخر فقال :

تصغي لها الأسماع والقلوبُ ... مثل السهام كلها مصيبُ

لطيمةٌ نمَّ عليها الطيِّب[7] ... تودَعُها الأردان والجيوب[8]

يتعبُ ذو البراعة الاديبُ ... ويغنم الهلباجةُ المَعيب[9]

---

(١) المنيحة من قولهم منحة الناقة إذا جعل له وبرها ولبنها وولدها

(٢) اي لستم اهلا للحلول به

(٣) الروابي : جمع رابية وهي ما ارتفع من الارض . والاباطح جمع ابطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى . وهو ينهاهم عن التعرض للخطر بانتحال اشعاره .

(٤) النجيل ضرب من الحمض وهو معروف في مصر وتصلح به ارض الملاعب . والقادح : كال يقع في النبت والشجر والأسنان

(٥) السوامخ : البقول ، والجوامح جمع جامح وهو الفرس الذي يركب رأسه فلا يراض .

(٦) المنديات جمع مندية وهي الفعلة يندى لها الجبين

(٧) اللطيمة ، المسك وكل طيب يحمل على الصدغ

(٨) الاردان جمع ردن بالضم وهو اصل الكم

(٩) الهلباجة : الاحمق الجامع لكل عيب

في كل هجمة تلوبُ[1] هاج عليها الكلأُ الرطيبُ[2]
يطلبن أرضي والهوى طلوبُ لا أَمَمٌ مني ولا قريبُ
عند الأعادي وَسْمُها غريبُ يرصدهن الحارب المريبُ[3]

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء في عناء وهي نظرة لا تقع إلا من رجل مثقف العقل، وهي دليل على قوة الذاتية التي تُعدُّ من أهم العناصر في مقومات الآداب والفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نُقلتْ من أرض إلى أرض. ومن الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التي يتميز بها جيل عن جيل، ولا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف، وأنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم، فشوقي ينمُّ شعره عليه، والبارودي ينمُّ شعره عليه، وكذلك ينمُّ الأسلوب عن أمثال إبراهيم المازني وطه حسين، ولو نشروا رسائلهم بدون إمضاء.

والشريف الرضي كان أعجوبة الأعاجيب في هذا الباب، فلا هو من من طراز أبي نواس ولا مسلم بن الوليد ولا أبي تمام ولا البحتري ولا المتنبي وإنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

...

وإحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الاشادة بقوة القلم وما له من السيطرة على الوجود. والحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم الله به في كتابه الكريم، واهتم بوصفه كثير من الشعراء والكتاب، كما ترون في الفقرات التي أثبتها الثعالبي في سحر البلاغة ونقلها الحصري في زهر

---

(١) الهجمة من الابل اولها أربعون. أو هي ما بين السبعين الى المائة. وتلوب: تعطش. وابل لوب ولوائب: عطاش (٢) هاج الكلأ: يبس (٣) الحارب: الناهب.

الآداب ، ولكن حديث الشريف عن القلم له دلالة على اتجاهاته الذوقية والنفسية ، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق ، ويكاد يتغزل فيه وهو يجول فوق القراطيس . وأي سحرٍ فات الشريف وهو يصف قلم الصاحب بن عباد :

لك القلم الماضي الذي قرنته … يجري العوالي كان أجرى وأجودا[1]
إذا انسلّ من عقد البنان حسبتَهُ … يحوك على القرطاس بُرداً معمّدا[2]
يغازل منه الخط عيناً كحيلةً … إذا عاد يوماً ناظرُ الرمح أرمدا
وإن مجّ نصلُ من دم الصّرب أحمرا[3] … أراق دماً من مَقْتَلِ الخطب أسودا
إذا استرعفتْهُ همةٌ منك غادرت[4] … قوادمه تجري وعيداً وموعدا

أو حين يقول :

لك القلمُ الجوّالُ إذ لا مثقّفٌ … يجول ولا عَضْبٌ تُهابُ مواقعه[5]
سواءٌ عشيّته النّقس رهبةً … وذو لهذمٍ غُشّي من الدم رادعه[6]
يلجلج من فوق الطروس لسانهُ … وليس يؤدي ما تقول مسامعه
وينطق بالأسرار حتى تظنّهُ … حواها وصِفرٌ من ضمير أضالعه[7]
إذا اسودّ خطبٌ دونه وهو أبيض … يسوّد وابيضت عليه مطالعه

أو حين يقول :

له قلمٌ إن جرى غَرْبُهُ … أمِنّا القنا وخشينا اليراعا[8]

---

(١) العوالي رؤوس الرماح ، مفردها عالية (٢) المعمد : الموشى
(٣) الصرب بالكسر هو الصبغ الاحمر
(٤) استرعفته : اخرجت منه الرعاف وهو الدم . والعبارة مجازية
(٥) المثقف : الرمح . والعضب : السيف
(٦) النقس : المداد . واللهذم : السنان القاطع . والرادع : الملطخ بالدم
(٧) صفر : خال (٨) الغرب : الحد . والقنا : الرمح . واليراع : القصب

والشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك وهو يتمثل ما صنعت الأقلام في بناء الممالك والشعوب، ويتصور جناياتها على التيجان والعروش .

وهو أيضاً يشعر بمعنى الوصف ومعنى البيان ، فليست الأوصاف عنده تهاويل وتزاويق ، وإنما هي استقراء واستقصاء ، وليس البيان في فهمه ضرباً من الحاجاة أو التنميق ، وإنما هو كشفٌ وجلاء ، نعرف هذا من قوله في خطابه خاله أبي الحسين :

يشيّعني بوصفك كل نطقٍ ويعرفني بمدحك من رآني

وليس الوصف إلا بالتناهي وليس القول إلا بالبيان

وهو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التى شاعت في القرن الرابع ، وكانت تعتمد على البَهرج والبريق .

وكان مع فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكدّ خاطره في تصيُّد كرائم المعاني وتخيُّر الألفاظ الصِّحاح التي لا يصلح بغيرها أداء ، نفهم ذلك من قوله عتاب الخليفة الطائع لله :

فالآن منك اليأس ينقع غلّتي[1] واليأس يقطع غُلّة الظمآنِ

فاذهب كما ذهب الغمام رجوته فطوى البروق وضنّ بالتّهتان

أوَبعد أن أدمى مديحُك خاطري بصقال لفظٍ أو طِلاب معاني

وفي هذا المعنى نفسه يقول في مدح أبيه :

قُدْها فغُرّتهـــا من الكلم الجَنى وحُجُولها من صَنعة ومعاني[2]

---

(١) الغلة بالضم: الظمأ الشديد

(٢) الغرة : البياض في جبين الفرس . والحجول جمع حجل بالكسر وهو البياض في قوائم الفرس .

هي نطفةٌ رقرقتها من خاطري بيضاءُ تَنقَعُ غُـلّةَ الظمآن

وكذلك يقول في آخر موطن :

ومَحُوكةٍ كالدرع أحكم سردَها صَنَعٌ فأفصح في الزمان الأعجم[1]

وفي هذا المعنى يقول في العتاب :

جاءتكمُ أَسَلاً مشرّعةً متوقعاً فيكم تقصُّفُها[2]

قدبات فيها قائل صَنَعٌ يحمي لها ذمها ويُرهفها

أعززْ عليَّ بان يكون لكم بالأمس ثقّفها مثقفها

ويقول في وصف نظام قصائده وهو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة :

وعندي لك الغُرُّ التي لا نظامها يهي أبداً ولا يبوخ شهابها[3]

وعنديَ للأعداء فيك أوابدٌ[4] لُعاب الأفاعي القاتلات لُعابها

وفي قوة نظام القصائد يقول أيضاً وهو يمدح أباه :

تصون منـــاقبك الشاردا ت أن تتخطى إليها العيوب

إذا نثرتها شِفاه الروا ةِ راقك منها النظام العجيبُ

وفي سلاسة النظام يقول :

براني الدهر سهمـــاً ثم ولّى فجردني من الريش اللؤامِ

وها أنـــذا أبثّك كل بيتٍ رقيقِ النسج رقراقِ النظام

وفي رنين شعره يقول :

منحتك من منطقي تُحفةً رأيتُ بها فرصةً تُستَلَبْ

تصفقها بالنشيد الرواةُ كما صفّق الماءُ بنت العنب

---

(١) محوكة : صفة من الحوك وهو النسج . والسرد : نسج الدرع . والصنع بالتحريك : الماهر في الصناعة . والمؤنث صناع

(٢) الاسل بالتحريك : الرماح . والمشرعة : المسددة . والتقصف : التكسر

(٣) يبوخ : يبرد (٤) الاوابد : القوافي الشوارد

ويصفُ جلجلة شعره فيقول :

أنا القائل المرموق من كل ناظرٍ   إذا صلصلتْ للسامعين غرائبي

ويصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:

فلا تُرهبوني بالرماح سفاهةً   فعيدان أوطاني قنا وصِعاد[1]

ولا توعدوني بالصوارم ضلّةً   فبيني وبين المشرفيّ وِلاد[2]

سأمضغ بالأقوال أعراض قومكم   وللقول أنيابٌ لديّ حِداد[3]

تُرى للقوافي والسماء جليةٌ   عليكم بروقٌ جَمّةٌ ورَعاد

ويصف نفسه بالسيطرة على الالفاظ فيقول :

ألا من كنت شاعرَهُ   فإن المجدَ شاعرُهُ

وإن اللفظ مطروحٌ   على فكري جواهرُهُ

فما رأيكم فيما سمعتم ، يا أدباء بغداد ؟

أترون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ وطلاب المعاني ، وكيف يصف نفسه مرات بأنه صَنَع ، ويصف قصائده بأنها كُشرعات الأَسل ومحكمات الدروع ؟

أرأيتم كيف يبدىء ويعيد في وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام ، وكيف تجلجل جلجلة الرعود والبروق ؟

إن هذا الشاعر يقفنا أمام حقيقتين : الاولى ان البلاغة بريئة من البهرج والتكلف ، والثانية ان البلاغة لا تكون دائماً من عفو الطبع ، وإنما يصل إليها الرجال بالجهاد والجلاد في تخير الألفاظ وتصيُّد المعاني ، وهذا

---

(١) القنا : جمع قناة وهي الرمح . والصعاد : جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستوية فلا تحتاج إلى مثقف

(٢) المشرفي : السيف . نسبة إلى مشارف الشام

(٣) حداد : جمع حديد . من الحدة وهي القوة

ولا ريب مطمح الشاعر المثقف الذي يعرف أنه مهدد بالشهرة التي غنمها المتنبي والشهرة التي سيغنمها أبو العلاء .

وعقل القرن الرابع هو الذي أورد شاعرنا هذه الموارد ، فقد كان يرى العلم والفلسفة يحيطان به من كل جانب ، وكان يرى الناس لا يقنعون بالمواهب الفطرية التي كانت تُغنى في عصر امرىء القيس أو عمر ابن أبي ربيعة أومسلم ابن الوليد ، وكان يرى الادباء يتغنّون بفنون أبي تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان يتطلع إلى أن تكون له منزلة في صدور الادباء المتفلسفين أمثال التوحيدي والصاحب بن عباد .

وسترون في المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضي لم يكن يعيش وحده ، وإنما كان يعيش في زمن أكثرُ علمائه شعراء ، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف ، ويلقاهم بعزائم الفحول .

* * *

ننتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل والبيان .

كتب إليه الصابي يشكو زِمْنةً عرضتْ له ، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل :

لئن نال قبضاً من بنانك حادثٌ ... لقد عاضنا منك انبساط جَنان [1]

وإن بُزَّ من ذاك الجناح مطارهُ ... فربَّ مقالٍ منك ذي طيران [2]

وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سرى موقَراً من مجدك الملوان [3]

---

(١) الجنان بالفتح : القلب (٢) بز : سلب

(٣) موقر : مثقل . من قولهم نخلة موقرة إذا كانت كثيرة الثمار . والملوان الليل والنهار . ولا مفرد له . ومن اجل ذلك جازعود الضمير عليه بالتذكير

وإن هدمت منك الخطوب برّها فثمّ لسانٌ للمناقب بـاني [1]
مآثر تبقى ما رأى الشمسَ ناظرٌ وما سمعتْ من سامع أذنان
وموسوعةٌ مقطوعة العقل لم تزل شوارد قد بالغنَ في الجوَلان [2]
وما زلّ منك الرأي والعزم والحجا فنامى إذا ما زلّت القدمان [3]

وهو في هذه الأبيات يرى ان مرض الصابي غير ضائر ما دام له قلب ولسان . ونصّه على بلاغة الصابي وهو يعزيه في علته يشرح لكم كيف كان يقدر نعمة الكلام البليغ .

ولما مات الصابي رثاه الشريف أكثر من مرة ، وكان كلما رثاه نص على قلمه وبلاغته ، كان يقول :

ثكلتْك أرضٌ لم تلد لك ثانياً أنّى ومثلُك مُعوِزُ الميلاد [4]
من للبلاغة والفصاحة إن همى ذاك الغمام وعبّ ذاك الوادي [5]
من للملوك يحزّ في أعدائها بظبا من القول البليغ حِداد [6]
من للممالك لا يزال يلمّها بسِداد أمر ضائع وسَداد [7]
من للجحافل يستزلّ رماحها ويردّ رَعلتها بغير جلاد [8]

---

(١) المناقب : المحامد . والمفرد منقبة

(٢) العقل : جمع عقال

(٣) نأسي من الاسى وهو الحزن

(٤) معوز الميلاد : قليل الامثال

(٥) همى الغمام : انهمر . وعب الوادي :سال

(٦) الظبا جمع ظبة بالضم هي حد السيف او السنان

(٧) السداد بالكسر : صحة التدبير . وبالفتح صواب

(٨) الجحافل جمع جحفل وهو الجيش الكثير ، والرعلة . القطعة من الخيل . والجلاد : القتال .

من للموارق يستردُّ قلوبها — بزلازلِ الإبراقِ والإرعاد
وصحائف فيها الأراقمُ كُمَّنٌ — مرهوبة الاصدار والايراد[1]
تدمَى طوائعها إذا استعرضتها — من شدة التحذيرِ والإبعاد[2]
حُمر على نظر العدوّ كأنما — بدم يخطُّ بهن لا بمداد
يُقدِمنَ إقدام الجيوش وباطلٌ — أن ينهزمن هزائم الأجداد
فِقَر بها تمسي الملوك فقيرةً — أبداً إلى مَبدًى لها ومَعاد
وتكون سوط للحَرون إذا ونَى — وعنانُ عنقِ الجامحِ المتمادي[3]
ترقي وتلدغ في القلوب وإن يشأ — حطَّ النجوم بها من الأبعاد[4]

فماذا ترون في هذه الصورة الشعرية ، صورة القلم البليغ الذي يحز في قلوب الأعداء وكأنه السيف المسلول ، القلم البليغ الذي يستزل الرماح ويرُدُّ الجنود ، ويسترد موارق القلوب بالترهيب والتخويف ، القلم الذي يصيّر الصحائف وكأنها مملوءة بكوامن الأراقم والصلال ، القلم الذي يخيّل الصحائف للعدو وهي حُمرٌ قانية كتِبت بالدم لا بالمداد ، القلم الذي يسدُّ مسدَّ السوط في رياضة الحَرون ، ومسدّ العِنان في عنق الجواد الجموح ، القلم الذي يلدغ القلوب إن شاء ، ويرقيها إن شاء ، ويحطّ النجوم من الابعاد حين يريد .

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ ، وهو ليس كالوصف الذي رأيناه منذ لحظات ، وإنما هو وصف حي يأخذ ملامحه من قوة الاحساس ويقظة الجنان .

---

(١) الاراقم جمع ارقم وهو اخبث الحيات . والكمن جمع كامن وهو المستتر . والمرهوبة : المخوفة (٢) تدمي : يسيل منها الدم . والايعاد : الانذار
(٣) الحرون : الذي يقف بعد ان يستدر الجري . والجامح : الذي يخرج على طاعة الفرس
(٤) ترقي : من الرقية بالضم وهي علاج المريض بالتماريذ.

وقد وصف البلاغة مرة ثانية وهو يرثي الصابي فقال :

إن تمضِ فالمجدُ المرجّبُ خالدٌ … أو تفنَ فالكلم العظام بواقي[1]

مشحوذة تدمَى بغير مضاربٍ … كالسيف أطلق في طُلى الاعناق[2]

يُقبلْنَ كالجيش المُغير يؤمّه … كشِ الازار مشمّر عن ساق[3]

قِرَطات آذان الملوك خليقة … بمواضع التيجان والأطواق[4]

عقدُوا بها المجد الشرود وأثّلوا … درجاً إلى شرَف العُلا ومراقي

أوترتها أيامَ باعُـــكَ صُلّبُ … وكددتها بالنزع والاغراق[5]

حتى إذا مرحتْ قواك شددتها … باسمٍ على عَقِب الليالي باقي[6]

كنجائب قعدت بها أرماقهـــا … محسورةً فمشين بالأعراق[7]

وهو في هذه الابيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الاولى بعض المغايرة وتماثلها في المدلول ، ولكنه يأتي بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم في الحالين : حال الشباب وحال المشيب ، فهو في الحال الاول يشدُّ كلامه بوثاق القوة ، وهو في الحال الثاني يُسنِد كلامه بقوة الروح .

وقد وصف بلاغة الصابي وهو يرثيه مرةَ ثالثة فقال :

---

(١) المرجب : المصون . على التشبيه بالنخلة المرجبة وهي التي يوضع حولهـــا الشوك لئلا يصل اليها آكل

(٢) الطلى : اصول الاعناق . والمفرد طلية بضم فسكون أو طلاة

(٣) يؤمه : يقوده . وكمش وكميش : مشمر

(٤) القرطات : جمع تصحيح القرطة بكسر ففتح والقرطة جمع تكسير القرط وهو الحلية تعلق في شحمة الاذن

(٥) أوترها جعل لها وتراً وهو شرعة القوس . والصلب : الشديد . والكد النزع بشدة ، والاغراق من قولهم إغراق النازع في القوس اذا استوفى مدها

(٦) مرحت قواه : ضعفت

(٧) الارماق جمع رمق وهو بقية الحياة . والمحسورة التي نال منها الاعيان

هو الحاصبُ الأقلام نال بها عُلًا ... تقاصرُ عنها الخاضبون العواليا
مفيد ضراب باللسان لو انــــه ... بيوم وغى فلّ الجرازُ اليمانيا (١)

وهذا يدلكم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكي به الرجال .

...

ومدح الشريفُ ابن جني ورثاه ، وقد رأيناه في الحالين ينص على بلاغته ، فيقول في المدح :

فدًى لأبي الفتح الافاضلُ إنه ... يبرُّ عليهم إن أرمَّ وقالا (٢)
إذا جرت الآدابُ جاء إمامها ... قريعاً وجاء الطالبون إفالا (٣)
فتًى مستعاد القول حسناً ولم يكن ... يقول محالاً أو يحيل مقالا (٤)
ليقريَ أسماع الرجال فصاحةً ... ويُوردَ أفهام العقول زُلالا (٥)
ويُجري لنا عذباً نميراً وبعضُهم ... إذا قال أجرى للمسامع آلا (٦)

ويقول في الرثاء :

فمن لأوابي القول يبلو عِراكها ... ويحذفها حذف النبال الموارق (٧)
إذا صاح في أعقابها أطردتْ لهُ ... ثوانيَ بالاعناق طَرْدَ الوَسائق (٨)

---

(١) الوغى : الجلبة في الحرب ، وفل : كسر . والجراز . السيف القاطع
(٢) يبر عليهم : يغلبهم . ارم : سكت
(٣) القريع : الفحل . والافال جمع افيل . على وزن امير . وهو الفصيل
(٤) المحال من الكلام ما عدل به عن وجهه . واحال المقال اتى به كذلك
(٥) يقرى من القرى بكسر القاف وهو إكرام الضيف
(٦) النمير : الصافي . والآل : السراب
(٧) الاوابي : الممتنعات . والمفرد آبية وهي في الاصل الناقة تعاف الماء . والعراك هـنا ازدحام الابل في الورد . والحذف: الرمي
(٨) الوسائق جمع وسيقة وهي من الابل كالرفقة من الناس . فاذا سوقت طردت معاً

وسوّمها مُلسَ المتون كأنهـــا ... نزائع من آل الوجيه ولاحق[1]
تغَلْغَلُ في أعقابهن وُسومُهُ ... بأبقى بقاءً من وُسوم الأيانق[2]
ففي الناس منها ذائقٌ غيرُ آكل ... وقد كان منها آكلاً غير ذائق
ومن للمعاني في الأكِمّةِ ألقيتْ ... إلى باقرٍ غيبَ المعاني وفاتق[3]
يطوّح في أثنائها بضميرهِ ... مَرير القوى ولاّج تلك المضايق[4]
تسنّم أعلا طودهـــا غير عاثرٍ ... وجاوز أقصى دحضها غير زالق[5]

فهو في الابيات الاولى يصفه بحلاوة القول ، وهو في الابيات الاخيرة يصفه بسياسة القول . ولا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الايام على وزن مقامات البيان .

ولا باس من أن نستطرد قليلاً فنقول : إن اهتمام الشريف بمدح ابن جِنّي ورثائه موصول الاواصر بحياته الادبية ، فقد كان ابن جنى شرح قصيدته الرائعة في رثاء ابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني ، وهي التي يقول في مطلعها :

---

(١) سومها : أرسلها . والملس جمع أملس وهو الصحيح المتن أي الظهر . وفي المثـــل . « هان على الأملس مالاق الدبر » يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه . والنزائع جمع نزيع وهو الغريب . والوجيه ولاحق فرسان تنسب اليهما الخيل العتاق

(٢) الوسوم : العلامات . وهي ما يوسم به الحيوان من ضروب الصور . والايانق جمع الجمع للناقة التي تجمع على أينق ونياق وانواق

(٣) الاكمة جمع كمامة بالكسر وهي وعاء الطلع وغطاء النور . والباقر هو الذي يكشف مكنونات المعاني ، وبه سمي الباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العـــلم . والفاتق كذلك

(٤) القوى جمع قوة وهي طاقة الحبل . والمرير المحكم الفتل . والعبارة مجازية

(٥) تسنم الطود : علاه . والطود : الجبل . والدحض : المكان الزلق وجمعه دحـــاض ومنه المدحضة وهي المزلة

ألقى السلاحَ ربيـــعةَ بنَ نزارِ أودى الردى بقَريعك المغوارِ [1]
وتجردي عن كل أجردَ سابحٍ مِيلَ الرقاب نواكسَ الابصارِ [2]

وسنعود إلى هذه القصيدة بعد حين ، ولكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادي ويصادق في سبيل حياته الشعرية ، فهو قد مدح ابن جنى ورثاه لأنه شرح إحدى قصائده في الرثاء ، وكذلك فعل مع الصاحب بن عباد ، فقد بلغه أن شيئاً من شعره وقع إليه فاعجب به وأنفــذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره ، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ ، ومدح الصاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التي سلفت في وصف القلم ، ولكنه أخفاها عنه ولم يرسلها إليه خوفاً من أن يُتَّهم بالسعي في طلب المال ، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعنينا منها في هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة الصاحب إذ يقول :

كم حجة لك في النوافل نوَّهتْ بدُعاء دين العدل والتوحيد [3]
ومجادلٍ أدمى جـــداً لك قلبَهُ وأعضَّه بجوانب الصَّيخود [4]
وشفيت ممترض الهوى من معشرٍ سدُّوا من الآراء غـــير سديد
قارعتهم بالقول حتى أذعنوا وأطلت نوم الصارم المغمود
جمرٌ بمسهكة الرياح نسفـــتهُ كان الضلال يُمِــدُّه بوَقود [5]

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل والقلم أصدق تمثيل ، وترينا

---

(١) القريع : الفحل
(٣) الاجرد : الحصان القصير الشعر . والميل جمع اميل . وهو من يميل على السرج . وهو هنا المنكسر الذي يميل عنقه من الضعف
(٣) النوافل هنا معناها الشدائد . ومفردها نوفل . والعـــدل هو مذهب الاعتزال . وفي اخبار الصاحب بن عباد انه كان يذهب مذهب العدل
(٤) الصيخود : الصخرة الشديدة
(٥) المسهكة : ممر الرياح

كيف كان يدرك أن القلم واللسان يغنيان أحياناً عن سل السيوف في كبح الخصوم وتأييد الآراء .

ولما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيها قوله في وصف ما تصنعه الأقلام :

واهاً على الأقلام بعدك إنهـــا لم ترض غير بنان كفك آلا [1]
أفقدن منك شجاع كل بلاغـــة إن قال جلّى في المقال وجـــالا
من لو يشا طعن العدا بروؤسها وأثار من جريالها قَسطالا [2]
وإذا تجايشت الصدورُ بموقفٍ حبس الكلام وقيد الاقوالا [3]
بصوائبٍ كالشُّهب تتبع مثلهـــا ورِعال خيل يتّبعن رِعالا [4]

فهو يجعل الحجج الصوائب في قوة الخيل المغيرات ، وهي أخيلة بدوية كان يحسُّ صورها كل الإحساس

ooo

وفي الشواهد التي سلفت مـــا يريكم كيف كان الشريف يهتم بوَصف اللَّسَن ، وكيف كانت تروعه قوة الجدل ، وقد وصل في ذلك إلى أبعد الغايات وهو يقول في رثاء عبد العزيز بن يوسف :

أبكيك يا عبد العزيز لخطة تعمَى مطالعها وخطب مُضْلِع [5]

---

(١) الال : اصله اهل أبدلت الهاء همزة فصارت أأل بفتح فسكون ثم إبدلت الهمزة الثانية ألفاً . ويقال في تصغيره أويل وأهيل

(٢) الجريال : ما خلص من لون احمر أو غيره . والقسطال والقسطل: الغبار.

(٣) تجايشت الصدور : غلت وهاجت

(٤) الرعال جمع رعلة بالفتح وهي القطعة من الخيل

(٥) خطب مضلع: مهلك

وَمقاومٍ ما زلت تُعجز ليلها بلسان قوّال وقلب سَمَيذَع [١]

إني أرى في المجد بعدك ثَلمةً تبقى وخَرقاً ماله من مرقع [٢]

من يُشرق الخصم الألدّ بريقهِ عِيًّا ويقدع منه ما لم يُقدَع [٣]

أم من يبلّغ بالبلاغة غايةً تُلوى بحسرَى طالبين وظُلع [٤]

أم من يردّ من المغيرة غَربها والخيل تنهض كالقطا بالدُّرَّع [٥]

بنوافذٍ للقول يبلغ وَقْعها ما ليس يُبلَغ بالرماح الشُّرَّع [٦]

شهب تشعشع في النوائب ضوءها كالشمس تُنْغِضُ رأسها للمطلَع [٧]

حتى يقول الغابطون وقد رأوا فعلاتهِ : زاحمْ بجيـدٍ أو دع

ويودُّ من حمل الثنا لو أصبحتْ تلك الأداة على الكميّ الأروع [٨]

إن لا تكن في الجمع أمضى طعنةً فلأنت أمضى خطبةً في المجمع [٩]

إن الفصاحة ذللت لك عنقهـا فأخذت منها بالعِنان الاطوع

أمست ظهور المجد عندك ترتقي منها إلى قَمَع السَّنام الامنع [١٠]

---

(١) المقاوم : جمع مقام وهو المجلس . والسميدع : السيد الكريم والشجاع

(٢) الثلمة: فرجة المكسور والمهدوم

(٣) القدع :الكبح

(٤) الحسرى : جمع حسير وهو الذي نال منه الاعياء . والظلع جمع ظالع وهو الذي يغمز في مشيه من الضعف

(٥) الغرب : الحدة . والدرع جمع دراع وهو لابس الدرع

(٦) الشرع : المرسلة

(٧) نغض : تحرك واضطرب . وأنغض . أمال وحرك

(٨) الكمي : الشجاع او لابس السلاح . والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته . ومثله الرائع

(٩) الجمع في ميدان القتال . والمجمع في حومة الجدال

(١٠) القمع جمع قمعة بالتحريك وهي رأس السنام . والامنع الذي لا ينال

كيدٌ كارقــة النصال ودونهُ   بِشْرٌ كبارقة النصول اللمّع [1]
نَهّاز أذنــبة الكلام إذا هفا   قلب الجريء وعَيٌّ قول المِصقع [2]
قد قلت للمتعرضين لسَطوهِ   خلّوا وِجار الارقم المتطلّع [3]

وهذا فنٌّ جديد عند الشريف ، فاكثر مَن وصفهم بالبلاغة كانوا من رجال السيف ، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتال غير القلم واللسان ، وقد وصف كلماته بانها تفعل ما لا تفعل مُشرَعات الرماح ، وانها تردُّ الخيل المغيرة وعليها أقطاب الدارعين ، وحدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت :

إن لاتكن في الجمع أمضى طعنةً   فلأنت أمضى خطبةً في الجمع

وقد وصفه بالكيد ، وذلك وصف طريف ، لأنه يفصح عن خصلة نادرة لا يجيدها إلا الاقلون ، والكيد سلاح عرفه الساسة من قديم الزمان وأنا لا أعرف من أصوله شيئاً ، ولكني سمعت انــه يبني ويهدم ويبرم وينقض . والشريف يعني ما يقول وهو ينعت مَبكيّه بالكيد في موقف لا تُذكر فيه غير كرائم الخلال .

وقد قلت في كتاب النثر الفني : إن ما بين أيدينا من أخبار عبدالعزيز بن يوسف ورسائله لا يعطينا صورة صحيحة عن نفسه وأخلاقه ، فهل أستطيع اليوم أن أعتمد على حكم الشريف فاقول إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين ؟

---

(١) النصال والنصول جمع نصل وهو حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض .
(٢) الأذنبة جمع ذنوب بفتح فضم ، وهو الدلو . والنهاز الذي يضرب بالدلو في الماء لتمتلىء . والمقصع على وزن منبر البليغ او العالي الصوت او من لا يرتج عليه ولا يتتعتع ، ولعله جاء من الصقعاء وهي الشمس لما يمتاز به من الوضوح والجلاء .
(٣) الوجار بالكسر والفتح الجحر . والارقم : الحية . وهو أخبث الحيات . والمتطلع وصف كاشف للارقم لأنه يتطلع إلى إيذاء الناس ويبدأ بالعدوان .

المهم أن نسجل ان الشريف كان يفهم جيداً خطر القول ، وكان يعرف أنه يُطلب لكثير من الغايات ، ويدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل . ونعوذ بالله من كيد الكائدين، ودسائس الخاتلين .

...

ومع هذا لم يكن الشريف يرى الدنيا في جميع أحوالها حومة قتال ، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تُطلب لإيناس الافئدة والقلوب أليس هو الذي يقول في رثاء أبي منصور الشيرازي :

كم مجلس صبَّحتُه ألسُنُنا تُفَضُّ فيه لطائم الأدبِ [1]
من أثرٍ يونق الفتى حسَنٍ أو خبرٍ يبسط المنى عجب [2]
أو غرضٍ أصبحت خواطرنا تُساقط الدر منه في الكتب
كالبارد العذب روَّقته صبا الفجر أو الظلم زين بالشنَب [3]

وكيف لا يعشق البلاغة ويراها من موارد الانس من يقرنها بجمال العزم والحلم فيقول في مدح أبي سعيد بن خلف :

خطابٌ مثل ماء المزن تَبْرى مواقعه العليلَ من القلوبِ [4]
وعزمٌ إن مضيت به جريّاً هوى مطرُ القنا بدمٍ صبيب [5]
وحلمٌ إن عطفت به معيداً أطار قوادم اليوم العصيب [6]
وألفاظٌ كما لعبت شَمالٌ مَلاعبَها على الروض الخصيب [7]

---

(١) صبحته : سقته الصبوح وهو ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عند السامرين من شراب . واللطائم جمع لطيمة وهي المسك (٢) يونق : يعجب ويطرب

(٣) الظلم بالفتح الثلج وهو هنا ماء الاسنان . وأظلم الثغر تلألأ ، والشنب بالتحريك ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان (٤) تبزى : تشفى. فهي من البرء

(٥) صبيب : متدفق (٦) القوادم هنا جمع قادم وهو الرأس

(٧) الشمال بالفتح ويكسر الريح التي مهبها نين مطلع الشمس . وبنات نعش اسماء كواكب والمعروف ان ريح الشمال ميمونة الهبوب وفيها لطف ورفق.

أيها السادة :

تلكم ثقافة الشريف الرضي ، وذلكم إحساسه بخطر البلاغة وقوة الكلام البليغ .

وإنما أطلنا في سرد الشواهد وضرب الامثال لنريكم أن الشريف لم يكن في حياته الشعرية من اللاهين ، وإنما كان يقتحم البلاغة اقتحـــام الفحول ، ويؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال ، ويرى آثار الاقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح والسيوف .

فان قلتم: وكيف صح للشريف أن يُفتّن بنفسه و بشعره ذلك الفتون ؟

قلنا : إن لذلك موجبات سنعود اليها في المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

مقام الشريف الرضي

بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة :

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضي كما يصورها في قصائده القصار والطوال ، وقد تعقبنا حديثه عن شعره فرأينا زُهي به واختال أكثر من ستين مرة ، فساقنا ذلك إلى البحث عن السر فيما أدّى به الى الاسراف في الزهو والاختيال .

قد تقولون : وهل تفرد الشريف الرضي بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر في ذلك ؟ ألم تُعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي ؟

وأجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف ، ولكنه أفرط وأسرف فلم يكن بدٌّ من الكشف عن سرّ ما وقع فيه من الإفراط والإسراف .

ولكي تعرفوا كيف أفرط وأسرف ، أسوق اليكم شواهد تبين غلبة

الزهو على ذلك الشاعر ، ثم أتبعها بأمثلة من آثار ذلك الاختيال.

ولا أرى موجباً للاشارة الى جميع المواطن التي زُهي فيها بشعره ، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين ، ولكنا أطرفكم ببعض الاشعار التي تكشف عن تلك الخصلة بوضوح وجلاء .

وأول ما أشير اليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره ، وأن نفسه أعلا من أنفس الشعراء وأرفع ، وهو يعتقد أنه يتخذ الشعر وسيلة الى غرضه فيقول :

وماقوليَ الاشعارَ الا ذريعةٌ ... الى أملٍ قد آن قَوْدُ جَنيبهِ[1]
واني اذا ما بلّغ الله غايةً ... ضمنت له هجر القريض وحُوبه[2]

ويرى سيماه غير سيماء الشعراء فيقول :

وما الشعر فخري ولكنهُ ... أطولُ به همةَ الفاخرِ
أنزهه عن لقاء الرجال ... وأجعله تُحفةَ الزائر
فما يتهدّى الـــيه الملو ... كُ الا من المثل السائر
وإني وإن كنت من أهله ... لتُنكرني حرفة الشاعرِ

ويرى القول دون الفعل فيقول :

مالكَ ترضى أن يقال شاعرٌ ... بُعداً لها من عُدَدِ الفضائل[3]
كفاك ما أورق من أغصانهِ ... وطال من أعلامه الأطاول
فكم تكون ناظماً وقائلاً ... وأنت غِبَّ القول غير فاعل[4]

---

(١) الجنيب والمجنوب : الفرس تقوده إلى جنب فرسك في السياق . فاذافتر المركب تحولت الى المجنوب . والذريعة : الوسيلة.

(٢) الحوب بالفتح ويضم : الاثم ، وهو هنا مضموم الحاء . وهو مجرور بالعطف على القريض

(٣) العدد جمع عدة بضم العين وهو ما تتوسل به إلى غرضك

(٤) الغب بالكسر عاقبة الشيء

وهذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره وكيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء .

...

ولكن هل يهرب من شاعريته ؟ انّ هذا محال !

فلم يبق الا أن يرى نفسه أشعر الامم فيقول :

كفاك بأن عرضك من طُروق العار في ذممي
وذلك عصمةٌ مني بحبل غير منجذِمِ [1]
وحسبك أن يفلّ شبا ة هجوك أشعر الامم [2]

أو يرى شعره فوق شعر البحتري ومسلم بن الوليد فيقول :

شعرٌ أثيرُ به العجاجَ بسالة [3] كالطعن يُدمي والقنا تتحطم
وفصاحةٌ لولا الحيــاء لهجّنت أعلام مــا قال الوليد ومسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول :

وقصيدة عذراء مثـ ـل تألقْ الروض النضيرِ [4]
فرحتْ بمالك رِقّهــا فرَحَ الخميلةِ بالغدير [5]
وكأنــه في رصفها [6] جار الفرزدق أو جرير

---

(١) منجذم : منقطع

(٢) الشباة : إبرة العقرب وحد كل شيء . وفل شباة هجوه كسرها

(٣) البسالة : الشجاعة

(٤) التألق : البريق واللمعان

(٥) الخميلة : الموضع يكثر فيه الشجر الملتف . والغدير : الماء يغادره السيل . والجمع غدران

(٦) الرصف في الاصل ضم الحجارة بعضها الى بعض . وهو هنا نظم الكلام

وكأنـــه من حسنها بين الخورنق والسدير [1]

أو يرى قوافيه كقوافي البحتري وأبي نُواس فيقول :

وشَرْبٍ قد نحرتُ لهم عُقاراً كحاشية الرداء الأُرجواني [2]
كأن الشمسَ مال بها غُروبٌ فاهوتْ في حيازيم الدّنان [3]
فصِلْ بدم العُقار دمَ الاعادي وأصواتَ العوالي بالأغاني [4]
فيومٌ أنت غرّتـــهُ جوادٌ يبُذُّ بشاوه طَلْق القِران [5]
جعلت هديتي فيه نظامـــاً صقيلاً مثل قادمـــة السنان
بلفظٍ فاسقٍ اللحظات تُنْمَى محاسنُه إلى معنىً حَصان [6]
وصلتُ جواهر الألفاظ فيهِ باعراض المقاصد والمعـــاني
فجاءت غَضّةَ الأطراف بكراً تخيَّر جيدها نظم الُجمان
كأن أبا عُبادة شقّ فاهـــا وقبّل ثغرها الحسنُ بن هاني

أو يرى نفسه ضَريباً لزهير فيقول :

أنا زهيرٌ فمن لي في زمانك ذا ببعض ما افترقتْ عنه يَدا هرِمِ

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول :

---

(١) الخورنق قصر للنعمان الاكبر معرب خورنكاه . أي موضع الاكل . والسدير : نهر بناحية الحيرة . وقد وصف تلك الاماكن في كتاب « ليلى المريضة في العراق»

(٢) الشرب بفتح الشين هم القوم يجتمعون على الشراب . والعقار بضم العين هي الخمر سميت بذلك لمعاقرتها أي لملازمتها الدن أو لأنها تعقر شاربها عـــن المشي . والارجواني بضم الهمزة والجيم الاحمر القاني .

(٣) الحيازيم جمع حيزوم وهو الصدر او وسطه . والدنان جمع دن بفتح الـــدال ، وهو الراقود العظيم توضع فيه الخمر

(٤) العوالي : الرماح

(٥) يبذ : يفوق . والشأو . السبق . والقران : وبكسر القاف هو هنا النبل بفتح النون .

(٦) الحصان بفتح الحاء : العفيف .

بَزَّ زهيرًا شعري وهانـــذا لم أرض في المجد أنه هَرِمُ

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول :

جاءتك مُحصَدَةَ القُوى حَبّارةً تستعبد الأَرواح في الأَجسام [1]
من لي بإنشاديكهـــا في موقفٍ أعتدُّه شرفـــاً مدى أيامي
لا أدَّعي فيه الغُلُوَّ وإنمـــا يُوفى على قُلَل الرجال كلامي [2]

أو يقول :

وإن قوافي الشعر مالم أكن لهـــا مُستَفْسِفَةٌ فيها عَتيقٌ ومُقْرِفُ [3]
أنا الفارس الوثّاب في صهواتها [3] وكل مجيد جاء بعديَ مُرْدِفُ [4]

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول :

وأنا المضارب عن علاك بمِقْوَلٍ ماضي الغرار ولا الجراز المِقصل [5]
يدمي الجوارح وهو ساكن غِمدِهِ ولقلما يمضي بغمدٍ مُنصلُ [6]

ويرى نفسه فوق الشعراء ــ إذ كان يبتغي الكرامة ويبتغون المال = فيقول :

---

(١) محصدة القوى : محكمة الفتل . وهي عبارة مجازية . والحبارة . صفة مدح مأخوذة من الحبير وهو البرد الموشى

(٢) القلل: جمع قلة بضم القاف وهي أعلى الرأس والسنام والجبل

(٣) العتيق : الشريف . والمقرف ما يداني الهجنة أي أمه عربية لا أبوه . لان الاقراف من قبل الفحل والهجنة من قبل الأم . والعبارة ايضاً مجازية

(٤) الصهوات جمع صهوة وهي مقعد الفارس من الفرس

(٥) المردف كالرديف . والمرتدف هو من يركب خلف الراكب .

(٦) المقول بكسر الميم هو اللسان . والغرار بكسر الغين حد الرمح والسهم والسيف . والجزار بضم الجيم : السيف القاطع ، والمقصل : على وزن منبر صفة السيف . من القصل وهو القطع

(٦) المنصل بضم الميم والصاد . السيف

مدحتُ أميرَ المؤمنين وإنــهُ لأشرف مأمولٍ وأعلا مؤمَّم [1]
فأوسعني قبل العطاء كرامةً ولا مرحباً بالمال إنــ لم أكرَّم

ويرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول :

أبا قاسمٍ جاءتْ اليك قــلائدٌ تُقلِّد أعناق الرجال المناقبـــا
قلائد مــن نظمي تودُّ لحسنها قلوبُ الاعادي أن تكون ترائبا [2]
إذا هدَّها راوي القريض حسبتهُ يقوم بها في ندوة الحيّ خاطبا [3]
فلو كنَّ غدراناً لكنَّ مشاربــاً ولو كنَّ أحداثاً لكنَّ تجاربا [4]

أو يقول :

فحسبُك فخراً بهـــذا المديح وإن غاض في المدح ماء افتخاري
يزورك بين قلوب العـــداةِ فيقطعـــها في اتصال المزار
غدت كف مجدك مــــن مدحتي تجول معاصمها في سوار

ويشبّه أشعاره بالعقائل [5] فيقول :

وكنت زماناً أذود الملوك [6] عن السِّلك رقرقتُ فيه النظاما
أريد الكرامة لا المكرُمات ونيلَ العُلا لا العطايا الجساما
فحوزوا العقائل عن خاطري إلى مَ أماطل عنها إلى ما

ويرى شعره أعزّ من أن يمدح بـــه غير الخلفاء ، فيقول في خطاب الطائع لله :

---

(١) مؤمم على وزن المفعول : مقصود
(٢) الترائب عظام الصدر وهي هنا موضع القلادة
(٣) هد في هذا البيت فعل من الهد وهو الصوت والترنم
(٤) الغدران : تكون في الاغلب مشوبة بالقذى فهي لا تكون مشارب إلا ان غلب عليها الصفاء . والاحداث شارة الشقاء في الاغلب ولا يغلب عليها القبول إلا ان صارت من التجاريب.
(٥) العقائل جمع عقيلة وهي السيدة الكريمة المخدرة
(٦) أذود : أمنع

أنت أفسدتني على كل مامو ... لِ وأعديتني على كل خطبِ
فإذا ما أراد قربي مليـــكٌ ... قلتُ قربي من الخليفة حسبي [1]
عزَّ شعري إلا عليك وما زا ... ل عزيزاً يأبى على كل خطب

أو يمنُّ به على أحد الوزراء [2] فيقول :

خطبتَ شعري إلى قلب يَضِنُّ بهِ ... إلا عليك فباشرْ خير مخطوبِ

وقد يرى شعره بشيراً بالنعيم ، ونذيراً بالعذاب ، فيراه غيثاً ينفع الاولياء ، وصواعق تحرق الأعداء ، كان يقول في خطاب أبيه :

وهذا مقالي فيك غيثٌ وربما ... رميت العدا من وقعه بالصواعق

وكان يقول في التهديد :

حِذارَكم بني الضحاك إني ... إلى الامر الذي تُومون أومي
فلا تتعرضوا لنراع عادٍ ... مُدِلٍ عند حِيسته شتيم [3]
فإن تكُ مدحةٌ سبقت فإني ... بضد نظامها عـــين الزعيم
وقافية تُخضْخِضُ ما ترامتْ ... بهـــا الأيام في عِرض اللئيم
تردد ما لها ممن يعيها ... سوى الإطراق منها والوجوم
لها في الرأس سَوارتٌ يطاطي ... لها الانسان كالرجل الأميم [4]
ليعلم من أنا ضل أن شعري ... يطالع بالشفاء وبالنعيم

وللشريف أفانين من التهديد ، وهو يتوعد توعُّدَ الباطشين ، ويرى شعره يَعرُق العظام وينكّل بالأحساب . وانظروا كيف يقول :

---

(١) يشير بهذا إلى زهده في مدح الملوك من بني بويه وكان صدف عنهم بعد ان حبس عضد الدولة أباه . ولكنه سيمدح بهاء الدولة ويطيل في الثناء عليه .

(٢) هو ابو نصر سابور ارد شير وقد قدم بغداد مع شرف الدولة سنة ٣٧٦ .

(٣) الحيسة بالكسر والحيس : موضع الاسد . والشتيم : الاسد العابس

(٤) الاميم والمأموم هو الذي أصابت الضربة أم رأسه

فدونكها قاصفاً عــاصفاً من الشر أو عارضاً مُرزِما
قوارص تنثُر نظم الدروعِ وتستنزل البطل المُعلَما [1]
فمن كان يسقيك أرْيَ الجنَى فإني سألعِــقك العلقما [2]
ومـــن كان يلقاك مُستسلماً فإني ألاقيك مُستلئِما [3]

والشريف في وعيده يكشف عن صدر صَهَرَه الغيظ ، وقلبٍ أضرمته الضغائن والحقود . وما كان لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلبٍ رفيق ، وهل يعرف الرفق من يقول :

أحرجتني فهاكها بنت عَناقٍ والرَّقَم [4]
والليثُ لا يخرج إلاّ مُحرَجاً من الأَجم [5]
كلذعةِ الميسم في شَواظِ نارٍ وضَرَم
والحيةِ الرقطاء تر دى أبداً بغير سُمّ
حقّاً على أعراضكم تَعُطّها عَطَّ الادم [6]
فاستنشقوها نفحةً تجدعُ مارِن الأشمّ [7]
تقرض من جنوبكم طمَّ اللمام بالجَلَم [8]

---

(١) المعلم بصيغة المفعول هو الذي يحمل علامة الحرب
(٢) الاري : العسل (٣) المستلئم لابس اللأمة وهي الدرع المحكمة
(٤) العناق على وزن سحاب : الداهية ، وكذلك الرقم بالتحريك
(٥) اصل هذا المعنى لأبي تمام إذ يقول

أخرجتموه بكره عن سجيته والنار قد تنتضي من ناضر السلم
وطأتموه على جمر العقوق ولو لم يحرج الليث لم يخرج من الاجم

(٦) تعطها : تشقها . والمعطوط : المغلوب قولا وفعلا . والأدم : الجلد
(٧) المارن : الأنف . أو طرفه . أو ما لان منه
(٨) طم الشعر : جزه أو عقصه . واللمام : جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الاذن . والجلم : المقص

كأنما تضرب في الـ   عرض الاعز بالقُدُم [1]
مذكورة ما بقيتْ   من غير عقدٍ لرَتَم [2]
ترى على عاري العظا   م وَسْمها وهي رِمم
فلو نزعت الجلد كا   ن رَقْمها كما رَقم
كم جرَّدتْ شِفارها   لحم فتى بلا وَضم
خابطة لا تتقي   صدم أخٍ ولا ابن عم

...

أيها السادة :

قد أشرتُ كما ترون إلى نحو عشرين موضعاً زُهِي فيها الشريف بشعره واختال، وقد حدثتكم أن تلك المواضع نيِّفتْ على الستين ، والآن أحب أن نفهم معاً كيف صح ذلك الزهو وذلك الاختيال :

كان يكفي أن نسجل هذه الظاهرة النفسية ، وأن نقول إنه سلك طريقاً سار فيه كثير من الشعراء ، ولكني رأيت بعد التأمل والدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجرُّ وراءها أشياء ، وأكاد أجزم بأنها تدل دلالة على أن الرجل كان يحس أنه يحيا في عصره حياة المغبون ، وأنه كان على أهل زمانه من الحاقدين .

ولكن كيف يصح هذا الافتراض ؟ ها كم البينات :

كان الشريف يعيش في عصر احتله الاموات واحتله الأحياء .

أما الاموات الذين احتلوا عصره فهم البحتري وأبو تمام والمتنبي ،وقد شاء النقاد أن يمكِّنوا أولئك الاموات من ذلك الاحتلال، وأظهرُ شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعرّي الذي عاش دهره كله وهو يحقد على

---

(١) القدم : جمع قدوم
(٢) الرتم : خيط يعقد في الاصبع للتذكير

الشريف الرضي أبشع الحقد ، فقد ألف ثلاثة كتب في شاعرية أبي تمام والبحتري والمتنبي ، وأراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقفٌ على هؤلاء الثلاثة فقال : البحتري هو الشاعر ، وأبو تمام والمتنبي حكيمان . وكان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة مِحورَ الجدَل والخلاف .

ويضاف إلى هذا أن الشريف الرضي أعلن خصومته لشاعرية المتنبي وإعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبي بأجزل النفع ، فقد كان للشريف كثيرٌ من الاعداء ، واولئك الاعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون ويعيدون في الكلام عن عبقرية المتنبي،وأذاعوا في الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان ، وكانت هذه الاحكام ظاهرُها حب الادب وباطنها إغاظة الشريف .

وقد أراد خصوم المتنبي أن يقوموا بحركة عكسية، ولكنهم لم يفلحوا ، فقد أرسل الصاحب بن عباد يستنسخ ديوان الشريف ليُفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجيل، وأن العصبية للمتنبي لا تمنع من التسليم بأن عالَم الشعر لا يزال فيه مجالٌ للاعلام والاقطاب [1] .

قد تقولون : وكيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجيء هو إلى الدنيا بأعوام ؟

وأجيب بأن موت المتنبي في القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقي في القرن الرابع عشر : فقد سكت النقاد عن شوقي بعد إذ مات ، لان شوقي

---

(١) وهناك سبب سياسي لعطف الصاحب على شعر الشريف : فقد كان الشريف يكره عضد الدولة لأنه سجن أباه . وكان الصاحب يكره عضد الدولة لأنه كان يسعى لقتله في الخفاء . فالاشتراك في بغض عضد الدولة كان من أهم أسباب المودة بين الشريف الرضي والصاحب بن عباد .

كان مَلَكَ الجماهير في زمانه ملكاً قوياً ، وكان تفرد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه ، فلما مات سلموا له بالامارة الشعرية ، وعادوا إلى شؤونهم ساكتين .

ولم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبي ، فقد كان على جَهارة صوته وجلجلة شعره يحدّث الناس بما يألفون ، وكانت له بَدَوات لفظية ومعنوية تؤلب الناس عليه ، وتهيج النحويين واللغويين ، فلما مات بقيت الفرصة للجدَل والشغب والضجيج ، وانقسم الناس حول شعره إلى فريقين : عدوٍّ وصديق ، وكذلك ظل يثير الهيجاء وهو هامدٌ بين الصفائح والتراب ، ولو تسمّع الناس صوت رفاته البالي لرأوه يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصِمُ

ومن المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبي وهو طفل ومن المؤكد أيضاً ان عظمة المتنبي احتلت أقطار نُهاه ، ولعلها كانت السبب في أن ينظم الشريف أجود الشعر وهو ابن عشر سنين ، فليس من المستبعَد أن يكون في أساتذة الشريف من لقّنه الحقد على المتنبي ، ثم ظل هذا الحقد عقيدةً أدبية يساورها وتساوره طول الحياة .

وأقف عند الغرض الاصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف الناس عن شعره وإقبالهم على شعر المتنبي ، وقد انقلب هذا العجب إلى حقد : لانه كان يرى نفسه أشعر من المتنبي ، وكان يفهم جيداً ان الناس لو خلصتْ ضمائرهم من أوضار العصبيات الدينية والسياسية والادبية لفضلوه على المتنبي ، ولكنهم لن يخلُصوا ولن يُسعِفوا الشريف بما يريد .

ولم يكن المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي يحتل أذهان أهل بغداد من

فقد كانت هناك أطياف تردُ إلى أهل بغداد من شاعر وُلِد في بلد بعيد وعاش في القرن الرابع : وهو أبو القاسم بن هاني الذي ولد في إشبيلية ، وسَمتْ به همته إلى أن يكون أمير الشعراء في مصر ، ثم احتضره الموت وهـــو في الطريق ، فلم يشهد بساتين الجزيرة ولا مساجد الفُسطاط .

وكانت أطياف ابن هاني تغيظ الشريف الرضي أشد الغيظ : لأن الناس لم يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا هو متنبي المغرب. ولا نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر بن هاني لعهد الشريف ، ولكن من المؤكد أن ابن هاني كانت له سِمات تلفت العراقيين إليه : فقد كان شاعر الفاطميين أعداء العباسيين ، الفاطميين الذين أنشأوا القاهرة لينافسوا بغداد ، وليخلقوا الخصومة بين دجلة والنيل .

...

أيها السادة :

حدثنا كم حديثاً موجزاً عن شاعرين كانا يحتلان أذهان الناس في بغداد من بين الأموات ، وهما المتنبي وابن هـــاني ، وبينّا كيف كان الشريف يغتاظ لصيرورة ما أبدعا من الآيات ، فما بالنا لا نخبطُ شجرةَ الشعر في القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب ويضجر ويلتاع ليرفع رايته في ذلك البحر المحيط ؟

لقد كان العراق في القرن الرابع مسرحاً لعرائس الشعر الجميل، وكان المرء لا يلتفتُ إلا رأى نفائس وغرائب تبهر الأذواق والقلوب والعقول .

ففي القرن الرابع ولد السَّلامي ، وُلِد بالكرخ لستّ خلون من رجب سنة ٣٣٥ ، وقد بهر الناس بشعره في مطلع صباه ، فقد كان أول ما سار من شعره قوله وقد ركب سفينة في دجلة ، وكان ركبها أول مرة[1] .

---

(١) عبارة اليتيمة (وكان رآها اول مرة) وهذا يكاد يكون غير معقول .

وميدانٍ تجول به خيولٌ تقود الدارعين ولا تُقادُ
ركبتُ به إلى اللذات طِرفاً[1] له جِسمٌ وليس له فــؤاد
جرى فظننت أن الارض وجهٌ ودجلةٌ ناظرٌ وهو السّواد

وقد مضى السّلامي يبدع ويجيد حتى فتن أهل بغداد ، وحتى استطاع أن يقول :

وفيهن سَكْرَى اللحظ سَكرَى من الصّبا
تعاتب حُلْوَ اللفظ حلو الشمائلِ
أدارتْ علينا من سُلاف حديثها
كؤوساً وغنّتنا بصوت الخلاخلِ

واستطاع أن يجيد وصف الزنابير التي تُضجر أهل بغداد فيقول :

ولابسِ لونٍ واحدٍ وهو طائرٌ ملوّنة أبرادُهُ وهو واقــع
أغرُّ عشيٌّ الطيلسان مدبّج وسودُ المنايا في حشاه ودائــع
إذا حكّ أعلا رأسه فكأنمـــا بسالفتيه من يديه جوامع
يُخاف إذا ولى ويؤمَن مُقبلاً ويخفي على الأقران ما هو صانع
بدا فارسيّ الزي يعقد خصرهُ عليه قبــاءٌ زينّته الوشائع[2]
فمِعجره الورديُّ أحمرُ ناصعُ ومئزره التبريُّ أصفرُ فاقع
يرجّع ألحان الغريض ومَعبَدٍ ويسقي كؤوساً ملؤها السم ناقع

والسّلامي هذا كان شَغَل أهل العراق في القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء ، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضي أن يسكت عــن ضياع شعره ، وهو أشعر من أمثال السلامي بلا جدال .

---

(١) الطرف بالكسر : الحصان .

(٢) الوشائع جمع وشيعة وهي الطريقة في البرد ، من الوشع وهو زهر البقول .

وفي ذلك العصر نبغ في العراق ابن نباتة السعدي الذي وصف الثعالبي قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب . وأرقّ من نسيم الاسحار وشكوى الأحباب ، ابن نباتة الذي يقول :

وكم لليل عندي من نجومٍ جمعتُ النثر منها في نظامِ
عتاباً أو نسيباً أو مديحاً لخِلٍّ أو حبيب أو همامِ
تفيد بها العقول نهىً وصحواً وقد فعلت بها فعل المدامِ
لها في حلْبة الآداب ركض إلى حبِّ القلوب بلا احتشام

ابن نباتة الذي يقول :

عجبتُ له يُخفي سُراه ووجهُهُ به تشرق الدنيا وبالشمس بعدهُ
ولا بدّ لي من جهلةٍ في وصاله فمن لي بخِلٍّ أودع الحلم عندهُ

وفي ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السّري الرّفاء [1] السّريّ الذي يقول وقد شرب في زورق :

ومعـــتدل يسعى إليّ بكأسهِ وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتِك
وقد حَجَب الغيمُ السماء كأنما يُزَرُّ عليها منه ثوبٌ ممسَّكُ
ظللنا نبث الوجد والكأس دائرٌ ونهتِكُ أسرار الهوى فنُهتَّك [2]
ومجلسُنا في الماء يهوي ويرتقي وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحك

وأكاد أجزم بأن السري الرفاء نال من نفس الشريف كل منال ، فقد شُغِل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبي ، فافتنوا الليـــالي في إخراج سرقاتـــه الشعرية ومزقوه كل ممزّق ، وكان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد ببعض ما ظفر به شعر الرفاء .

---

(١) عاش هذا الشاعر إلى سنة ٣٦٦ فكان عمر الرضي وقت وفاته نحو ثمان سنين.
(٢) الكأس قد يذكر . ومن شواهد تذكيره هذا البيت .

وفي عصر الشريف نبغ في العراق شاعران ماجنان هما ابن سُكّرة وابن حجاج ، وكان لهذين الشاعرين في زمانهما مكانٌ مرموق ، فكان يقال في بغداد (إن زماناً جاد بابن سكرة وابنَ حجاج لسخيٌّ جداً[1]) وكانت أشعار هذين الماجنين تباع في الاسواق بأثمان غالية ، وكان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال ، وما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين ديناراً في أزمان قضت عليها الفتن والثورات بضيق العيش واختلال الأحوال!

وقد طغى هذان الشاعران في زمانهما أبشع الطغيان ، بفضل ما خلّبا به الناس من أشعار الهزل والمجون ، وبفضل ما رُزقا من قوة الافتتان مع خفة الروح .

أما ابن سُكرة فكان يبدع في وصف مجالس اللهو والانس كان يقول:

ويوم لا يقاس اليه يومٌ ... يلوح ضياؤه من غير نار
أقمنا فيه للذات سُوقاً[2] ... نبيع العقل فيها بالعُقار

وقد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها « خمرة » فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت هذه الحكاية مدار السّمر في أندية بغداد ، وأثرت في الشريف الرضي نفسه فأنشأ القصائـــد الطوال في التشبيب بالسود الملاح[3] .

وأما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه اليه سابق[4] ، وكان السخف في ذلك الزمن شيئاً يطلبه أحرار الرجال ليتلهوا عما يحيط

(١) انظر اليتيمة (٢) في اليتيمة (شوقاً) بالشين وهو تحريف
(٣) سنرى شواهد ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب
(٤) تجارب الامم ج ٣ ص ٤٠٣

بهم من المعاطب والظلمات . وقد بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصّل الأموال ، وعقد الأملاك ، وصار مقضيّ الحاجة ، مقبول الشفاعة ، محذور الجانب ، متقى اللسان [1] .

ولم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج : فقد كان يجيد في سائر ضروب الشعر إجادة الفحول ، واضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فاخرج منه مختارات سماها (الحسن من شعر الحسين) .

ولما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين :

نَعَوْه على ضنٍّ قلبي بهِ ... فلله ماذا نعى الناعيان
رضيعُ ولاء له شُعبةٌ ... من القلب فوق رضيع اللّبان

وختمها بهذين البيتين :

فزُلْ كزيال الشباب الرطيـ ... ـب خانك يوم لقاء الغواني
ليَبْكِ الزمان طويلاً عليك ... فقد كنت خِفةَ رُوح الزمان

وأستطيع أن أقول إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض الوفاق في المذاهب الدينية أو السياسية : فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت ، كأن يقول في خطاب أبي إسحاق الصابي :

فداك الله بي وبكل حيٍّ ... من الدنيا دنيٍّ أو شريفِ
يَحلُّ لك التغافل عن أناس ... تولوا ظلم خادمك الضعيف
ولستُ بكافرٍ فيحلّ مالي ... ولا الحجاج جدي من ثقيف
فمُرْ بدراهمي ضرباً وإلا ... جعلت سِبالَ قوفاً في الكنيف [2]

ولم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية في بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين بالقاهرة والظفر بما في مصر من طيبات الهدايا والدنانير [3] .

(١) ص ٤٠٤ (٢) قوفا هو ابو الحسن محمد بن الهماني

(٣) تجارب الامم ج ٣ ص ٤٠٤

ولكن من الظلم أن تقضي بان ذلك التوافق المذهبي كان كل الأسباب في عطف الشريف على ابن حجاج ، فقد كانت لهذا الرجل وثباتٌ شعرية قليلة الامثال ، فهو الذي يقول :

ومدلَّلٍ أما القضيب فقدُّهُ   شكلاً وأما رِدفه فكثيبُ
يمشي وقد فعل الصَّبا بقوامه   فِعلَ الصَّبا بالغصن وهو رطيبُ
متلوِّن يبدي ويخفي شخصه   كالبدر يطلعُ مرةً ويغيب
أرمي مقاتلهُ فتُخطئ أسهمي   غرضي ويرمي مقتلي فيصيب
نفسي فداؤك إن نفسي لم تزل   يحلو فداؤك عندها ويطيب
مالي وما لك لا أراك تزورني   إلا ودونك حاسدٌ ورقيب

تلكم حال ابن سكرة وابن حجاج ، فهل يمكن القول بأن الشريف كان ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح ؟

وكيف وهو يراهما ينتهبان الجوَّ الادبيَ أفظع انتهاب ، ويبلغان بالهزل ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجِد الصُّراح ؟

ولا تنسوا أني أسوق هذا الكلام لابين السر في حرص الشريف على الزهو بشعره ، والاختيال بعبقريته ، فقد كان مضطراً إلى تذكير أهل العراق بما له في الشعر من مقام جليل .

...

وفي القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجاني الذي ذكَّر الناس بعهد البحتري ، وقد فصلتُ الكلام عن شعره ونثره في الجزء الثاني من كتاب « النثر الفني » فلا أعود اليه الآن ، وإنما يهمني أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبي ، وكان الشريف يبغض المتنبي ، كما تعلمون[1]

---

(١) سنرى فيما بعد رأياً للاستاذ طه الراوي ينفي الخصومة التي قيل انها ثارت بين المعري والشريف الرضي بسبب المتنبي

ومن نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كَشاجم ، وكان شعره في ذلك العهد ريحانة أهل الادب في العراق ، وكان مَوْرد رزق للنساخ والورّاقين ، وطوّفتْ أشعاره بالمشرق والمغرب حتى وصلت إلى القيروان ، وتخير أطايبها مؤلف « زهر الآداب » فانظروا كيف يضيق صدر الشريف الرضي وهو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم على حين يظل شعره الفخم بلا رواة ولا شُرّاح ولا نقّاد ، وهو في نفسه أشعر الناس .

...

ومن أعلام ذلك العصر أبو حامد الانطاكي ، وهو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى ان مات سنة ٣٩٩ وقد كانت لهذا الشاعر في زمانه شهرة عظيمة لانه اراد ان يكون في مصر والشام كابن سكرة وابن حجاج في العراق .

ويظهر انه صادف في مصر جماعة من اهل الهزل والمجون فاوغل في السخف كل الإيغال ، وسمى نفسه ابا الرقعمق ، واعلن انه حليف الرقاعة والحماقة ، حتى صح له ان يقول :

استغفرُ الله من عقلٍ نطقتُ بهِ   مالي وللعقل؟ ليس العقل من شاني!

ولكن هذا الشاعر لم يخل من عبقرية نبيلة ، فقد سجل في شعره ليل تنّيس وهي مدينة مصرية كان لها حظٌّ مرموق ، وكان بهـــا في بعض العهود خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث ، وكانت كذلك من اماكن الصيد صيد الطير لا صيد الظباء ، فكان بها من انواع الطيور مائة ونيف وثلاثون صنفاً ذكرها باسمائها صاحب معجم البلدان . وسجل الانطاكيُّ كذلك ملاعب الجزيرة ، جزيرة الفسطاط ، لا الجزيرة التي يصلنا بملاعبها في هذه الايام جسر إسماعيل ، وانظروا كيف يقول وقد طال شوقه إلى

ملاعب الفسطاط :

ليلي بتِنّيس ليل الخائف العاني ... تفنى الليالي وليلي ليس بالفاني
أقول إذ لجّ ليلي في تطاولهِ : ... يا ليلُ انت وطول الدهر سيان
لم يكف أنيَ في تنيس مطّرَحٌ ... مخيّمٌ بين اشجان واحزان
حتى بُليتُ بفقدان المنام فما ... للنوم إذ بعدوا عهدٌ باجفاني
ما صاعد البرق من تلقاء ارضهم ... إلا تذكرت ايامي بنعمان
ولا حننت إلى نجران من طربٍ ... إلا تكنفني شوق لنجران
لا تكذبنّ فما مصرٌ وإن بعدت ... إلا مواطن اطرابي وأشاني [1]
ليالِيَ النيل لا أنساكِ ماهتفتْ ... وُرْقُ الحمام على دَوْحٍ واغصان
اصبو إلى هفواتٍ فيكِ لي سلفت ... قطعتهنّ وعينُ الدهر ترعاني
مع سادةٍ نُجُبٍ غُرٍّ غطارفةٍ ... في ذروة المجد من ذُهل بن شيبان
وذي دلال إذا ماشئت انشدني ... وإن أردت غناءً منه غناني
سقيته وسقاني فضل ريقته ... وجادلي طرفه عفواً ومنّاني
ما زال ياخذها صفراء صافيةً ... حتى توسد يُسراه وخلاّني
الله يعلم ما بي من صبابتهِ ... وما عليّ جناه طرفه الجاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به ... على تَضاحك نايات وعيدان
سقياً لليلتنا بالدير بين رُباً ... باتت تجود عليها سُحْب نيسان
والطلّ منحدرٌ والروض مبتسم ... عن أصفرٍ فاقعٍ أو أحمرٍ قاني
والنرجس الغض منهلٌ مدامعه ... كأن أجفانه أجفان وسنان

ولا يمكن الشك في ان الشريف الرضي سمع باخبار هذا الشاعر وما

(١) مصر في هذا البيت هي الفسطاط ، وجمهور المصريين يسمون عاصمتهم مصر ، حتى القاهرة تسمى عندهم اليوم مصر .

كان لشعره من الذيوع في الاقطار الشامية والديار المصرية .

وفي القرن الرابع نبغ ابن درّاج الأندلسي، وقدفصلت أخباره ووازنت بينه وبين أبي نواس في كتاب « الموازنة بين الشعراء » وإنما يهمني أن أنص على أن في أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق وخراسان إذ يقول :

فإن غرّبتْ أرضُ المغارب موئلي وأنكرني فيها خَليطٌ وخُلّانُ
فكم رحّبتْ أرضُ العراق بمقدَمي وأجزلت البشرى عليّ خُراسانُ
وإن بلاداً أخرجتْني لَعاطلٌ وإن زمانا خان عهدي لخوّانُ
سلامٌ على الإخوان تسليم آيسٍ وسقياً لدهرٍ كان لي فيه إخوان
فلا مؤنسٌ إلا شهيقٌ وزَفرةٌ ولا مسعِدٌ إلا دموعٌ وأجفان
وما كان ذاك البينُ بين أحبة ولكنْ قلوبٌ فارقتهن أبدان
فيا عجباً للصبر منا كأننا لهم غيرُ مَن كنا وهم غير مَن كانوا
مضى عيشهم بعدي وعيشيَ بَعدهم كأنيَ قد خُنتُ الوفاء وقد خانوا

ولا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضي من سلطان الشعراء في المشرق والمغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى بغداد في حَيَوات أصحابها ، وكانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة وقرطبة ، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح ، وإن تباعدت البلاد .

وكان العراقيون ومن والاهم من أهل المشرق يضنّون بالكتب ضَنّ الأشراف بالأعراض : فقد غُلِبَ أديبٌ على نسخة الجمهرة لابن دُريد، غَلبه الفقر ، وهو أبو الحسن علي بن أحمد الفالي ، فباعها للشريف المرتضى بستين ديناراً ، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات .

أَنِستُ بها عشرين حولاً وبعتُها فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلّدتني في السجون ديوني
ولكنْ لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عَبرة مقالة مكويّ الفؤاد حزين
(وقد تخرجُ الحاجات يا أمّ مالك كرائمَ من ربٍّ بهنّ ضنين)

ويقال إن المرتضى ردّ النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات وترك الدنانير .

...

أيها السادة :

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله في القرن الرابع ، وكيف كان الشريف يضجر من خموله بين الشعراء . مع أنه كان في نفسه وفي الواقع سيد الشعراء .

فلننظر الآن بنظرة ثانية نرى بها كيف عظُمت منزلة الشعر في القرن الرابع ، حتى استطاع الرضيّ على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه

كان الشعر في ذلك العصر مما يتحلى به الامراء والرؤساء ، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز ، وكان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة وأبي فراس .

وكيف لا يعزُّ الشعر في زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبي الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد ؟ كيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه قاض كأبي الحسن الجرجاني وكاتب مثل عبد العزيز بن يوسف ؟

ومن عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا في الأغلب يجمعون بين الصناعتين : الشعر والانشاء ، فكانت البلاد تموج موجاً بمواكب الخيال والبيان .

وكان الشريفُ الرضي ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق والحيرة : لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخناق ، وأقصت عنه أسباب السلطة الأدبية ، وهي سلطة هائلة كان لها الأمر يومئذ في مصاير الرجال .

وسترون في المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف ، ولكن المهم في هذه اللحظة أن تثقوا بان الظروف هي التي أحرجته وقضت عليه وهو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيُزهَى بشعره ويختال ، المهم عندي أن تعذِروا الشريف حين ترونه يقول :

سيُسكتني يأسي وفي الصدر حاجة ... كما أنطقتني والرجال المطامعُ
بضائع قول عنـد غيريَ ربحها ... وعنديَ خسراناتها والوضائع
غرائب لو هدَّت على الطود ذي الصَّفا ... أصاخ اليها يَذْبُلٌ والقماقعُ
تضاع كما ضاعت خَلاةٌ بقفرةٍ ... زَفتْها النُّعامَى والرياح الزعازع [1]
كأن لساني نِسعةٌ حَضرمية ... طواها ولم يبلغ لها السوم بائع [2]
لقد كان لي عن باحة الذل مذهبٌ ... ومضطرَبٌ عن جانب الضيم واسع
وما مُدَّ ما بيني وبين مذاهبي ... حِجازٌ ولا سُدَّت عليَّ المطالع [3]
سيُدرَى من المغبونُ منا ومنكمُ ... إذا افترقتْ عما نقول المجـــامع
وهل تدَّعي حفظ المكارم عصبةٌ ... لئام ومثلي بينها اليومَ ضائع
نعم لستم الأيدي الطوالَ فعاونوا ... على قدركم قد تُستعان الأصابع
إذا لم يكن وصلي إليكم ذريعةً ... فيا ليت شعري ما تكون الذرائع
أرى بارقاً لم يرْوني وهو حاضرٌ ... فكيف أُرجّي رِيَّهُ وهو شاسع
سأذهب عنكم غير باكٍ عليكمُ ... وما ليَ عذرٌ أن تفيض المدامع
وأعتدُّ فجاً أنتم من حِلالهِ ... ثنيّةَ خوفٍ ما له اليوم طالع [4]

(١) الخلاة واحدة الخلا وهو الرطب من النبات ، والنعامى بالضم ريح الجنوب ، وزفته طردته
(٢) النسعة قطعة من النسع وهو سير من الجلد تشد به الرحال (٣) الحجاز : هو الحاجز
(٤) الحلال بالكسر هم النازلون بالمكان . والثنية : العقبة في الجبل .

ومامو قفي والركب يرجى على الصدى ... موارد قد نشّت بين الوقائع [1]

أفارقكم لا النفس وَلْهَى عليكم ... ولا اللبُّ مخلوسٌ ولا القلب جازع

ولا عاطفاً جيدي اليكم بلفتةٍ ... من الشوق ما سار النجوم الطوالع

ولا ذاكراً ما كان بيني وبينكم ... مُراجعةً ، إن المحب المراجع

نبذتكُم نبذة المخفّف ثِقلهُ ... وإني لحبلٍ مَنّه الغدر قاطع [2]

أيها السادة :

ذلكم مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع ، وتلكم شكواه من جماهير الناس في بغداد ، فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات السنين ، وكيف تتوجعون لما كان يتوجع ، وكيف تشفقون عليه إشفاق الأكرمين من الاوفياء .

---

(١) النش : نضوب الماء ، والوقائع : مساقط الماء .

(٢) في طبعة بيروت (منة الغدر) وقد أتعب المصحح نفسه فشكل كلمة (منة) بفتح الميم وتشديد النون وضم التاء ، والصواب (منه) وهو فعل ماض من المن وهو القطع . وفي القرآن (لهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع .

أعوام البؤس في حياة الشريف

أيها السادة

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثّرت في حياة الشريف، وأضرمت النار في صدره ، و بصّرته بحقائق الدنيا وخلائق الناس .

وهذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف في مدح أبيه ، والتشوق اليه ، بطريقة لم تُعرَف عن أحد من الشعراء .

هذه الحادثة هي اعتقال أبيه وحبسه في قلعة فارس من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦ .

وقبل ان نفصّل أسباب هذه الحادثة نذكر ان الرضي وُلِد في أيام كانت تفيض بالنكبات ، وتمجّ بالدماء ، فقد حدث وهو صبيٌّ في المهد أن ثارت الفتن بين الديلم والاتراك ثورةً عادت على بغداد بأعظم الفجائع ، وأبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق اكثر من اسبوع ، وأحرق الرجال والنساء في الدور والحمامات ، وتقدم أبو احمد الموسوي والد الرضي لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار ومحاسبته على ما وقع في الكرخ ، فغضب الوزير وصرفه عن النقابة ، وكانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الاشراف .

وما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه وهو في المهد حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الاسلامية أبشع انكشاف : فقد وردت الاخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها وأحرقوها وقتلوا الرجال وسبَوا الذراري ، ثم ورد ناسٌ من ديار ربيعة وديار بكر مدينة بغداد واستنفروا المسلمين في المساجد والاسواق ، وخوّفوا البغداديين عواقب

ما يتطلع اليه الروم من غزو العراق، وقامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع لله، وحاول المتظاهرون الهجوم عليه ، وقـــلعوا طائفة من نوافذ القصر ، فأغلقت دونهم الابواب بعد ان كادوا يصلون إلى الخليفة ، ولكنهم لم ينصرفوا حتى اسمعوه افحش السباب .

وفي تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدّخرات ليستعين بها على غزو الروم ، فأجاب الخليفة :

« إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليَّ تدبـــير الاموال والرجال، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفايتي ،والدنيا في ايديكم وايدي اصحاب الأطراف ، فما يلزمني غَزوٌ ولا حج ولا شيء مما تنظر الائمة فيه ، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يُخطب به على منابركم تسكّنون به رعاياكم ، فإن أحببتم ان اعتزل اعتزلتُ عن هـذا المقدار ايضاً وتركت لكم الأمر كله »

ولكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يُرْضِ بختيار : فما زال يُوعد ويهدّد حتى اضطر الخليفة المطيع لله إلى بيع ثيابه ،وبعض انقاض داره ليجمع اربعمائة ألف درهم يَسْلم بها من غضب بختيار الذي اخذ من الخليفة ومن الناس ما اخذ ولم يَخطُ خطوة واحدة في قتال الروم !

وقد تجلت هذه البلايا عن قوتين تخاصمان بني بُويه : قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، وقوة أبي احمد الموسوي الذي عزله وزير بختيار عـــن نقابة الاشراف .

وبعد سنتين من ذلـــك التاريخ سنة ٣٦٣ شبت الثورة بين الترك الديلم مرةً ثانية، فسُفكت الدماء ،وأحرقت مدينة الكرخ حريقاً ثانياً بعد

الحريق الاول، وعانت بغداد اهوالا اسود من قِطع الليل [1] . . ولستم في حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا وآثارهـــا السود في تشتيت الأواصر وتمزيق الصلات فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك والديلم ، وإنما كانت تَمُدُّ ضَرِيمها فتنتهب ما تشاء من سواد الناس في ارجاء العراق، وكانوا فريقين : فريقاً يشايع الديلم وفريقاً يناصر الأتراك

وفي سنة ٣٣٦ قامت الحرب بين بختيار وعضد الدولة ، وكانت لهذه الحرب نتائج دميمة في تمزيق البصرة ، فقد انضمت مُضر إلى عضد الدولة وانضمت ربيعة إلى بختيار ، ولم يكن يهمُّ ربيعة أن ينتصر بختيار ، وإنما فعلت ذلك طوعاً للاحقاد الموروثة بينها وبين مضر ، وكذلك استفحلت الثورة فاحرقت المحالُّ ، وانتُهبت البضائع ، وانتهكت الحُرمات .

وفي تلك الأزمنة العصيبة نرى اسم أبي أحمد الموسوي بين الأسماء ، ولكن في أي صف ؟ في صف بختيار لا صف عضد الدولة ، بختيار الذي عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين ، وما نقول إن أبا أحمد الموسوي امتشق الحسام في سبيل بختيار ، وإنما قبل أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة في مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لائقاً بالملوك : فقد كان صورةً دميمة من صور الشهوات .

ثم دارت الدائرة على بختيار وانتهى أمره بالقتل، وخلع الخليـــفة المطيع وتولى ابنه الطائع ، ونال عضد الدولة من الهيبة والقوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل .

وكان الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبي أحمد الموسوي لسابقة

---

(١) اعترض بعضهم على أن تجري كلمة (أسود) مجرى افعل التفضيل ، ونحن لا نلتفت إلى هذا الاعتراض ، لأن كثيراً من الشعراء تحللوا من بعض قيود أفعل التفضيل طلباً للتخفيف.

اتصاله بعدوّه الغادر بختيار ، ولكن رأيناه يعتمد عليه في بعض شؤونه حين جدّت الحرب بينه وبين المسيطرين على الأقطار الشامية ، فنفهم أن عضد الدولة يرى في أبي أحمد قوة أدبية يُحسب لها حِساب ، وتُغفر لصاحبها بعض الذنوب .

فما الذي جدّ من الامور حتى نَفضَ عضد الدولة يده من أبي أحمد وقضى على أملاكه بالمصادرة، وعلى شخصه وشخص أخيه بالقبض والاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تُفَصّلها كتب التاريخ ، وإنما فهمناها من ملامح الحروف ونحن نستخبر ما سطّر المؤرخون عن ذلك العهد ، ويكفي أن نشير إلى كلمة عضد الدولة وهو يقول لمن ساله العفو عن أبي الصابي : « أما المعفو عنه فقد شفّعناك له عن ذنب لم نعف عما دونه لأهلينا – يعني الديلم – ولا لأولاد نبينا ﷺ – يعني أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي وأخاه – ولكنا وهبنا إساءته لخدمته » .

ومن هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبي احمد الموسوي أشياء دعته إلى المبادرة باعتقاله ، ومصادرة أملاكه ليكون عبرةً لغيره من الرؤساء .

وهنا تبدأ أعوام البؤس في حياة الشريف الرضي ، ذلك الطفل الذكي النبيل الذي يواجه مكاره الحياة وهو ابن عشر سنين .

وما ظنكم بطفل يتوقّد غيرةً وحماسة ، ويُقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية ، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعجّ أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية ، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكروبين ، وغياث الملهوفين ، ويرى أساتذته يبالغون في إكرامه لأنه ابن النقيب ، ما ظنكم بطفل هذه أحواله

يمسي بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب ، ذاهل العقل، أن أباه جُرِّد من الحول والطول، وأُلقيَ به في غياهب الاعتقال .

دعوا جانباً ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية من أن شهرة المتنبي هي التي أطعمت هذا الفتى في الشعر وأنطقته بـــه وسنُّه فوق العشر بقليل، فاصدق الرأي أيها السادة، أن هذه النكبة هي التي خلقت ذلك الشاعر في يوم واحد رجلاً ينظر إلى الدنيا بعين الكهول وهو في سن الاطفال .

إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل عرير ، لانكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء ، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين ، ولكن يسهل عليكم تخيُّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضي حين نُقل أبوه منفياً إلى فارس ، حين تتصورون كيف أمسى ذلك الطفل فقيراً ذليلا بعد الغنى والعزة ، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه داراً يسكنها .

وما أظلمَ الأيامَ التي تُحوج طفلاً مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنُّع وإباء . تصوروا حال الشريف وهو يحاور أستاذه فيقول: برّ أبي فكيف أقبل برك ؟! فيجيب الاستاذ وهو يتوسل اليه : إن حقي عليك أعظم من حق أبيك !

اي والله ! إن حق الاستاذ أعظم من حق الوالد ، ولكن القسوة هي في تلك الحال ، حال الطفل الذي تروضه الأيام على أن يلقى أساتذته وهو غنيُّ الرأس ، فقير الجيب !

كانت هذه الحادثة مشئومة على الشريف الرضي وإن أحسنت في إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النبيل .

كانت مشئومة لأنها سدت عليه منافذ القول في هجـــاء عضد الدولة

وحرمته اللذة الطبيعية ، لذة التشفي بالهجاء والسّباب : لأن عضد الدولة أخرسه وأخرس جميع أهل العراق ، وسكت الطالبيون أنفسهم فلم يرتفع لهم صوت في وجه ذلك « المستبد » الذي أودعَ نقيبهم غيـــابات السجن والاعتقال !

فإن سألتم : وكيف صح ذلك؟ فإنا نجيبكم بأن عضد الدولـــة شغل الناس جميعاً بشواغل شريفة كان لها أحسن الوقع في أنفس الأعداء قبل الاصدقاء ، فقد أمر بعمارة ما هدمته الثورات من مرافق بغداد ، فأعيدت المنازل والمساجد والأسواق، وأدِرّت الارزاق على القُوّام والائمة والمؤذنين والقُرّاء ، وأقيمت الجرايات لمن يأوي إلى المساجد من الغرباء والضعفاء ، وألزم ارباب العقارات التي احترقت في ايام الفتنة بإعادتهـــا إلى احسن احوالها من العمارة والزينة ، فمن قَصّرتْ يده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميسرة ، ومن لم يُوثقْ منه بذلك أو كان غائباً أقيم عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج اليه ، فاصبحت بغداد بعد مدة يسيرة وهي أحسن مما كانت عليه من قبل .

ثم مضى عضد الدولة في تجميل شواطىء دجلة مما يساير بغداد فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل ونضيرات البساتين .

وتلفّت فرأى بغداد كانت ترويها انهار كثيرة ثم قضت عليها الثورات ــ انهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد ، تشبه القنوات التي كانت تنقل ماء النيل إلى سكان الفسطاط ــ تلفّت عضد الدولة فرأى اهل بغـــداد يشربون مياه الآبار وهي ثقيلة ، او يتكلفون حمل الماء من دجلة مـــن مسافات طويلة ، فامر بحفر الانهار القديمة ، واقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء والاطفال والضعفاء .

ونظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز علـــيه إلا المخاطر بنفسه ، لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه و تزاحُمُ الناس عليه ، فاختار له السفن الكبار المتقنة وعرّضه حتى صار كالشوارع الفسيحة وحصّنه بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس .

وامتدت نظراته الاصلاحية فشغل نفسه بالفلاحين واقام لهم قناطر الانهار وساعدهم على استنبات الأرض وإقامة البساتين : فشعر العراقيون بأنهم خُلقوا من جديد .

ولم يكْفه كل ذلك بل مضى فانشأ المستشفيات لمداواة المرضى مـــن الفقراء ورفع الجباية عن قوافل الحجيج ، وأمّن الطريق إلى الحج واقام فيه المناهل وافاض الينابيع ، وحمل الكسوة إلى الكعبة ، واطلق الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة . وهدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المشهدَين بالغري والحائر و إصلاح مقابر قريش ، فاشتركت الناس في الزيارات والمصلّيات ، وكادوا ينسون ما توارثوه من العداوات . وهدته السياسة ايضاً إلى بسط الرسوم للفقراء وللفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحـــدّثين والنسّابين والشعراء والنحويين والعروضيين والأطباء والمنجمين والمهندسين .

...

تلكم ايها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة في مدينة بغداد وارجاء العراق .

فماذا يصنع الشريف لو فكر في هجاء رجل مثل هذا الداهية !

ماذا يصنع وقد تطوع اهل بغداد انفسهم لخلق الأساطير والأقاصيص في الاشادة بأعمال هذا المصلح العظيم .

ماذا يصنع والالسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة وتراه اشرف مَن شهدتْ بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء .

ماذا يصنع في هجاء ملك « حمى البلاد من كل مفسد، وحفظ الطرق من كل عائث، وهابه الحواضر والبوادي [1] » .

لقد نسي الناس ابا احمد الموسوي و نسُوا اخاه ، فليظلّا في غياهب الاعتقال، وليشرب الشريف الرضي كؤوس الصاب والعلقم إن شاء .

و لكن عضد الدولة سيموت كسائر الاحياء ، وقد مات في الثامن من شوال سنة ٣٧٢ ، فماذا يصنع الشريف الرضي وقد وصل اليه هذا النبأ « السعيد » .

كان في ذلك العهد شاباً مراهقاً يجاوز الثلاث عشرة بقليل ، ولكنه كان يفهم ان موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه ، لانه كان يرى الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد ، وكان يدرك ان ابناء عضد الدولة سيجرون على سنة ابيهم في معاملة من كان يعادي او يصادق من الرجال .

فلم يبق إلا ان يخاطب اباه بهذه الابيات :

أبلغـــا عنيَ الحسين أُلوكاً [2] ان ذا الطود بعد عهدك ساخا [3]
والشّهاب الذي اصطليتَ لظاهُ عكست ضوءه الخطوب فباخا [4]
والفَنيق الذي تدرّع طول الأر ض خوّى به الردى فأناخـــا [5]

---

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الامم ج ٣ ص ٣٧

(٢) الالوك : الرسالة ، ومثلها المألكة .

(٣) الطود : الجبل . وساخ : انخسف (٤) باخ : برد

(٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على اهله ولا يركب . وخوى : سقط به .

إن تَرِدِ مورد القذى وهو راضٍ فبما يكْرَعُ الزلال النقاخا [1]
والعُقاب الشّغواء اهبطها النّيـ ق وقد ارعت النجوم سماخا [2]
اعجلتها المنون عنا ولكن خلّفت في ديارنا افراخا
وعلى ذلك الزمانُ بهم عا دَ غلاماً من بعدما كان شاخا

هذا كل ما استطاع الشريف ان يقوله يوم مات عضد الدولة ، فهو يراه فَنيقاً هلك ، وشِهاباً هوى ، وجبلاً ساخ ، ولكنه يتخوف العواقب : لان تلك العُقاب تركت افراخاً من الجوارح عاد بها الزمان غلاماً بعد ان كان اكتهل وشاب .

والواقع ان الشريف الرضي عجز عن اعلان الشماتة بالقصائد الطوال ، لأن موت عضد الدولة احاطت به قوتان : قوة الرأي العام ، وقوة ابنه صمصام الدولة .

اما قوة الرأي العام فتمثّلها الكلمات التي قالها اقطاب البيان في ذلك الحين وقد سجلها التوحيدي فقال : لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند ابي سليمان السجستاني ، وكان القومسي حاضراً والنوشجاني وابو القاسم غلام زحل وابن المقداد والعروضي والاندلسي والصيمري فتذاكروا الكلمات العشر المشهورة التي قالها الحكماء العشرة عند وفاة الاسكندر . فقال الاندلسي : لو تفوّه بجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يُؤثَر عنكم.

فقال ابو سليمان : ما احسنَ ما بعثتَ عليه . اما انا فاقول : لقد وَزَن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، واعطاها فوق قيمتها ، وحسبك انه

---

(١) يكرع : يعب . والنقاخ على وزن غراب : الماء البارد العذب الصافي .

(٢) العقاب بالضم طائر من الجوارح . والشغواء : المختلفة نبت الاسنان بالطول والقصر والدخول والخروج ، وهي تطلق على العقاب . والنيق بالكسر ارفع موضع في الجبل . والسماخ : الارتفاع .

طلب الربح فيها فخسر روحه .

وقال الصيمري : من استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلَم بها فهذا انتباهه

وقال النوشجاني : ما رأيت غافلاً في غفلته ولا عاقلاً في عقله مثله ، لقد كان يَنقُض جانباً وهو يظن أنه مُبرِم ، ويَغرَم وهو يظن أنه غانم .

وقال العروضي : أمَا إنه لو كان معتبراً في حياته، لما صار عبرة في مماته،

وقال الأندلسي : الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال .

وقال القومسي : من جدّ للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغباً عنها جدّت له ، انظر إلى هذا كيف انتهى أمره ، وإلى أي حضيض وقع شانه، وإني لا أظن ان الرجل الزاهد الذي مات بالشونيزية أخفُّ ظهراً وأعزُّ ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحة .

وقال غلام زحل : ما ترك هذا الشخص استظهاراً بحسن نظره وقوته ، ولكن غلبه ما منه كان ، وبمعونته بان .

وقال ابن المقداد : إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحاً زعزعتْ هذا الركن لَعَصُوف[1]

وهذه الكلمات ـ وإن كان ظاهرها الشماتة ـ تمثل قوة الرأي العام أصدق تمثيل ، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيهاً بالاسكندر الذي دوّخ

---

(١) الكلمات هنالم تبلغ العشر ، وهي كاملة في ابن الأثير ج٩ ص ٨ ومنها « كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ، وهلا اتخذت دونه جنة تقيك ؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين ، وإنك لاية للمستبصرين »

ويقول ابن الاثير إن عضد الدولة كان له شعر حسن ، وإنه قال حين أرسل اليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر عن مساعدته بختيار ويطلب الأمان :

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه ... يبغي الأمان وكان يبغي صارما

فلاركبن عزيمة عضدية ... تاجية تدع الانوف رواغما

ممالك الأرض ، وطِئتْ حوافر خيله أمنع البقاع في أرباض الشرق.

ومع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين ونصف فقـــد استطاع أن يملك قلوب العراقيين ، وأن يشغلهم بالعلم والحضارة ، وأن يُنسيهم ما صنعتْ عواصف السنين بالأنفس والاموال .

أما القوة الثانية التي صدمت الشريف الرضي وحرمته لذة التشفي بموت عضد الدولة فهي قوة صمصام الدولة . وكان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأي في بداية أمره ، فقد أخفى على الناس موت أبـــيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الامور ، ، فلما تمّ له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه وأعلن في الوقت نفسه إلغاء الضرائب التي كان فرضها أبوه ، وهي ضرائب كان يضجّ منها الناس في السرّ ، ويتهيبون التضجر منها في العلانية .

وكذلك رأى الشريف الرضي أن الدنيا بالنسبة اليه انتقلت من قُبح إلى قُبح ، وأن سجن أبيه سيطول ، فاخفى ضغائن قلبه ، وأقبل عـــلى شؤونه العاديّة وهو كاسف البال حزين .

ولكن وقع بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان : فقد كان لعضد الدولة ابنٌ آخر هو شرف الدولة ، وكان لهذا الإبن رجلٌ من الخواص يقيم في بغداد ، فلما وصلت اليه الاخبار السرية بأن عضد الدولة مات وأن صمصام الدولة يُخفي موته بادر ذلك الرجل وكتب إلى شرف الدولة بموت أبيه . وكان شرف الدولة يقيم بكِرمان ، فكتم أمره وسار إلى فارس ، ثم أعلن موت أبيه وجلس للعزاء وأخذ البيعة على أوليائه وأطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء .

وعلى هذه الصورة ظهرت في دنيا السياسة لذلك العهد قوتان : قوة

شرف الدولة في فارس وقوة صمصام الدولة في العراق .

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان في الاغلب يعادي من عادي ويصادق من صادق ، وأما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد ، وكان في بواكير ما صنع الإفراج عن أبي أحمد الموسوي وأخيه أبي عبد الله وجماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقـــال ، وضعفت في خلاصهم الآمال ، وكما تطرق النوائب من حيث لا يُحتسب ، فقد يأتي الفرج من حيث لا يُرتقب [1]) .

وهنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضي اندفع يهدر بالشعر فرحاً بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال ، ثم تأخذ منكم الدهشة كل مأخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه في صدره وسكت عن هذه القضية زمناً غير قليل .

فما سبب ذلك السكوت البليغ ؟

سبب ذلك ، أيها السادة ، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شيء فكان يرى الإفراج عن أبي أحمد الموسوي ضرباً من العقوق لعضد الدولة الذي اعتقله وصادر أملاكه ، وكان عضد الدولة أساس الميراث للاخوين المسيطرين في فارس والعراق ، ولا بدّ أن يكون الشريف الرضي قد خشي أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سبباً من أسباب الوحشة بين أسرته وبين صمصام الدولة القابض على العراق ، وكذلك كتم سروره بنجاة أبيه وأخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان .

وفي خلال تلك السنين كانت الجفوةُ متصلةً بين شرف الدولة وصمصام الدولة ، ثم بلغ الشر أشده في سنة ٣٧٦ فأغار شرف الدولة على أطايب مـا

---

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الامم ج ٣ ص ٨١

يملك صمصام الدولة ، وهاجت بينهما الحرب ، فانتصر شرف الدولة وقبض على أخيه ودخل بغداد دخول الفاتحين .

وباندحار صمصام الدولة صار من حق أبي أحمد الموسوي أن يعود إلى بغداد ، ويرى ابنه المحبوب الذي نظم من القصائد في التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبرُّ الأبناء في أكرم الآباء .

...

أيها السادة :

أترونني اضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ ؟

لقد اقذيتُ عينيَّ تحت المصباح ليـــاليَ كثيرة لاراجع حوادث تلك السنين واستخلص منها هذه الصفحات ، وما اظنني ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون ، فقد دوَّنوا ما دوَّنوا وفهمتُ مـــا فهمت ، ولكل باحث اسلوب .

ولا يعنيني إلا ان اصل بكم إلى تعرُّف نفسية الشريف التي صبغتـها اعوام البؤس بالدم النجيع ، لا يعنيني إلا ان تعرفوا كيف صح لذلـــك الرجل ان ينظم عشرات القصائد في مدح أبيه . وتلك خصلة لا نجدها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء .

إن الأدب ، ايها السادة ، لا يستطيع ان يستقل عن التاريخ ، وكيف وهو من صور التاريخ ؟

وقد استطعنا بهذه الجولة السريعة ان نعرف الوان الأيام التي تفتحت فيها عبقرية الشريف الرضي ، وفهمنا كيف كان يرى الدنيا باعين الكهول وهو في نضرة الشباب . فلنسجل مع ذلك ان الشريف افاد مـــن اعوام البؤس نعمة باقية ، فقد احب اباه حباً لم يسمع بمثله الناس ، وصار يتلهف

عليه تلهفاً موجعاً ، وينظم فيه اشعاراً لها رنينُ الاسجاع، اسجاع الحمائم الباكية في إثر الأليف المفقود .

وما كان اعتقال والد الشريف إلا نكبة حلّت بذلك البيت :

فقد ذهبت دنيا اولئك الناس مرةً واحدة ، إذ سُجن سيد البيت ، ثم صودرت الأملاك ، و تتابعت الرزايا على صورة تُنبت الشجَى في اقسى القلوب .

وزاد في تلك المأساة انها صادفت فتًى رقيق الحس ، مُرهَف القلب ، شاعر الروح ، فصيّرته وتراً حنّاناً يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين .

وضاعف من نكد تلك البلية أن ذلك الفتى كان يرى الكفر اهون من المكسب الخسيس : فساقه التصون إلى الضنك ، ولم يبق امامه وامام اخيه غير التصرف فيما كانت تملك امهما الرؤوم ، وقد قسا الدهر وعَنُفَ فاضطرّ تلك السيدة إلى بيع املاكها وحُليّها لتضمن لولديها العزيزين عيش الكفاف إلى أن يمن الله على زوجها بالخلاص .

...

ايها السادة :

لم أرد ان أطيع القلم وانا اكتب هذه المحاضرة فاغزو قلوبكم بالحزن على رجل صار في ذمة التاريخ ، ويكفي ان تعرفوا ان صاحبنا لم يقل الشعر الجيّد وهو ابن عشر سنين إلا لأن الزمن رماه في طفولته بما يمنح الأطفالَ عقولَ الكهول ، وسترون في الليالي المقبلة انه بدأ يشكو الشيب وهو في سن العشرين « وشيب الرأس من شيب الفؤاد » .

...

والآن نواجه اشعار الشريف في مدح ابيه فنقول :

إن الشريف مدح اباه باكثر من اربعين قصيدة. واشعاره في مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف: الطائفة الاولى في التوجع لأبيه وهو سجين، والطائفة الثانية في تهنئة ابيه بالخلاص ورد أملاكه اليه، والطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعدان لان الزمان. ولكل طائفة من هـــذه الاشعار خصائص: فالطائفة الاولى تصور الحزن والجزع والتفجع، والثانية يغلب عليها الابتسام ولكنها تفيض بالسُّم الزُّعاف في الثورة على الناس، والثالثة تخلع على ابيه رداء الملوك: فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك.

وقبل ان ندخل في تحليل هذه القصائد نوجه انظاركم إلى شرح الظاهرة الادبية التي تجدونها في ديوان الشريف الرضي، فأنتم تذكرون ان جامع الديوان يسمي قصائده القديمة «قواذف» ويذكر في اغلب الاحيان ان الشريف حذف من تلك «القواذف» اشياء.

وتعليل هذه الظاهرة لا يصعب على من يتذكر الظروف السياسية التي فصلناها في صدر هذه المحاضرة، فتلك «القواذف» كانت بالتأكيد تمسُّ بني بويه، ثم هُذِّبت طلباً للسلامة من شر أولئك الملوك.

وينبغي ايضاً ان ننص على خصائص الاشعار التي نظمها الشريف بين ٣٦٩ و ٣٧٦ فهذه القصائد كان يغلب عليها التبرم والضجر والاكتئاب، وقد حوّلته الحوادث إلى رجل وَدُود يعطف على مصائب الناس، لا سيما المنكوبين بقسوة الملوك.

ومن شواهد ذلك قصيدته الهمزية إلى صديق حلَّتْ به نكبة، ولم يذكر جامع الديوان ما هي تلك النكبة، ولكننا نفهم انها نكبة سياسية، إذ نراه يقول:

خطوبٌ لا يقاومها البقاء واحوالٌ يَدِبُّ لها الضَّراء[1]
ودهرٌ لا يصحُّ بهِ سقيمٌ وكيف يصح والأيام داء
وأملاكٌ يرون القتل غُنماً وفي الأموال لو قنعوا فداء[2]
همُ استولوا على النجباء منا كما استولى على العود اللّحاء[3]
مُقامٌ لا يجاذبهُ رحيلٌ وليل لا يجاوره ضياءُ
سيقطعك[4] المثقف ما تمنّى[5] ويعطيك المهنّد ما تشاء
بلونا ما تجيءُ بـه الليالي فلا صبحٌ يدوم ولا مَساءُ

وهي قصيدة كثيرة الفنون ، نقف منها عند قوله في تعزية ذلك المنكوب .

وما حَبَسْتك منقصةٌ ولكنْ كريمُ الزادِ يُحرزه الوعاء
فلا تحزَنْ على الأيام فينا إذا غدرتْ وشيمتنا الوفاء
فإن السيف يحبسه نجادٌ ويطلقه على القيمم المضاء

وهو بهذه الابيات يمدح السجن، او يتكلف مدح السجن ، لأن أباه مسجون .

وفي تلك المدة تدلنا اشعار الشريف على ان ناساً كانوا اجترأوا على شتمه وتجريحه ، فكان يتجمّل ويتحلم صوناً لنفسه عن التسلح بالسباب ، كان يقول :

ما يطلب الدهرُ والأيام من رجلٍ يعوذُ بالحمد إشفاقاً على النعم
إذا اقتضتْه الأماني بعض موعدِه غطّى بسِتر العطايا عَورة العُدُم[6]

(١) الضراء بالفتح : الاستخفاء (٢) الأملاك : الملوك (٣) اللحاء : القشر

(٤) من الاقطاع وهو الاعطاء . والمثقف : الرمح

(٥) تمني : تتمنى بحذف إحدى التاءين للتخفيف (٦) العدم بضم العين وهو الفقر

من مَدَّ مِعصمه مستعصماً بيدي   عصمته باخاءٍ غير منجذم
ومن أشيّعه يامن مــن لواغهِ   ولو رَمَوه بجرّاح مــن الكلم
ولوهتكت حجاب الغيب لافتضحت   أجفان كل مُريب اللحظ متهم
كفى الذي سبني أني صبرتُ لهُ   فاستنصر العذرَ واستحيا من الجُرمُ
بُردى عفيفٌ إذا غيري لفجْرته   كانت مناسح بُردَيه على التهم
إذا العدوُّ عصاني خاف حدَّ يدي   وعرضه آمنٌ من هاجرات فمي[1]
جعلت سمعي على قول الخنا حرَماً   فايُّ فاحشةٍ تدنو الى حرم

وما نحب ان نطيل في سرد الشواهد، فهي كثيرة في الديوان، ويكفي أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، وإن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح وهو يقول في مخاطبة الصاحب اسماعيل بن عباد:

فتًى سنُّهُ عن خمسَ عشرةَ حِجةً   تربّي له فضلاً ومجداً ومحتِدا
فتيُّ الصبا كهلُ الفضائل ..   إلى العمر إلا احتلَّ في الفضل مَقعدا
تفرَّد لا يُفشي إلى غــير نفسهِ   حديثاً ولا يدعو من الناس مُنجِدا
ولا طالباً مــن دهره فوق قُوتــهِ   كفاني من الغُدران ما نَقع الصَّدى
ساحمَدُ عيشاً صان وجهي بمائهِ   وإن كان ما أعطى قليلاً مُصرَّدا
وقالوا لقاءُ الناس أنسٌ وراحةٌ   ولو كنت أرضى الناس ما كنت مُفرَدا

ونعود فنذكر ان اول قصيدة قالها الشريف في التوجع لأبيه هي الدالية:

نُصافي المعالي والزمانُ معاندُ   وننهض بالآمال والجدُّ قاعدُ

وقد نظمها وسنّه فوق العشر بقليل، نظْمها وهو في لفح العبـــارة القاسية التي فاه بها المطهر بن المطهر بن عبدالله وزير عضد الدولة حين اعتُقل والد الشريف فقد قال: إلى كم تُدِلُّ علينا بالعظام النَّخرة!

---

(١) المعنى أن العدو يخاف سيفه . ولكنه لا يخاف لسانه لأنه لا يصون لسانه عن الاغتياب.

وكان المنتظر أن تكون هذه القصيدة ضعيفة لانها من نسج شاعر طفل ولكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، وأضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هذه القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً، فهو فيها طويل النفَس، وقد عرّض فيها بالخليفة العباسي ولوّح له بعظمة الفاطميين في مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات، وانظروا كيف يقول:

وطاغٍ يُعير البغيَ غَرْبَ لسانهِ ... وليس له عن جانب الحق ذائدُ
شننت عليه الحق حتى رددته ... صموتاً وفي أنيابه القول راقدُ
يُدلُّ بغير الله عضداً وناصراً ... وناصرك الرحمن والجد عاضدا
يُعيّر ربَّ الخير بالي عظامهِ ... ألا نُزّهتْ تلك العظام البوائد
ولكنْ رأى سبَّ النبيِّ غنيمةً ... وما حوله إلا مُريبٌ وجاحد
ولو كان بين الفاطميين رفرتْ ... عليه العوالي والظبا والسواعد

وفي هذه القصيدة تحدّث الشريف عن سجن أبيه وعمه حديث الحكماء.

وهناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المُنى نُهزة الثائرِ ... وسهمَ العُلا في يد القامرِ

وقصيدة:

أما ذُعِرت بنا بَقَر الخدورِ ... وغزلان المنازل والقصورِ

وقصيدة:

بلاءُ القلب ناظرُهُ ... وأنجى الناس كاسرُهُ

وقصيدة:

شيمي لحاظكِ عنا ظبية الخَمَر [1] ... ليس الصِّبا اليوم من شاني ولا وَطَري

---

(١) الخمر بالتحريك ما دارك من شجر وغيره

وقصيدة:

لا ترقُـــدنَّ على الأذى واعزم كما عزم ابن موسى

وقصيدة:

وَفى بمواعيد الخليط وأخلفوا وكم وعدوا القلب المُعَنَّى ولم يَفُوا

وقصيدة:

بيني وبـــين الصوارم الِهمَمُ لا ساعدٌ في الوغى ولا قَدَمُ

وقصيدة:

بمجال عزمي يُملا الملوان وتضل فيه بوائق الأزمانِ

وقصيدة :

من لي برَعْبَلَةٍ من البُزلِ تَرمي إليك معاقد الرحلِ (١)

فهذه القصائد التسع بلا تاريخ، ولكن الذي يتذكر ما شرحناه آنفاً يستطيع ان يعرف تواريخها بلا عناء ، فليجعلها تلاميذنا في دار المعلمين العالية مجالاً للدرس والتحقيق .

ثم ننظر فنراه نظم ثلاث قصائد سنة ٣٧٤ ، الأولى قصيدة :

إذا احتَبَى بالعُشُب الوادي وانحلَّ فيه الواكف الغادي

والثانية قصيدة :

بغير شفيعٍ نال عفوَ المقادِرِ أخو الجد لا مستنصراً بالمعادر

والثالثة نظمها بعد ان سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تَدْمر، كذلك يقول جامع الديوان، ولا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذي يسمح له بالاجتماع مع أبيه في بلاد فارس؟

---

(١) الرعبلة : الناقة الرعناء ، ولا تكون كذلك إلا لفرط النشاط ، والبزل جمع بازل وهو الذي بلغ تسع سنين .

ولكن لا باس من الموافقة على انه استطاع ان يرى أباه في ذلك العهد، فنحن في سنة ٣٧٤ وكان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه في العراق. وفي هذه القصيدة يظهر شيء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

وماءٍ تشيه الريحُ كلَّ عشيةٍ كما رَقَمَ البُردَ الصَّبيغ يماني
مررتُ بغزلانٍ على جَنباتـــه فاطلقن دمعي واحتبلْنَ جَناني [1]
وعاجلني لوم [2] الرفيقين في الهوى عشيةَ مالي بالفراق يدان
يقولان أحياناً بقلبك نشوةٌ وما علما أن الفراق سقاني
وكم غادَرَ البينِ المفرِّقُ من فتًى يمسِّح قلباً دائم الخفقان
وما الحبُّ إلا فرقةٌ بعد ألفةٍ وإلا حِذارٌ بعد طول أمان

وفي هذه القصيدة يعرِّض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، ويذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضي إلى مدح أبيه فيقول:

وأبيض من عُليا مَعَدٍّ كأنما تلاقى على عِرنينه القمران [3]
إذا رمت طعناً [4] بالقريض حميتُه وإن رمت طعناً بالرماح حماني
يجودُ إذا ضنَّ الجبان بنفسهِ ويمضي إذا ما زلَّت القدمان
بصير بتصريف الاعنة إن سرى ليوم نزال أو ليوم رهان
ترامى به الأيامُ وهو مصممٌ كما يرتمي بالماتح الرجوان [5]
إذا ما احتبى يوم الخصام كأنما يحدثنا عن يَذْبُلٍ وأبان [6]
أبا أحمدٍ أنت الشجاع وإنما نجرُّ العوالي عرضةً لطعـــان
ولما غوى الغاوون فيك وفُرِّجتْ ضلوعٌ على الغِل القديم حواني

---

(١) في الديوان (اختبلن) بالخاء المعجمة وهو تحريف .
(٢) في الديوان (يوم) والصواب ما ابتثناه .
(٣) العرنين بالكسر هو الانف (٤) أحب أن أقرأ : « إذا رام طعناً »
(٥) الرجوان : مثني الرجا وهو ناحية البئر (٦) يذبل وأبان : جبلان

نجوتَ من الغمّاء وهي قريبةٌ   نجاء الثريا من يد الدّبَرانِ
وغيرك غَضٌّ الذُّل من نَجواتِهِ   وطامنَ للأيام شخص مُهـــان
وحال الأذى بين المراد وبينهُ   كما حِيل بين العَيْر والنّزَوان
وكان كفحل البيت يطمح رأسه   فالقى على حكم الردى بِجِران[1]

وهذا تعريضٌ جارحٌ برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضدالدولة فلم يثبتوا على الباساء ، وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبم السياسية وقد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد ، ولكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين ، وأول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوي ، وكان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك، وقد اعتُقِل مع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في خزائنه من الذهب مليون دينار، وهو أضخم مبلغ للثروة الفردية في ذلك الحين ، وهذا الرجل سكت عنه الشريف الرضي حين توّجع لأبيه وعمه فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مـــع عضد الدولة لينعم بالخلاص :

ذلك ظنٌّ من الظنون لا يقوم عليه دليل ، ويكفي أن نسجل أن ذلك الرجل كان له في تلك العهود مكان مرموق، وأن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض[2] .

...

وفي سنة ٣٧٥ نظم الشريف ثلاث قصائد ، الاولى قصيدة :

يا دار ما طربتْ إليك النوقُ   إلا وربعُك شائقٌ ومشوقُ

وهي من روائع المدائح .

---

(١) الجران بالكسر : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره

(٢) ظهر لنا أن الفرض صحيح ، وسنثبت الشاهد الذي يؤيده في ذيل الكتاب .

والثانية قصيدة :

وَقْفٌ على العَبَرات هذا الناظرُ   وكفاه سُقمًا أنه بك ساهرُ

وهي من طلائع الفرح ، لأنه نظمها وقد توجّه أبوه من فارس في صحبة شرف الدولة ، وهي قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأهـا بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال :

أغضيت عن وجه الحبيب تكرماً   وأريته أن الجفون كواسرُ
هبْ لي وحسبي نظرةً أرنو بها   فمقرها وجه الحسين الزاهرُ
فَلَثَمْ أبلجُ إن أهلّ جبينهُ   جمحت إليه خواطرٌ ونواظر
قَرُبَ الغمامُ فمن قريبٍ ينثني   فيبلُّ مربعك العريض الماطر

والثالثة قصيدة :

من الظلم أن نتعاطى الخُمارا[1]   وقد سلبتنا الهمومُ العُقارا

وقد نظمها حين وصل أبوه وعمه إلى شيراز ، وفيها يقول في تعزيتهما عن ضياع الأملاك :

إذا سالَـمَ الدهر نفسيكما   فلا حارَبَ الدهر إلا اليسارا
أصابتكما نكبةٌ فانجلت   وعاودتما العزّ إلا الديارا
ودهرٌ يَرُدُّ علينا العَلا   ء أجدِرْ به أن يَرُدَّ الغُفارا[2]
ألم تَريا من رَمته الخطوب   يميناً تُنازِعه أو يسارا
لئن جُلتما في مَكَرّ الزمان   فبوّأكما من مَداه العِثارا
فما يَقرَع الدهر إلا الحليم   ولا ينكث الخرق إلا الوقارا
تَفرّق مالُكما في العدا   وشخصُكما واحدٌ لا يُبارى

وهناك قصيدة غير مؤرّخة نظمها الشاعر وأنفذهـا إلى أبيه قبل

---

(١) الخمار بالضم : صداع الخمر . (٢) الغفار بالضم : يراد به المال .

دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه ، فهو كان يعرف معنى التحية تحية الراجع إلى وطنه وهو في الطريق ، كما نُرسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على مُتون البواخر ، وهذه القصيدة ليست من الطوال ، ولكنها على قِصرها تصوّر شوقه إلى أبيه ، شوق الطفل المضيّع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه وهو نَبتٌ ضعيف ويشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول في آخر القصيدة :

لما ذكرتك عاد قلبي شوقُهُ	فبكين عنه مدامعُ الأقلام (١)
خلّفتني زرعاً فطُلت وإنما	ذاك الغِرار نمى إلى الصّمصام (٢)
أكَدْت على الأرض من أطرافها	وتدرّعت بدارع الإظلام (٣)
وعهدتها خضراء كيف لقيتها	أبصرت فيها مسرحاً لِسَوامي
أشكو وأكتمُ بعض ما أنا واجدٌ	فاعاف أن أشكو من الإعدام (٤)

ثم يطلُع البدر بعد طول الاحتجاب، ويرى الفتى أباه في بغداد سنة ٣٧٦ ولكن كيف رآه ؟ رآه شاحب اللون ، هزيل الجسم ، قد نالت منه ظُلمات الاعتقال ، فيتمثله في حالين : حال البؤس ، وحال النعيم ، وتزيده أخيلة الماضي المحزن تعلقاً بذلك الشيخ الجليل الذي يعود إلى وطنه عَود الجراز المفلول .

ولا يعلم إلا الله كيف خَفَق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه ، فقد كان لا يزال طفلا ، وكانت المعاني السُّود والبيض تلذع قلبه لذعـــاً عنيفاً ، والعواطفُ العاصفةُ لا يعرفها غير الأطفال .

---

(١) جمع الشريف بين نون النسوة وبين الفاعل ، وهذا يقع أحيانا في شعره ومنه أيضاً قوله:

فما تعني القوادم من جناح   تحامل إن قمدن به الخوافي

(٢) الغرار بكسر الغين حد السيف   (٣) أكدت الارض غلظت وصلبت

(٤) الاعدام : الفقر

ولكن قصيدته في استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش في صدره من المعاني ، ولننظر كيف يقول :

طلوعُ هَداه إليـــنا المغيب ... ويومٌ تُمزِّق عنه الخطوب
لقيتك في صدره شاحبـــاً ... ومن حِلية العربيّ الشُّحوب
إليه تمجُّ النفوس الصدور ... وفيه تهنّي العيون القلوب
تعزَّيتَ مستانساً بالعبـــاد ... والليث في كل أرض غريب [1]
وأحرزت صبرك للنائبات ... وللداء يوماً يراد الطبيب
لحـــا الله يوماً أرانا الديا ... رَ يندب فيها البعيد القريب
وما كان موتاً ولكنه ... فراقٌ تُشقّ عليه الجيوبُ
لئن كنت لم تسترب بالزمان ... فقد كان من فعله ما يريب
رمَى بك والأمر ذاوي النبات ... فآل وغصنُ المعالي رطيب
ولما جذبت زمام الزمان ... أطاع ولكن عصاك الحبيب
ولما استطال عليك الزمام ... وذلل فيك المطيّ اللغوب
رجوت البعاد على أنـــه ... كفيل طلوع البدور الغرُوب
رحلت وفي كل جفنٍ دمٌ ... عليك وفي كل قلب وجيب
ولا نُطقَ إلا ومن دونه ... عَزاءٌ يَغورُ ودمعٌ ربيب
وأنت تعللنا بالإياب ... والصبرُ مرتحِلٌ لا يؤوب
وسرَّ العدا فيك نقص العقول ... وأعلم أن لا يسر اللبيب
أما عَلم الحاسد المستغِرُّ ... أن الزمان عليه رقيب
قدِمتَ قدوم رقاق السحاب ... تخطر والربعُ ربعٌ جديب
فما ضحك الدهر إلا إليـــ ... ـك مذبان في حاجبيه القطوب

---

(١) الشطر الثاني يجر مجرى الامثال

إلى أن يقول:

لحياك مني عند اللقـــاء خَلقٌ عجيبٌ وخُلقٌ أديب [1]
وخلفتني غرس مستثمرٍ فطال وأورق ذاك القضيب
ذخرت لك الغرر السائرات يعبِّر عنهـــا الفؤاد الكئيب
تصون مناقبك الشاردات أن تتخطى إليها العيوب
وإني لأرجوك في النائبات إذا جاءني الأمل المستثيب

وفي تلك السنة يظهر لون جديد في شعر الشريف: هو مدح بني بويه، وكان من قبل لا يمدح غير الخلفاء. لقد كان ذلك الفتى يبغض بني بويـــه بغضاً شديداً. ولكن ذلك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذي أنقذ أباه من الاعتقال.

وكذلك نراه ينظم قصيدة جيدة في مدح ذلك الملك، ولكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هذا أبي والذي أرجو النجاح به أدعوه منك طليق الهم والجذلِ
لولا ما انفسحتْ في العيش همته ولا أقرَّ عيون الخيل والخول
حطِطته من ذرَى صمَّاء شاهقةٍ مرَّ الزمان عليها غير محتفِلِ
تلعاء عالـــية الأرداف تحسبها رشاء عادية مستحصَد الطِّوَل [2]
تلقى ذوائبـــها في الجوِّ ذاهبةً يلفُّها البرق بالأطواد والقُلل [3]
وأنت طوقته بالمنِّ جامعةً [4] قامت عليه مقام الحَلى والحُلل
أوسعته فرأى الآمال واسعةً وكلٌّ ساكن ضيقٍ واسع الأمل

---

(١) الخلق الاول بفتح الخاء والثاني بضمها ، يريد أن جسمه نما وعقله اكتمل وكان أبوه تركه طفلا

(٢) تلعاء : عالية ، والرشاء الحبل والمستحصد المتين

(٣) القلل : جمع قلة بالضم وهي القمة (٤) الجامعة : الطوق

جذبت من لَهوات الموتِ مُهجتَه وكان يَطرف في الدنيا على وَجل[1]
وما كان حُساماً أغمدته يدٌ ثم انتضته اليد الاخرى على عجل
فاقذف به ثُغَر الأهوال منصلتا واستنصر الليث إن الحِيس للوَعل[2]
ولا تطيعنَّ فيه قول حاسدِه إن العليل ليرمي الناس بالعلل
أولى بتكرمةٍ من كان يحمدها والحمد يقطع بين الجود والبخل
كفاك منظرهُ إيضاح مخبرِهِ في حُمرة الخد ما يُغني عن الخجل
تحمّل الشرف العالي وكم شرفٍ غطّى عليه رداء العيّ والخطل

...

أيها السادة :

لقد زَفّت سنة ٣٧٦ أعظم بشرى إلى الشريف ، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه في بغداد ، ولكن هناك بشرى ثانية ، فما هي تلك البشرى ؟ أهي ردُّ الاملاك التي صودرتْ بعدِ الاعتقال ؟ هيهات ، فلن تُرَدَّ الاملاك إلا بعد سنين ، فما هي تلك البشرى إذن؟

هي موت المطهر بن عبدالله وزير عضد الدولة ، وقد شَمِت الشريف في موت ذلك الوزير الذي اعتقل أباه وعيّره الإدلال بالعِظام النَّخِرات ، عظام أهل البيت .

وأعيذكم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة في ميت ، فللشريف عذره وهو أنه لا يزال فتى غض تبصّره الايام بمقامات الكلام ، وموقفنا في هذه المحاضرات موقف المؤرخ للافكار الادبية ، فلا باس من الاشارة إلى هذا الحادث الذي كنا نتمنى أن لا تزلّ فيه قدم الشريف .

---

(١) اللهوات : جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق .

(٢) الثغر : جمع ثغرة بالضم وهي الفتحة ، والمتصلت . السيف الصقيل . والحيس بالكسر موضع الاسد ، والوعل تيس الجبل .

ولكن من الذي يوجب احترام عِظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت ؟ هي غلطة بغلطة ، وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، وليس الشريف من المعصومين .

وفي الحق أني أنكرت تلك الشماتة ، ولو كنت رأيت الشريف الرضي لرجوته تمزيق هذه القصيدة ! ومن يدري فلعلي لو كنت مكانه لوقعت في أقبحَ مما وقع فيه ، وهل للشعراء عقول ؟

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه ، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال :

وجبانٍ لويت عنه فامسى	وَجِلَ العين من قراع الرقاد[1]
مستطيراً كان أهداب جفنيـ	ـه على الناظرَين شوك القتاد
لا أقال الإله من خانك العهـ	ـدَ وجازاك بغضةً بالوداد
ظن بالعجز أن حبسكَ ذلٌّ	والمواضي تُصان بالإغماد
قصر الدهر من ذراه وقد كا	ن بتلك الظُّبا طويل النجاد
وأذلّ الزمان بعدك عِطفيـ	ـهِ وقد كان من أعز العباد
كنت ليثاً وكان ذئباً ولكن	لا تلذُّ الأشكال بالأضداد
وتمادى بما جـــناه على الأيا	م حتى جنى عليه التمادي
سمحت كفه به للمنايا	بعد أن لم يكن من الأحواد
ظن أن المدى يطول وفي الآ	مال مالا يعان بالأجداد[2]
هكذا تدرك النفوس من الاعـ	ـداء بَرْدَ القلوب والأكباد
كل حبسٍ يهون عند الليالي	بعد حبس الارواح في الاجساد

---

(١) القراع بالكسر مصدر قارعه مقارعة إذا قاتله .

(٢) الأجداد : جمع جد بالفتح وهو الحظ .

وتداركتَ ما تمنيتَ والاحـ ... شاءُ مزورة على الاحقـــاد

نلت بعضاً وسوف تدرك كلاً ... إنما السيل بعد قطر العهاد [1]

ايها السادة :

في هذا البيت الاخير ترون الشريف يصرّح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شيء ، وهذا حق ، فقد ضاعت من أبي أحمد الموسوي أشياء ، ضاعت منه الاعمال الرسمية وكانت مـــن أعظم مظاهر التشريف ، وهي نقابة الطالبيين ، وإمارة الحج ، والنظر في المظالم ، وضاعت منه الموارد الاساسية للرزق ، وهي الاملاك التي صودرت وحُرم منها أطفاله منذ سنين

أما الاعمال الرسمية فلم تعد اليه بعودته إلى بغداد ، وإنمـــا طاولتها الظروف فلم تعد إلا في سنة ٣٨٠ ، وكان لرجوع تلك المنـــاصب إلى أبي أحمد الموسوي نشوة طرب رقصت لها أخيلة الشعر في خواطر الشريف الرضي فاندفع يقول :

أنظر إلى الايام كيف تعودُ ... وإلى المعالي الغرُّ كيف تزيد

وإلى الزمان نبا وعاود عطفه ... فارتاح ظمآنٌ وأورق عود

نِعَمٌ طلعن على العدو بغيظهِ ... فتركنه حَمِر الجنان يميد [2]

قد عاود الايامَ مـاءُ شبابها ... فالعيشُ غضٌّ والليالي غِيد

إقبالُ عزٍ كالأسِنَّةِ مُقبلٌ ... يمضي وَجدٌّ في العلاء جديد

وُعلاً لأبلجَ من ذؤابة هاشمٍ ... يثني عليه السؤدد المعقود

قد فات مطلوباً وأدرك طالباً ... ومقارعوه على الامور قُعود

خسأت عيونهمُ وقد طمحت له ... عُدَدٌ عِراض في العلا وعديد

ما صال إلا انجاب غيٌّ مُظلمٌ ... واندقّ من عمد الضلال عمود

---

(١) العهاد جمع عهد وهو أول مطر الوسمي

(٢) حمر الجنان : مـكتوي القلب ، من قولهم حمر الرجل إذا توقد غضباً .

ياسو ويجرح فالجراحة عزمة … تصمى وآسيها الندى والجود

سطوٌ وصفحٌ يطرُقان عنوّه … أبداً ووعدٌ صادقٌ ووعيد

عن أيٍّ باع في العلاء رميتمُ … ليثاً تقيه مَقادرٌ وجُدود

طاشت سهامكمُ وفارق نزعه … سهم إلى قلب العدوّ سديد

حسدوك لما فات سعيك سعيهم … صُعُداً فما نقع الغليلَ حَسودُ

ورأوا بوائجها تلوح وريحها … تسري وعارضها الغزير يجود [1]

عَجل الزمانُ بها اليك وحطّمت … بين الضلوع ضغائنٌ وحقود

قد كنت أخشى أن يقول مخبِّرٌ … كادوا وما أعطوا المراد فكيدوا

أو أن يقال أقاربٌ نزعت بهم … ظِننٌ فكلٌّ بالعقوق بعيد [2]

سُئلوا العُواد [3] فجانبوه فعاوَدوا … والان إذ ملك الزمامَ [4] وقيدوا

لولا الألية منك أن لا تنتضي … عَضْباً يقوم مقامه التفنيد [5]

لسننت في الأقوام غير ملوّمٍ … ماسنّ يومٌ ابن الزبير يزيد

اليوم أصحرت الضغائن وانجلت … تلك المَوارن والجباه السود [6]

وتراجعوا أُعصَباً إليك وخَلْفهم … عنف السباق وللقلوب وئيد [7]

فاصفح فسوف ينال صفحك منهمُ … مالا ينال العضب وهو حديد [8]

وهي قصيدة على جانب عظيم من السلاسة والقوة ، وقد سكتنا عن رواية الابيات الخاصة برجوع تلك المناصب ، وأثبتنا الابيات التي تعبر عن الثورة على الأقارب ، لان هذه الابيات ستنفعنا فيما بعد ، حين تبحث

---

(١) البوائج جمع بائجة وهي الداهية (٢) الظنن جمع ظنة بالكسر وهي التهمة

(٣) العواد بالضم يراد به الصلح . (٤) في الديوان (الزمان)

(٥) الألية : اليمين . والعضب : السيف

(٦) أصحرت : انكشفت . والموارن جمع مارن وهو الأنف

(٧) الوئيد في الاصل هدير البعير ، والمراد هنا الصوت العالي الشديد (٨) حديد : قاطع

عن السبب في شراسته وهو يخاطب الاقرباء .

...

أما الاملاك التي صودرت فسيطول عليها التفجع ، ولكن سَيُرَدُّ منها جزء في سنة ٣٨٦ وجزء في سنة ٣٩٦ ، ومعنى ذلك أن أبا أحمد الموسوي سيظل في انتظار أملاكه المسلوبة إلى أن تُضعفه الشيخوخة ويقضي الزمن على نور عينيه بالذهاب .

وإنما نعبّر بهذه العبارة الحزينة لنعلّل فرح الشريف برجوع تلك الاملاك فقد كان يرى أباه شيخاً ضعيفاً لا يعرف السبيل إلى مسالك الرزق ، ولا تُستَر شيخوخته إلا برجوع تلك الاملاك .

وهنا نشير إلى خطأ وقع فيه جامع الديوان ، فقد ذكر أن الشريف هنأ أباه برد أملاكه إليه باسرها في سنة ٣٨٦ ، والصواب أن تُقرن هذه العبارة بالقصيدة التي نظمها سنة ٣٩٦ .

فعندنا إذن قصيدتان في التهنئة بردّ تلك الامـلاك : الاولى عينية والثانية دالية .

أما العينية فهي قصيدة جزلة تحدث فيها الشريف عن عزمه الوثاب ، وبليته بالاعداء ، ثم وجّه الخطاب إلى أبيه فقال :

ليهنك مـا تجدّدُه الليالي وحسبُك من فراقٍ واجتماع

وما ردّ الزمان عليك حفظاً من الاملاك والمال المضاع

تماري الناس قبلك وهي غصب أديوان الضّياع أم الضّياع [1]

وعادت في يديك مروّضات وكانت قَفْع قَرقرة بقاع

(١) الضياع بفتح الضاد من ضاع يضيع فهو ضائع ، والضياع بكسر الضاد جمع ضيعة بالفتح وهي العقار والارض المغلة .

ظفرتَ بما اشتهيتَ وأنت وانٍ وناَل البعضَ غيرُك وهو ساع
يبشر والقلوب مفجّعات كان بشيره في الخـلق ناع
وما كلُّ المواهب بالاماني ولا كل الاحاظي بالقراع [1]
لكلٍّ في بلوغ العز طبعٌ وبعض الناس مختلف الطباع

وقد ساقه المقام إلى أن يسجل مَكرُمة شرف الدولة فقال:

أجار أبو الفوارس منك سيفاً تحامته يمين أبي شجـاعِ
فدًى لك مَن ينازعك الرزايا ويُقرِضكَ الاذى صاعاً بصاع
يَعَضُّ أنامل الاسد الضواري عليك بغيظ أنياب الأفاعي
رعاك بلحظِ طَرفٍ غير وانٍ وعاج عليك سمعاً غير واع
فكنت السيف أغمده جبانٌ فَسُلَّ وقد تصدّى للمصاع [2]
ألان [3] رِدِ العلاء بلا رقيب وشمّر في الامور ولا تراع
ولا يغررك قَعقعَةُ الاعادي فذاك الصخر خَرَّ من اليَفاع
ألان [4] تراجعتْ تلك الرعايا وجُهِّزت الرعية للمراعي
وعاد السِّرب أمنع من قلوبٍ تُقلَّب بين أضلاع السباع

وأما الرائية فهي قصيدة مرقصة:

نطق اللسانُ عن الضمير والبشرُ عُنوان البشير
الآن أعفيت القلو ب عن التقلقل والنفورِ
وانجابت الظّلماءُ عن وَضَح الصباح المستنير
ما طال يومُ ملثّمٍ إلا استراح إلى السفور
خَبَرٌ تشبث بالمسا مِعِ عن فم الملك الخطير
وأذلَّ أعناق العِدا ذُلَّ المطيّة للجرير [4]

(١) القراع: بالكسر القتال (٢) المصاع بالكسر المضاربة
(٣ - ٤) مخففة من: الآن (٥) الجرير: الحبل تخطم به المطية

يسمو به قول الخطيـ ـب وتستطيل يد المشير
وضمائر الاعـــداء تقذف بالحنين على الزفير
وسوابق العبرات تركض في السوالف والنحور

وهي طويلة وكلها على هذا النسق المرقص .

•••

أيها السادة

إلى هنا أكتفي بترتيب الحوادث في مسايرة الشريف وهو يمدح أباه ، ويكفي أن ننص على أن ما سنُغفله من تهنئة أبيه بالاعياد له دلالة سياسية فهو كان يرى أباه خليقاً بأن يُهنَّأ بالاعياد كما يُهنأ الملوك والخلفاء وأريد التهنئة الدورية التي تصاغ في كل موسم بلا تخلّف ، وهي بالتأكيد شارة الرياسة وعنوان السلطان .

أترك هذا الجانب من قصائد الشريف في مدح أبيه وهي مبثوثة في الديوان يرجع اليها منكم من يشاء .

ثم أشير إلى قصائد لها قيمة في بيان المنزلـــة الاجتماعية لابي أحمد الموسوي .

ويشهد ديوان الشريف بأن الموسوي تلافى الفتنة بين السُّنة والشيعة في سنة ٣٨٠ ، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين ، ولم يكن مـــن الزعماء المفسدين .

والخلاف بين السنة والشيعة قديم في العراق ، وهو خـــلاف كان مشئوماً من جانب ، وميموناً من جانب ، كان مشؤوماً لانه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان ، وكان ميموناً لانه علم العراقيين الجدل وجعلهم من أعرف الامم الاسلامية بأصول المذاهب والآراء وربما جاز لي أن أصرح

بأن هذا الخلاف كان سبباً في حياة اللغة العربية : لانـــه أمدّ التصنيف والتاليف بفنون من القوة والحيوية ، وعاد عـــلى الشعر والنثر باجزل النفع ، وللشر مزايا في بعض الاحيان .

ولكن هذا الخلاف كان في حاجة إلى من يرعاه ويحوّله الى جدل مقبول يُشحذُ به الذهن والعقل ، وقد استطاع أبو أحمد الموسوي أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء ، ويغنم السلامة للاخوان المتخاصمين . وتظهر قيمة هذا الموقف النبيل اذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة والشيعة كانت تُؤرّثه دسائس خارجية ، وما نقول هذا رجماً بالظن ، وانما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق في دراسة الوضع السياسي للنصف الثاني من القرن الرابع ، فموقف أبي أحمد الموسوي كان موقف السياسي المحنّك الذي يبصر ما وراء الاكمة من المعاطب والحتوف .

وقد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال :

وَخطبٍ على الزوراء ألقى جِرانَه ... مديد النواحي مدلهّم الجوانبِ
وأضرمها حمراء يترو شرارها ... الى جنبات الجوّ تَنزْو ألجنادبِ
سلَلْتَ عليه الحزم حتى جَلَوته ... كما انجاب غيمُ العارض المتراكب
وقد عَلِم الاعداءُ أنك تحتهُ ... غلبت وما كان القضاء بغالب
وأقشعتَ عن بغداد يوماً دَوِيّهُ ... الى الآن باقٍ في الصّبا والجنائب[1]
ولولاك عُلّي بالجماجم سُورها ... وخُنْدِقَ فيها بالدماء الذوائب

وأنتم تلاحظون أن هذه الابيات تمثل عطف الشريف على بغداد : فهو يكره أن تكون مسايل دماء .

---

(١) الصبا بفتح الصاد ، والجنائب جمع جنوب ، والمراد ريح الصبا وريح الجنوب .

والواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية ، والظاهر أنه كان حرّ العقل إلى حدٍّ بعيد : فقد كان يدرس جميع المذاهب الاسلامية ليمُدّ عقله بالأنوار التي يُرسلها اختلاف الفقهاء ، واهتمامه بمذهب الشافعي معروف ، مع أن مذهب الشافعي في ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء في العراق ، وإنما كان أنصاره من المصريين .

...

ويشهد الديوان أيضاً بان أبا أحمد الموسوي سافر إلى فارس للاصلاح بين الملكين : بهاء الدولة وصمصام الدولة ، والإصلاح بين العسكرين : البغدادي والفارسي .

ومعنى ذلك أن هذا الرجل كان يُرَجى لتضميد الجروح ، وليس ذلك بالفضل القليل ، ولا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دوّن التاريخ من فواجع ذلك الشقاق .

وفي هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها في رمضان سنة ٣٨٧ .

سائِلْ عن الطَّودِ لمْ تَخفَّتْ قواعدهُ ... وكان إن مال مقدارٌ به رجحا [1]

قد جرّبوه فما لانت شكيمتهُ ... وحمّلوه فما أعيا ولا رَزَحا [2]

ورَمَوْا به الغرض الأقصى فشافهه ... مرّ القطاميّ جلّي بعد ما لمحا

من العراق إلى أجبال خُرَّمةٍ [3] ... يا بُعدَهُ مَنبَذاً عنا ومُطرَّحا

ليس الملوم الذي شدّ اليدين به ... يضمم على الصفقة العظمى وقد ربحا

إن أغمدوه فلم تُغمَد فضائلهُ ... ولا نأى ذِكرُه الداني وقد نزحا

وفي سنة ٤٠٠ مات أبو أحمد الموسوي وسِنه سبع وتسعون سنة ،

---

(١) الطود ، الجبل ، والقواعد : الاركان (٢) رزح : ضعف وسقط ، إعياء ، أو هزالا .
(٣) خرمة على وزن سكرة موضع في أرض فارس .

فرثاه ابنه بقصيدة بلغت تسعة وثمانين بيتاً ، وهي من الطوال الجياد ، نذكر منها قوله في وصفه بقوة الشجاعة ورصانة البيان :

أنعاك للخيل المُغيرة شُزَّباً[1] ... خبط المغار بمن من لم يحزم

كالسّرب أوجس نَباةً من قانص ... فمضى يَلُفُّ مؤخراً بمقدَّم[2]

واليوم مُقذٍ للعيون بنقْعه[3] ... لا يهتدي فيه البنان إلى الفم

ومقاوم عَرَض الكلامُ بُرُودَهُ ... فيهن بين معضّد ومسهّم[4]

أغضى لها المتشدقون وسلموا ... لهدير شقشقة الفَنيق المُقرم[5]

بالرأي تَقبَله العقول ضرورةً ... عند النوائب لا بكيفَ ولا لِمِ

• • •

أيها السادة :

حدثناكم فيما سلف عن الخصومة بين الرضي والمعري ، وقد جاءت الفرصة لتصحيح ذلك ، والفضل في هذا التصحيح للصديق الكريم سعادة الاستاذ طه الراوي ، أعزه الله ورعاه ، فقد نبهنا إلى المرثية المأثورة التي بكى بها المعري أبا أحمد الموسوي ، وهي تشهد بأن المعري كان على صفاء مع الرضي وأخيه المرتضى إلى سنة ٤٠٠ وهو لم يقم في بغداد بعد ذلك غير قليل ، ويقول الاستاذ طه الراوي إن من المستبعد جداً أن ينسى الشريف وأخوه هذه المرثية فيسيئان إلى المعري بسبب عطفه على المتنبي ، وبذلك تتبدد الشبهة التي ذكرها مؤرخو الأدب واعتمد عليها سعادة الدكتور

---

(١) الشزب جمع شازب وهو الضامر . (٢) النبأة : الصوت الخفي ، أو صوت الكلاب.
(٣) النقع : غبار الحرب وهو المثير أيضاً .
(٤) المقاوم جمع مقام . والمعضد ثوب له علم في موضع العضد . والمسهم : البرد المخطط .
(٥) الفنيق الفحل يكرم على أهله فلا يركب . والمقرم وصف الفحل .

طه حسين في كتابه القيم « ذكرى أبي العلاء »[1] . ومطلع مرثية المعري :

أودى فليت الحادثات كفافِ[2] ... مال المُسيف وعنبر المستاف[3]

وفيها يقول في الثناء على الشريفين :

أبقيت فينا كوكبين سناهما ... في الصبح والظّلماء ليس بخافِ

متأنقين وفي المكارم أرتعا ... متألقين بسؤدد وعفاف

قَدَرَين في الإرداء بل مَطَرَين في ... الإجداء بل قمرَين في الإسداف

رُزقا العَلاء فأهل نجد كلما ... نطقا الفصاحة مثل أهل دياف[4]

ساوى الرضيُّ المرتضى وتقاسما ... خطط العلا بتناصُفٍ وتصاف

وفي ختامها يقول :

يا لِكَيْ سَرح القريض أتتكما ... مني حمولة مسنتين عجاف[5]

لا تعرف الوَرَق اللّجين وإن تُسَل ... تُخبر عن القُلاّم والخذراف[6]

وأنا الذي أهدي أقل بهارة ... حسناً لأحسن روضة مئناف[7]

أوضعتُ في طرق التشرف سامياً ... بكما ولم أسلك طريق العافي[8]

---

(١) عرضنا هذا الرأي على الدكتور طه حسين فلم يسترح اليه . وقد أعاد في كتابه « مع أبي العلاء في سجنه » ما أثبته في كتابه « ذكرى أبي العلاء » مع أن رأي الاستاذ طه الراوي واضح كل الوضوح : فالحادثة إن كانت وقعت قبل موت الموسوي فمن البعيد أن يرثيه أبو العلاء وقد أُهين في داره على يد ابنه الكبير ، ووقوعها بعد موته غير معقول : لأن رثاء أبي العلاء للموسوي يفرض على الشريفين أن يراعيا كرامة أبي العلاء فلا يلقى الهوان وهو ضيف له عندهما عهد ... ويؤيد رأي الاستاذ طه الراوي أن تلك الحادثة لم يتحدث عنها مؤلف قبل ياقوت .

(٢) كفاف : اسم معدول مبني على الكسر ، جعله الشاعر اسماً لكف الأذى . أي ليت الحادثات يكف بعضها بعضاً ويقوم خيرها بشرها « أنظر شرح سقط الزند » ص ٧٦ ج ٢ .

(٣) المسيف من أساف الرجل إذا ذهب ماله . والمستاف من الاستياف وهو الشم .

(٤) دياف بكسر الدال موضع نبط لا فصاحة فيه .

(٥) المسنتون الذين أصابتهم السنة ، أي الجدب ، والعجاف المهازيل .

(٦) القلام والخذراف ضربان من الحمض من نبات البادية، واللجين الورق المدقوق ،المخلوط بالنوى المرضوض وهو من علوفة أهل الأمصار ، والمعنى أن القصيدة بدوية لا حضرية .

(٧) المئناف والأنف بضمتين الروضة التي لم ترع من قبل

(٨) أوضعت : أسرعت ، والعافي : طالب المعروف

ويحسن أن نشير إلى أن شوقي عارض هذه القصيدة وهو يرثي إسماعيل صبري، عليهما رحمة الله، وقد بلغ شوقي غاية الحكمة إذ يقول :

ما أنت يا دنيـــا أرؤيا نائم   أم ليلُ عرس أم بساطُ سلافِ

نعماؤك الريحـــان إلا أنهُ   مسّتْ حواشيه نَقيعَ زُعاف

والاستطراد على ما فيه من فوائد لا يسمح في هذا الموطن بأن نوازن بين حضرية شوقي وبدوية أبي العلاء ، فلنقف عند هذا الحد من الشؤون المتصلة بولد الشريف ، وفيما سلف غناءٌ أيُّ غناء .

صلات الشريف الرضي
بخلفاء بني العباس

أيها السادة :

إن محاضرة الليلة أشقتني كثيراً ، ولكنها ستفصل في أعظم معضلة سياسية تحدث بها من عرَضوا لترجمة الشريف : وهي تساميه لتبوء عرش الخلافة الإسلامية وأكاد أجزم بأن هذا المطمح لم يكن إلا خيال شعراء ، ولم يجسّمه إلا الادباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالي ويتسامى إلى عرش الرشيد والمامون ، ولذلك نرى مؤرخي الادب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون [1] .

والحق أن الظروف التي عاش فيها الشريف كانت سيئة جداً ، ويكفي أني لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد في ذلك العهد ، لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمّل الناسُ أثقالها من جيل إلى جيل .

وأنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابي ، ومع ذلك كان الصابي يشكو الفقر وسوء الحال فلا يملك الشريف أن يعينه بشيء ، لأن الشريف كان أفقرَ من الصابي وإنما كان يتجمل ويستر فقره عن الناس .

والذي يعيش في مثل تلك الحال لا يفكر جدياً في قلب النظام السياسي بحيث يصبح وهو السيد الذي يسيطر على الاقطار العربية والفارسية .

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة في ذلك العهد ، لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الامنية ، ومتى انصرف عنها انصراف اليائسين .

---

(١) قد عرضنا لهذه القضية في الجزء الثاني من هذا الكتاب حين تكلمنا عن صداقته للصابي فارجع اليها هناك لتعرف كيف نشأت فكرة الخلافة في نفس الشريف .

عاش الشريف في عهود ثلاثة من الخلفاء ، هم المطيع والطائع والقادر، وما يمكن أن نلتفت لأيامه في عهد المطيع : لأنه كان طفلا لا يحسب له حساب

ننتقل إلى عهد الطائع الذي استمر من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٣٨١ وهو عهد كانت فيه الخلافة قوةً وهمية : لأن الديلم كانوا هم المسيطرين على العراق ، وكان الخليفة صورةً يُجيزون بها الاحكام إذ كانت الجماهير في أعماق قلوبها تحترم الخلفاء ، وكان البويهيون لا يرون بأساً مـــن استبقاء تلك الصورة تجنباً لعواطف الاهواء .

والتاريخ يشهد بأن الخلفاء في القرن الرابع كانوا قـــد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية ، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يُصدِر بها مرسوماً إلا نص فيه على اسم الملك الذي يحكم ويَسود ، فقد كتب الصابي على لسان الخليفة المطيع مرسوماً بامارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات :

« ولما قلّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين فبان له فيهـــا محمود سيرتك وظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك ، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التي عوّده الله فيها الصلاح ، وأجرى له فيها طائر النجاح ، أن يزيدك فضلا وإحساناً ، ولا يألوك إنعاماً وامتناناً : فانهى معز الدولة أبو الحسين أحسن الله حياطته أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقين ، وإيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين ، والاعتماد عليك في حمايتها ، وتوليك الحروب والاحداث فيها فوافق رأيُ معز الدولة أبي الحسين تولى الله كفايته الصواب ، ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب »

فالخليفة في هذا المرسوم الديني ينص على اسم الامير البويهي ، لأنه لم يكن يملك غير ذلك .

وهناك عبارةٌ أصرح من هذه العبارة، وهي منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه ان الإمامة لا تصح ولا تسلم إلا برعاية البويهيين.

وقد أخرجتُ من رسائل الصابي شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، ولكن لا موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمرٌ مفروغٌ منه، ومسلَّمٌ به، والذي اطّلع منكم على كتاب «تجارب الامم» يرى أن القرن الرابع لم يكن إلا مسرحاً للعراك بين الفُرس والترك، ولم يكن الخلفاء يُذكرون إلا من باب الاستطراد، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

• • •

ولنقل بصراحة إن الشريف كان حريصاً على الظهور بمظهر الولاء للديلم والأتراك، لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لاولئك أو هؤلاء وقد سافر مرة إلى الكوفة فتحدث ناسٌ أنه عزم على التوجه الى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدَح فيها بني بويه وتودد إلى الاتراك، ولا يعلم الا الله ما في تلك القصيدة من عناصر الصدق ولكنها شاهدٌ على ما كان يجب أن يصطنعه الرجل من السياسة وهو يعيش في بغـــداد في النصف الثاني من القرن الرابع، واسمعوا كيف يقول:

أفي كل يومٍ للمطامع جـــاذبٌ ... يجشّمني ما يُعجز الاسد الوَردا[1]

كأني اذا جادلتُ دون مطالبي ... أجـــادل للأيام ألسنة لُدّا[2]

أحل عُقود النائبـــات وأنثني ... وخَلفي يدٌ للدهر تُحكمها عَقدا[3]

اذا ما نَفذتُ السّدَّ من كل جانبٍ ... رأيت أمامي دون ما أبتغي سدا

---

(١) الورد بفتح الواو من صفات الأسد، وهي صفة لونية، والورد من الخيل ما كان بين الكميت والاشقر.

(٢) لد بضم اللام جمع ألد، واللدد بالفتح هو العنف في الخصومة.

(٣) تحكمها: من الاحكام مصدر أحكم وهو شدة الربط.

أترك أملاكاً رزاناً حلومهم[1] ... حلولاً على الزّوراء أيمانهم تندّى
كأنك تلقى منهمُ آجميـــة[2] ... مؤلّلة الانياب أو قُلَلاً صلدا[3]
ولا يأنفُ الجبارُ أن يعتفيهمُ[4] ... ولا الحرُّ يأبى أن يكون لهم عبدا
اذا ما عَدِمنا الجودَ منهم لعلةٍ ... فلا نعدم العلياء منهم ولا المجدا
نُجاسِنُ أقمار الدُّجى بوجوههم ... فنبهَرُها نوراً ونغلِبُها سعـــدا
تخالهمُ غِيداً اذا بذلوا الندى ... وتحسَبهم جنّاً اذا ركبوا الجردا[5]

الى أن يقول:

أآل بُوَيهٍ ما نرى الناس غيركم ... ولا نشتكي للخلق لولاكم فقدا
نرى منعكم جوداً ومَطْلكم جَداً ... واذلالكم عزّاً وامراركم شَهدا
وعيشَ الليالي عند غيركمُ ردًى ... وبَرْدَ الاماني عند غيركمُ وَقدا
اذا لم تكونوا نازلي الارض لم نَجِد ... بها الواديَ المطمورَ والكلأ الجعدا
وكنتُ أرى أني متى شئت دونكم ... وجدت مجازاً للمطالب أو مَعْدى
فلم أر من مَطْلَعٍ عـــن بلادكم ... ولا من مَراحٍ للأماني ولا مَغْدى[6]
خذوا بزمامي قد رجعت إليكمُ ... رجوعَ نزيلٍ لا يرى منكمُ بُدّاً
أريد ذهـــاباً عنكمُ فيردُّني ... إليكم تجاريبُ الرجال ولا حمدا

ومن الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيـــذاء مباشراً

---

(١) الأملاك: الملوك، والرزان جمع رزين
(١) الآجمية: الاسود نسبة إلى الآجام
(٢) مؤللة: محددة، والقلل جمع قلة بالضم وهي الصخرة العالية، والصلد، بالضم جمع صلداء وهي الصخرة الصلبة الملساء.
(٣) يعتفيهم: يطلب جودهم
(٤) الجرد جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر
(٥) الكلا الجعد: العشب الندي
(٦) يشير هذا البيت إلى أن الشريف كان يرى آل بويه ملوك العراق، والسياسة في ذلك الوقت لم تكن تسمح بأن يرامم دخلاء.

للمطيع أو الطائع ، وإن كانت طعنةً موجّهة إلى من يسيطرون على فارس والعراق ، ولهذا نرى لغة المشرق في ذلك العهد لا تسمي الخليفة الفاطمي « صاحب مصر » وإنما تسميه « صاحب المغرب » وهو تعبيرٌ كلّه إيحاء !

ونعود فنقول : إن الشريف أنس كل الانس بالطائع ، فكان يمدحه بصدق وإخلاص ، ومع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف ، فقد رأى فيه الشريفُ رجلاً عربياً هو البقية من مجد بني العباس .

وهنا أذكر أن الاستاذ عبد الحسين الحلي أراد أن يشكك في صدق عواطف الشريف وهو يمدح الطائع ، وأنا أرى غير ذلك ، أرى أن الشريف كان يفهم جيداً أنه يخاطبُ خليفة بالرغم من فساد الأحوال ، وأرى أن مطامع الشريف في ذلك العهد كانت تقف عند استرداد أملاك أبيه التي صادرها عضد الدولة منذ سنين ، فمن الإسراف في حسن الظن بعزيمة الشريف أن يقال إنه كان يطلب الخلافة في ذلك العهد .

فإن لم يكن بُدٌّ من تمجيد الشريف فيكفي النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء ، بخلاف ما أراد الاستاذ عبد الحسين .

ومن الواجب أن ننص على أن مدائح الشريف للطائع لم تبدأ إلا بعد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال ، وقُرب رجوعه إلى بغداد ، أي بعد سنة ٣٧٣ ، فأقدم قصيدة مدحه بها هي الحائية التي ذم فيها أعداءه ثم تخلص إلى المدح فقال :

نُعلَّلُ بالزُّلال من الغوادي ونُتْحَفُ بالنسيم من الرياحِ
وحاورْنا الخليفةَ حيث تسمو عرانينُ الرجال إلى الطِّماح
نوجّه بالثناء له مصوناً ونرتع منه في مالٍ مباح

وسيَّالِ[1] اليدين من المطايا مَهيب الجد مامونِ المِزاح

إذا ابتدر الملامُ نَدَى يديهِ مضى طَلْقاً على سَنن المِراح[2]

أميرَ المؤمنين أذال سيري ذرى هَنِي أُلمعبَّدة الرزاح[3]

فكم خاض المطيُّ إليك بحراً يموج على الاماعز والضواحي[4]

وكم لك من غرامٍ بالمعالي وهمٌّ في الأماني وارتياح

وأيام تَشُنُّ بها المنـــايا عوابس يَطّلعن من النواحي[5]

فلا نقلَ المهيمن عنك ظِلاً مـــن النعماء ليس بمستباح

وفي سنة ٣٧٦ مدح الطائع وشكره على تكرمة خصه بهـــا وثياب ووَرِق، فقال بعد أبيات:

وإذا أميرُ المؤمنين أضاف لي أملي نزلت على الجواد المفضلِ

بالطائع الميمون أبحج مطلبي وعلوت حتى ما يُطاوَل معقلي

قَرْمٌ إذا عرتُ الخطوبُ مِراحَه أدمى غواربها بناب أعصَلِ[6]

متوغل خَلْف العدوِّ وعلمُهُ أن الجبان إذا سرى لم يُوغلِ

وإذا تنافلت الرجال غنيمةً قسم التراث لها بحد المنصل

ثَبْتٌ لِجَهجَهَة الخطوب كأنما جاءت تُقعقِع بالشَّنان ليذبل[7]

---

(١) الواو حرف جر شبيه بالزائد: واورب ، وسيال مبتدأ مجرور لفظاً مرفوع محلاً وخبر المبتدأ هو الجملة الشرطية في البيت الثاني ، وهي في الظاهر صفة ولكنها في الواقع خبرية ، لان الشاعر أراد النص على أن ذلك الكريم لا يصده عن الكرم ملام .

(٢) المراح بالكسر هو الاسم من مرح يمرح

(٣) الرزاح : البعيد الاطراف .

(٤) الأماعز جمع أمعز ، من المعز بالتحريك وهو الصلابة ،فيقال مكان أمعزوأرض معزاء.

(٥) تشن : تصب ، ومنها شن الغارة ،

(٦) الاعصل : الناب الاعوج ، وفي الديوان « أعضل » بالضاد المعجمة وهو تحريف .

(٧) الجهجهة : الصياح ويذبل اسم جبل

رأى الرشيد وهمة المنصور في حُسن الأمين ونعمة المتوكل
آباؤك الغرُّ الذين إذا انتَموْا ذهبوا بكل تطاوُل وتطوُّل
دَرَجوا كما دَرَجَ القرون وعِلمُهم أنْ سوف يخبرُ آخرٌ عن أول
نَسَبٌ إليك تجاذبت أشياخه طِوَلاً من العباس غيرَ مُوَصّل[1]
هذي الخلافة في يديك زمامُها وسواك يخبط قَعْرَ ليل أليل
أحرزتها دون الأنام وإنما خلع المَجاجةَ سابقٌ لم يذهل
طلعت بوجهك غُرة نبوية كالشمس تملأ ناظر المتامل

وهي قصيدة طويلة أسلمَ فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أرجوك للأمر الخطير وإنما يرَجى المعظم للعظيم المُعضل
وأروم من غُلَواء عزك غايةً قَعْساء تستلِبُ النواظر من عَل
كم رامها منك الجبان فراوغت شقّاء يلعب شقها بالمسحل[2]
تُدمي قلوبَ الحاسدين وتنثني فتردد عادية الخطوب النُّزَّل
ضاق الزمان فضاق فيه تقلبي كالماء يَجمع نفسه في الجدول
هذا الحسين إلى عَلائك ينتمي شرفاً وينسب مجده في المحفل

إلى آخر القصيدة، والحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن علي ابن أبي طالب، وهذه القصيدة صريحةٌ في أن الشريف كان يؤمن بان الطائع أسدى إلى أبيه فنوناً من المعروف.

وكانت سنة ٣٧٧ من أعوام الخصب بين الرضي والطائع : فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان في شهر رمضان، الاولى بقدوم الصوم، وهي قصيدة نفض الشريف بها همومه، وشكا بها دهره، إذ يقول:

---

(٣) الطول على وزن عنب هو الحبل، وقد مر في قصيدة سالفة بمعنى طاقات الحبل.
(٤) المسحل على وزن منبر : المنحت أو المبرد.

بلوتُ وجربتُ الاخلّاءَ مدّةً فأكثر شيء في الصديق ملال[1]

وما راقني ممن أودُّ تملقٌ ولا غرني ممن أحب وصال

وما صحبك الادنون إلا أباعدٌ اذا قلّ مال أو نبتْ بك حال

ومن لي بخل أرتضيه وليت لي يميناً يماطيها الوفاء شمال

تميل بيَ الدنيا إلى كل شهوةٍ وأين من النجم البعيد منال

وتسلبني أيدي النوائب ثروتي ولي من عفافي والتقنع مـال

إذا عزني ماءٌ و في القلب غُلةٌ رجعت وصبري للغليل بلال[2]

أرى كل زاد ماخلاسدَّ جوعةٍ تُراباً وكلُّ الماء عنديَ آلُ

ومثليْ لا يأسى على ما يفوتُه إذا كان عُقبَى ما ينال زوال

كأنا خُلقنا عُرضةً لمنيةٍ فنحن إلى داعي المنون عِجال

تخفُّ على ظهر الثرى وبطونهُ علينا إذا حلّ المات ثقال

وما نُوَب الايام الا أسنةٌ تهاوَى الى أعمارنا ونصال

وأنعمُ منا في الحياة بهائمٌ وأثبت منا في التراب جبال

أنا المرء لا عِرضي قريب من العدا ولا فيَّ للباغي عليَّ مقـال

وما العِرض إلا خير عضو من الفتي يصاب وأقوالُ العداة نِبال

وقور فإن لم يَرْعَ حقيَ جاهل سألت عن العوراء كيف تقال

وهو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحاً طيباً ، ولكن ما رأيكم في هذه المقدمات ؟ انه يأنس بالطائع كل الانس فيفضي الي بذات نفسه ويشكو أمامه قسوة الفقر وخشونة الزمان .

وهو حين يصل الى مدحه لن يقول : أعطني مالاً ، وانمـا سيقول :

---

(١) أكثر أبيات هذه القصيدة يجري مجرى الأمثال .

(٢) الغلة بالضم الظمأ الشديد . والبلال بالكسر هو الري .

أعطني منصباً .

أزِلْ طمع الاعداء عنّي بفتكةٍ ... فلا سَلْمَ الا أن يطول قتال

فإن نفوس الناكثين مباحةٌ ... وإن دماء الغادرين حلال

وشمّر فما للسيف غيرك ناصر ... ولا للعوالي ان قعدت مَصال[1]

ومن لي بيوم شاحب عَجاجهِ ... أنال باطراف القنا وأنال[2]

أردني مراداً يقعد الناس دونهُ ... ويغبطني عمٌّ عليه وخال

ولا تسمعنْ من حاسد ما يقولهُ ... فاكثر أقوال العداة محال[3]

الى آخر القصيدة ، وفي الشهر نفسه هناه بالمهرجان فمدحه ومدح أصوله من بني العباس :

يلقى الخطوب ووجههُ طَلْقُ ... ويخوضهن وقلبه جَذِلُ

تُخفي بشاشتُه حميتَه ... كالسم موّه طعمَه العسل

من معشر كانت سيوفهمُ ... حَلْياً لمن ضربوا ومن عطلوا

بالفخر يكسُون الذي سلَبوا ... والذكر يحيُون الذي قتلوا[4]

أنت الجوادُ اذا غـــلا أملٌ ... والمستجار اذا طغى وَجَلُ

وفي هذه القصيدة يصرح بانه ورث محبة الطائع عن أبيه اذ يقول :

ان الجرّد في هواك فــتًى ... لا اللوم يردعه ولا العَذَلُ

مثل الحسين فبينَ أضلعهِ ... قلبٌ بغيرك مـــا له شُغُل

وبعد ايام هنأه بعيد الفطر ، تهنئة شاعر يعرف انه يخاطب خليفة وهي تجمع بين العُذوبة والجزالة ، وقد عرّض فيها بخصوم الطائع أعنف

---

(١) المصال. بفتح الميم وهو مصدر من صال يصول.

(٢) أنال وأنال : الاول بالبناء للفاعل والثاني بالبناء للمفعول .

(٣) المِحال بالكسر هو الكذب والدهاء .

(٤) هذا البيت غاية في المداح

تعريض ، والذي يهمنا هو الشاهد الآتي :

أعيذ مجدك أن أبقي على طمع   وأن تكون عطاياي المواعيد
وأن أعيش بعيداً من لقائكمُ   ظمآن قلبي وذاك الوردُ مورود
مالي أحب حبيباً لا أشاهدهُ   ولا رجايَ إلى لقياه ممدود
وأتعب القلب فيمن لا وصال له   يا للرجال أقلّ الخُرّد الغيد[1]
أكثرت شعري ولم أظفر بحاجته   فسقّني قبل أن تفنى الاغاريد

وبعد شهر عزّاه في عمر بن إسحاق بن المقتدر وكان آخر ولد بقي من ظهر ذلك الخليفة ، وهي قصيدة تكثر فيها الحكم والأمثال .

نؤمّل أن نروى من العيش والردى   شَربٌ لأعمار الرجال أكول
وهيهات ما يغني العزيزَ تعَزُّزٌ   فيبقى ولا يُنجي الذليل خمول
نقول مَقيلٌ في الكرى لجنوبنا   وهل غير أحشاء القبور مَقيل
دع الفكر في حب البقاء وطوله   فَهمُّك لا العمر القصير يطول
ولا تَرجُ أن تُعطى من العيش كثرةً   فكل مُقام في الزمـــان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقةٍ   دَرَى أن ظـــلاًّ لم يَزل سيزول
تُشيّع أظعانٌ إلى غير رَجعةٍ   وتُبكي ديارٌ بعدهم وطلول
إذا لم يكن عقلُ الفتى عونَ صبرهِ   فليس إلى حسن العزاء سبيـــل
وإن جهلَ الأقدارَ والدهرَ عاقلٌ   فاضيعُ شيء في الرجال عقول
ومن مات لم يَعلم وقد عانقَ الثرى   بكاه خليلٌ أم سلاه خليل

وهذا البيت يشهد بان الشريف الرضي كان يرتاب فيما يعرف الأموات من أحوال الاحياء .

---

(١) الخرد جمع خرود وخريدة ، وهي البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت ، والغيد جمع غيداء وهي المتثنية ليناً أو هي الطويلة العنق .

وفي العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب وطاب فيها العتاب وأي تشبيب أعنف من هذه الانفاس الحرار :

خليليَّ هل تثني من الوجد عبرةٌ ... وهل ترجع الأيام ما كان ماضيا
إذا شئت أن تسلى الحبيب فخلّه ... وراءك أياماً وجرّ اللياليا
أعفُّ وفي قلبي من الوجد لوعةٌ ... وليس عفيفاً تاركُ الحب ساليا
إذا عطفتني للحبيب عواطفٌ ... أبيتُ وفات الذلّ من كان آبيا
وغيريَ يستنشي الرياح صبابةً ... وينشي على طول الغرام القوافيا
وألقى من الأحباب ما لو لقيتهُ ... من الناس سلّطت الظُبا والعواليا
فلا تحسبوا أني رضيت بذلةٍ ... ولكنّ حبّاً غادر القلب راضيا
رعى الله من ودعته يوم دابق[1] ... وولّيتُ أنهى الدمع ما كان جاريا
وأكتمُ انفاسي إذا ذكرتهُ ... وما كل ما تخفيه يا قلب خافيا
فعندي زفيرٌ ما ترقى من الحشا ... وعندي دموع ما طلعنَ الأماقيا
مضى ما مضى ممن كرهتُ فراقهُ ... وقد قلّ عندي الدمع إن كنت باكيا
ولا خير في الدنيا إذا كنت حاضراً ... وكان الذي يُغرى به القلب نائيا

ولما وصل إلى عتاب الطائع مدحه اجزل المدح ثم قال :

إلى كم أُمنّي النفس يوماً وليلةً ... وتُعلِمني الأيام ان لا تلاقيا
وكم انا موقوف على كل زفرة ... عليل جوًى لو ان ناساً دوائيا

---

(١) دابق : قرية في حلب ، وردت مرات في كلام الشعراء ، من ذلك قول عيسى بن سعدان :

ناجوك من أقصى الحجاز وليتهم ... ناجوك ما بين الأحص ودابق
أمفارقي حلب وطيب نسيمها ... يهنيكم أن الرقاد مفارقي
والله ما خفق النسيم بأرضكم ... إلا طربت من النسيم الخافق
وإذا الجنوب تخطرت أنفاسها ... من سفح جوشن كنت أول عاشق

أيسنح لي روضاً وأصبح عازباً [١] ... ويعرض لي ماء وأصبح صاديا
وما انا ـ إلا ان اراك ـ بقانع ... وإن كنت جراراً إليّ الأعاديا
تركت إليك الناس طرًّا وكلّهم ... يتوق إلى قربي ويهوى مقاميا
عليك عـلام الله إني لفازعٌ ... إليك وإن لم اعطَ منك مراديا

وانتم ترون انه يمنُّ على الخليفة بمدحه مناً صريحاً ، ويقول إنه يترك في سبيله اقواماً كرام الاكفّ ، وسنرى فيما بعدُ من هم اولئـك الاقوام ، ولكن لا باس من التصريح بأن الرضيّ كان يحب ان يستأثر بمودة الطائع فلا يرى في حضرته احداً من خصومه الألداء ، ومن شواهد ذلك انه عرف ان بعض خصومه ظفر بمودة الطائع ، فأرسل اليه يعاتبه عتاب الانـداد فيقول :

ونُمي إلي من العجائب انه ... لعبتْ بعقلك حيلة الخوّان
وتملكتك خديعةٌ من قولةٍ ... غرّارةِ الأقسام والأيمان
حقاً سمعت وربّ عيني ناظر ... يَقِظٍ تقوم مقامها الاذنان
اين الذي اضمرته من بغضه ... وعقدته بالسر والإعلان
ام اين ذاك الرأي في إبعاده ... حَنَقاً واين حمية الغضبان
سبحان خالق كل لون معجبٍ ... ما فيكُم من كثرة الألوان
يومٌ لذا، وغدٌ لذاك ، وهذه ... شيمٌ مقطّعة قُوَى الأقران
فالآن منك اليأس ينقع غلتي ... واليأس يَنقع غُلة الظمآن
فاذهب كما ذهب الغمامُ رجوته ... فطوى البروق وضنّ بالتّهتان
لي مثل مُلكك لو اطمعت تقنّعي ... وذوو العمائم من ذوي التيجان
ولعل حالي ان يصير إلى عُلا ... فالدوح مَنبتها من القضبان

---

(١) العازب : البعيد عن المرعى.

فاحذر عواقب ماجنيتَ فربما رمت الجناية عرض قلب الجاني
اعطيتك الراي الصريح وغيره تنساب رغوته بغير بيان
وعرضت نُصحي والقبولُ إجازة فإذا ابيتَ لويتُ عنك عِناني

وانتم ترون ان هذه جرأةٌ لو صدرت في عهد خليفة مثل الرشيد لأطاح رأس الشاعر بلا تردد ، ولكن الرضي كان يثق بأن الطائع يعطف عليه ، وكان يثق بأن الطائع لا يملك الامر كله في بغداد .

وفي سنة ٣٧٨ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد ، اذ يقول :

يا جميلا جمالُهُ ملء عيني وعظيما اعظامه ملء قلبي
بك ابصرت كيف يصفو غديري من صُروف القذى و يأسن سِربي[1]
انت افسدتني على كل مامو لٍ واعديتني على كلّ خطب
فاذا مـــا أراد قربي مليكٌ قلتُ قربي من الخليفة حسبي
عزَّ شعري الا عليك وما زا ل عزيزاً يابى على كل خطب
أنت ألبستني العلا فاطِلها أحسنُ اللبس مايجلل عَقبي[2]
انني عائذٌ بنُعماك ان أكـ ثر قولي وأن أطوّل عَتبي
نظرةٌ منك ترسل الماء في عُو دي وتُمطي[3] ظلي وتنبت تُرْبي
ما ترجيت غير جودك جوداً أيرجّى القطار من غير سُحب
لا تدَعني بين المطامع واليأس وورِدي[4] ما بين مُرٍّ وعَذب

وفي سنة ٣٧٩ مدحه وعاتبه على تأخير الإذن له في لقائه بمجلس خاص، وذلك في قصيدة طويلة نشير اليها بالمطلع :

---

(١) الشرب بالكسر هو القطيع من الظباء والنساء ، وهو أيضاً الطريق والبال والنفس والقلب .

(٢) العقب على وزن كتف هو مؤخر القدم ، وسكنت القاف للوزن ويجلله يغطيه .

(٣) تمطي : تطيل . (٤) الورد بالكسر الماء المورود .

ضربن الينا خذوداً وساما[1] وقلن لنا اليوم موتوا كراما

وفي سنة ٣٨٠ مدحه بعدة قصائد، أهمها القصيدة النونية :

الآن اعربت الظنونُ وعلا على الشك اليقينُ

وانما كانت اهم قصائده في تلك السنة بفضل ما نُظِمت من أجله، فقد كان الطائع تاثر من قصيدة قال فيها الشريف :

مَتى أنا قائمٌ أعلا مقـــام ولاقٍ نور وجهك بالسلامِ

ومنصرفٌ وقد أثقلتَ عِطفي مـــن النّعماء والمِنن الجسام

ولي أملٌ أطلت الصبر فيه لو أن الصبر يَنفع من أوامي[2]

وما خِفت النوائب ترتمي بي وقد أقعَى بجامحها لجامي

أيعرقني الطوى والروض حالٍ ويغلبني الظما والبحر طام[3]

وليُقرَ بى رؤومٌ كنت أرجو يمينك أن تقرّب لي مرامي

وباب الإذن مــني كلَّ يوم يقعقع بالقوافي والنـــظام

لكم أرجاء زمزم والمصلَّى وبطحاء المشاعر والمقام

وأنتم اطولُ العظماء طولاً وأندى في المحول مـــن الغمام

وابعد موطناً من كل عارٍ وأمنع جانباً مـــن كل ذام

وأجرى عند مختلف العوالي وأفلجُ عند معترك الخصام[4]

بآبـــاء مضوا وهم عوارٍ من القول المهجَّن والملام

وأمّات[5] دَرَجنَ على الليالي وهن أصحُّ من بَيض النّعام

الى ان يقول :

ألان[6] جذبتَ من ايدي الليالي عِناني واشتملتَ على زمامي

---

(١) وسام جمع وسيم والوسامة هي الجمال .

(٢) الاوام بالضم الظمأ الشديد (٣) الطوى هو الجوع ، ويعرقه يذهب لحمه .

(٤) أفلج صفة الفلج بالتحريك وهو النصر (٥) أمات لغة في أمهات

(٦) مخففة من (الآن)

فما اخشى الزمان ولو تلاقت   يداه من ورائي او امامي

اقول : ان الطائع رقّ لهذه القصيدة فامر بأن يسير الشريف الى داره في يوم الخميس لعشر بقين من رمضان ، وجلس له جلوساً خاصاً ، وكانت خلع السواد قد أعدت له فجُلببت عليه ، وزاد الخليفة في اكرامه فلم يخرج الا وهو مثقل بالهدايا الفاخرات ، وقد ظهر أثر ذلك في النونية اذ يقول :

أترى امين الله الا   من له البلد الأمين
لله دَرُّك حيث لا   تسطو الشمال ولا اليمين
والامر امرك لا فَمٌ   يوحي ولا قولٌ يبين
لما رأيتك في مقا   م يستطار به الركين[1]
ورأيت ليث الغاب مه   ترضاً له الدنيا عرين
أقدمت اقدام الذي   يدنو وشافعهُ مكين
فلذاك ما ارتعد الجنا   نُ حيا ولا عرق الجبين
وسمت بفضلك غُرةٌ   تغضي لهيبتها الجفون
وامتدّ من نور النبيّ   عليك عُنوانٌ مُبين
وجمالُ وجهك لي بنيـ   ـل جميع ما أرجو ضمين
فافيضت الخِلَع السوا   دُ عليّ ترشقها العيون
شرف خُصِصت به وقد   دَرَجت بغصته القرون
وخرجت اسحبها ولي   فوق العلا والنجم دون
جَذِلاً وللحساد من   اسفٍ زفيرٌ او انين

أيها السادة :

الى هنا رأيتم صلات الشريف بالطائع ، رأيتم شاعراً يمدح وخليفة

(١) الركين : القوي القلب .

يثيب ، فهل يدوم هذا النعيم ؟

اخشى ان تكون مدائح الرضي باباً يدخل منه الشر الى قصر الطائع : فقد اطال في وصفه بالشجاعـــة والجرأة والبطولة ، واطال في وصف جوائزه وعطاياه ، وكان هناك قومٌ لا يرضيهم ان يكون للخلفاء جاهٌ او مال .

وكذلك تطوع بعض الدساسين وافهم بهاء الدولة ان قصر الخليفة مملوء بالذخائر العظيمة ، وزيّن له القبض عليه ، فانخدع بهاء الدولة وتوهم انه سيظفر بكنوز الارض حين يقبض على الطائع ، فأرسل اليه يسأله الإذن بالحضور في خدمته ليجدد العهد ، فأذن له في ذلك ، وجلس له كما جرت العادة ، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، ولما دخل قبّل الارض بين يدي الخليفة وأجلس على كرسي ، ودخل بعض الديلم كأنه يريد ان يقبّـل يد الخليفة فجذب الطائع بحمائل سيفه وانزله عن سريره والخليفة يقول : انا لله وانا اليه راجعون .

وفي لحظات معدودات أخذ ما في دار الخليفة من الذخائر ، ونهب الناس بعضهم بعضاً ، وكاد حبل الامن ينقطع في بغداد .

وكان الشريف الرضي في مجلس الخليفة في تلك الساعة السوداء ، فلم يدفع عنه بيد ولا لسان ، وإنما لاذ بالفرار ليسلم من عدوان الباغين .

وقد كان موقفه في هذه الحادثة الشنعاء شبيهاً بموقف البحتري حين قُتل المتوكل ، ولكن البحتري كان أشجع وأوفى ، فقد دافع عن المتوكل بيديه ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء ، أما الرضي فترك صاحبه لأيـــدي الغادرين ، وكان يملك الدفاع عنه لو شاء ، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل والتشبيب ، كأن تلك الفاجعة لم تُنسه ثورة الوجد ولوعـــة

الحنين ، ولما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال :

إذا ظننا وقدّرنا جرى قَـــدَرٌ ... بنازلٍ غير موهومٍ ومظنونِ
إعجبْ لُمسكة نفس بعد مارُميت ... من النوائب بالأبكار والعُونِ
ومن نجائيَ يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخلُ من حزمٍ ينجّيني
مَرَقتُ منها مُرُوق النجم منكدراً ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طـــلّاع ثنيتها ... ومن وَرائي شرٌّ غير مأمونِ
من بعدما كان ربُّ الملك مبتسما ... إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيتُ أرحمُ من أصبحت أغبطهُ ... لقد تقاربَ بين العز والهُونِ
ومنظَرٍ كان بالسراء يُضحكني ... يا قُرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغترُّ بالسلطان ثانيةً ... قد ضلَّ ولّاج أبواب السلاطين

« وهذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف ، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية . وقد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد ، ولكنا خشينا ان نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين ، وأول مـــن فكرنا فيه أبو الحسن العلوي وكان شخصية هائلة تملك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك ، وقد اعتقل مـــع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في خزائنه من الذهب مليون دينار . وهـــذا الرجل سكت الشريف عنه حين توجع لأبيه وعمه ، فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص ؟ ذلك ظن من الظنون لا يقوم عليه دليل ويكفي أن نسجل أن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض » .

وبعد الفراغ من طبع الكتاب وقفنا على نص يؤيد هـــذا الافتراض

ويشهد بأن أبا أحمد الموسوي وأبا الحسن العلوي كانا عدوين فقد جاء في تجارب الامم ج ٣ ص ٢٦٧ ما نصه على لسان أحد المضطهدين .

(وجاءني في أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوي وكان يتهمني بالميل إلى الشريف أبي الحسن محمد بن عمر ويستوحش مني لأجله) .

ولعلكم أيها السادة في غنى عمن يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر بالله ونادى بشعاره في أسواق بغداد ، وكتب على الطائع كتاباً بالخلع وتسليم الأمر إلى القادر ، شهد فيه الشهود عليه . والمُلك لله الواحد القهار .

ولكن ألا ترون من الظلم أن يقال إن موقف الشريف شبيهٌ بموقف البحتري، وإن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحتري عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثتين لا يتمّ إلا من الوجهة الشكلية ، أما من حيث الجوهر فهو مفقود ، لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع ، فقد استطاع بلباقته وبراعته أن يُقنع العالم الإسلامي بأن الخلافة باقية ، وأنها لا تزال تملك مصاير الامور : فترفع من ترفع ، وتخفض من تخفض ، وكذلك كان الفتك به في مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء .

أما الطائع فتولى الخلافة وهي كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة ولا يُحسَب لها يوم الرّوع حساب ، ومن المؤكد أن الشريف لم ير فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئاً جديداً ، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق في غاية من البشاعة والقبح ، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذي وقع للمستكفي بالله يوم دخل عِز الدولة ومعه أتباعه ، والمستكفي على سرير الخلافة ، فقبّلوا الارض بين يديه ، ثم تقدم اثنان كأنهما يريدان

تقبيل يده فمدها إليها وهو متلطّف متر فق فجذباه وطرحاه إلى الارض ووضعا عمامته في عنقه ثم جرّاه مهيناً ذليلاً ليُعتقَل في دار عز الدولة .

ومن هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفي بالله وما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضي كان يتوقع هذه الحوادث ، وترون انه كان يعرف ما يصنع في مثل هـــذه المواقف ولست استبعد أن يكون الشريف وطّن نفسه على إيثار السلامة إن وقع مثل هذا الحادث ، لأن الظروف لم تكن تسمح أبداً بتأليف جيش يحارب الديلم ويناصر بني العباس .

والقصيدة التي اشرنا اليها منذ لحظات تشهد بذلك ، فهي قصيدة رجل يكرثه التضجر والتألم ولا يهتاج للقتال ، لأنه كان يعرف ان القتـــال لا يُطلب منه في مثل تلك الحال .

أضيفوا إلى ذلك انه كان جرّب الحوادث وجربته الحوادث ، فكان يذكر بالتأكيد ان عضد الدولة اعتقل أباه وصادر أملاكه ، ثم نفاه ، ومع ذلك لم تسقط السماء على الارض ، ولم يُمتشَق في سبيله سيف ، ولم يُبذَل في الدفاع غير قطرات من الدمع . وما أضيع من لا يحامي عنه أنصاره بغير الدمع !

لست من القائلين بأن الشريف لم يكن يهمه أمر الطائع : فذهني لا يسيغ هذا النوع من الدفاع عـــن الشريف ، لأني اعتقد أن الشريف كان صادقاً كل الصدق في مودة الطائع ، ولعله اصدق علوي مـــدح العباسيين وأطال عليهم الثناء .

ان الاستاذ عبد الحسين الحلي نظر إلى الشريف من وجهة مذهبية حين حكم بأنه كان يداري الطائع ، أما انا فانظر الى الشريف من وجهة إنسانية ، واعتقد ان الشريف لم يكن مداجياً ولا مرائياً ولا وصولياً في

مودته للطائع ، وإنما كان يراه بقية من بقايا بني العبـــاس الذين اذاعوا معاني العظمة في الامم الاسلامية زمناغير قليل، وكان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة وتنهار أمامـــها الشعوبية .

ولستُ بهذا القول أعطي الشريف ما لم يكن له أهل ، لا، فليس من همي ان امنح الشريف ما لا يملك ، وإنما اقول هذا القول فراراً من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بانه توجع لنكبة الطائع، ويشهد بانه تألم لتكوله عن الدفاع عنه في ذلك اليوم المشئوم .

وشاهد ذلك ايها السادة ان الشريف لم يكتف بالقصيدة التي صوَّر بها ما وقع في ذلك اليوم ، وانما آذاه وارمضه ان يرى الطائع مخلوعاً يعيش على هامش الحياة بعد ان كان بالامس خليفة يُبرم ويَنقض ، ويُعطي ويمنع ، وكذلك رأيناه يقول :

إن كان ذاك الطَّود خرَّ	فبعد ما استعلى طويلا[1]
موفٍ على القُلَل الذواهـ	ـب في العُلا عرضاً وطولا[2]
قَرْمٌ يسدِّد لحظهُ	فترى القُروم له مُثُولا[3]
ويُرَى عزيزاً حيث حلَّ	ولا يُرَى إلا ذليـــلا[4]
كالليث إلا انه اتخـ	ـذ العُلا والمجد غِيلا
وعَلاَ على الأقران لا	مِثلاً يعدُّ ولا عديلا[5]

---

(١) الطود : الجبل ، وخر سقط

(٢) القلل جمع قلة وهي القمة

(٣) القرم بالفتح الفحل

(٤) يرى الاولى بالبناء للمفعول وكذلك الثانية ، والمعنى أنه على عظمته متواضع .

(٥) المعنى أنه علا على أمثاله فلا شبيه ولا مثيل

من معشر ركبوا العلا   وأبوا عن الكرم النزولا

كَرُموا فُروعاً بعد ما   طابوا وقد عُجموا أصولا[1]

نسبٌ غدا رُوّادهُ   يستنجبون لنا الفحولا

يا ناظر الدين الذي   رجع الزمانُ به كليلا

يا صارم المجد الذي   مُلِئتْ مضاربه فُلولا

يا كوكب الأحساب اعجـ   ـلك الدُّجى عنا أفولا

يا غارب النِّعم العظام   غدوت معموداً جزيلا[2]

يا مُصعَب العليــاء قا   دتك العلا نِقضاً ذَلولا[3]

لهفي على ماضٍ قَضى   ان لا ترى منهُ بديلا

وزوال ملكٍ لم يكن   يوماً يقدّرُ ان يزولا

ومنازلٍ سَطَر الزما   نُ على معالمها الحُؤولا

من بعد مـــا كانت عـ   ـلى الأيام مرْباةً زَلُولا[4]

والاسد ترتكز القنا   فيها وترتبط الخيولا

من يُسبغ النعم الجسا   مَ ويصطفي المجد الجزيلا

من ينتج الآمال يو   مَ تعود باللّيان حُولا[5]

---

(١) العجم هو الاختبار ، والاصل فيه أن يعض الرجل القناة ليعرف صلاحيتها لعمل الرماح

(٢) الغارب هو الكاهل ، والمعمود المجروح ، والجزيل هو البعير الذي يقطع القتب غاربه .

(٣) المصعب : الفحل ، والنقض بالكسر المهزول ، والذلول : الطيع .

(٤) المرباة : المكان المرتفع ، والزلول التي يزل ويسقط من يعلوها .

(٥) حول جمع حائل وهي الناقة لم تلقح

من يورد السُّمر الطوا ل ويُطعم البيض النُّصولا
من يزجر الدهر الغشو م ويكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دوننا وادي النوائب ان يسيلا[1]
عقَّاد ألوية الملو ك على الملاجيلًا فجيلًا
هذا وكم حربٍ تبزُّ الا سد سطوتها الغليلا
صمَّاء تخرس آلمًا الا قِراعاً او صهيلا
والخيل عابسةٌ تجرُّ من العَجاج بها ذيولا
اجتابَ عارضها وقد رحل المنون به همولا
كالثائر الضرغام وإن لبس الوغى دقَّ الرعيلا
صانعتُ يوم فراقهِ قلباً قد اعتنق الغليلا
ظمن الغنى غني وحوَّ لَ رحـــله الا قليلا
ان عاد يوماً عـــاد و جه الدهر مقتبلاً جميلا
ولئن مضى طوع المنو ن مؤمِّا تلك السبيلا
فلقد تخلف مجـــدهُ عبئاً على الدنيا ثقيلا
واستذرت الأيام من نفحاته ظلاً ظليلا

وانما نقلنا هذه القصيدة على طولها لتروا كيف كان وفاء الشريف فمثل هذه القصيدة لا ينظمها رجل متظرف ولامتكلف، وانما ينظمها رجل محزون وقـــد عالجنا الشعر سنين فرأيناه لا يُسلم زمامه لغير الأوفياء، والشريف في هذه القصيدة وفيٌّ امين .

---

(١) في هذا البيت خيال طريف

وارجوان تتذكروا ان هذه القصيدة نُظمت في شعبان من سنة ٣٨١ اي في خلال الأيام العصيبة التي اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهي من اظهر الشواهد على جسارة الشريف .

...

وفي سنة ٣٩٣ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعاً أكثر من عشر سنين وهو في رعاية القادر، وهي رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ فهل تغافلَ عنه الشريف ؟ هيهات ، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهدٌ على ما كان يملك من الشرف والنبل . وفي الاولى يقول :

إن للطائع عندي مِنّةً ... وحمىً قد بلّها لي ببلالي

ليس يُنسيها وإن طال المدى ... مَرُّ أيامٍ عليها وليالي

فاتني منك انتصارٌ بيميني ... فتلافيت انتصاراً بمقالي

وهذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم لنكوله عن نصرة الطائع يوم الدار ، يوم هجم عليه بهاء الدولة وأنصاره المجرمون .

وتلك قصيدة طويلة يراها القارىء في الديوان ، أما القصيدة الثانية فمطلعها :

ما بَعدَ يومك ما يسلُو به السالي ... ومثلُ يومك لم يخطر على بالي

والمهم أن نسجل أن الشريف ظلّ يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك بخفيةً بقصيدة نتخير منها هذه الأبيات :

ومؤمَّر نزلوا به في سُوقةٍ ... لا شكلُه فيهم ولا قرناؤه

قد كان يفرق ظله أقرانه ... ويغضُّ دون جلاله أكفاؤه

ومحجب ضُربت عليه مهابةٌ ... يعشى[1] العيون بهاؤه وضياؤه

(١) في الديوان (يغشى) بالغين المعجمة وهو تحريف .

نادته من خلف الحجاب منيةٌ أممٌ فكان جوابَها حوباؤه [1]
شقت إليه سيوفه ورماحهُ وأميط عنه عَبيده وإماؤه
لم يُغنهِ من كان ودَّ لو أنــــه قبل المنون من المنون فداؤهُ
حرَمٌ عليــــه الذل إلا أنهُ أبداً ليشهد بالجلال بناؤه
أقنى الحيــــاء تجمُّلاً لو أنه يبقى مع الدمع اللجوج حياؤه
فاذهب فلا بقيَ الزمان وقد هوى بك صَرفهُ وقضى عليك قضاؤه

ومن كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرائياً في حب الطائع، وانه ندم على أن لم يدفع عنه بيمينه، وانه ظل وفياً له بعد الخلع وبعد الممات. والظاهر ان الطائع كان أحسن إلى الشريف وإلى أبيه، والاحسانُ يحفظه كرام الرجال وكان الشريف من الأكرمين.

قد تسالون: وماذا صنع الشريف بعد خَلع الطائع؟

ونجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، وهل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدَّد شرف الخلافة العباسية، وجعله موطّداً للبناء الذي وضع قواعده أبو العباس السفاح، واستباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجدٌ، أميرَ المؤمنين، أعدتَه غضاً كنور المُورق الميَّاسِ
بعثتَ في قلب الخلافة فرحةً دخلتْ على الخلفاء في الأرماس
ومكيدةٍ أشلَى عليك نيوبَها غضبانُ للقربى القريبة ناسِ
فَغَرتْ إليك فغتَّها وتراجعتْ ففَرَته بالأنياب والأضراس

ثم مدحه بقصيدة «لمن الحدوج تهزهن الأينقُ».

وهي القصيدة التي ختمها بقوله:

---

(١) لمم بالتحريك: قريب، والحوباء: بقية النفس.

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرّقُ

ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ أبداً كلانا في المعالي مُعرِق

إلا الخلافة ميّزتك فإنني أنا عاطلٌ عنها وأنت مطوّق

فقال له القادر : على رغم أنف الشريف !

وكانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفرقة بين الرجلين ، فانصرف الشريف عن مدح القادر وأسقطه من حسابه ، ثم مضى يمدح الوزراء والملوك ولذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت في هذا المساء .

•••

صلات الشريف الرضي

بالوزراء والامراء والملوك

ايها السادة :

حدثناكم عن صِلات الشريف بالخلفاء ، وفي هذه الليلة نحدثكم عن صلاته بالوزراء والامراء والملوك . وكنت أستطيع إغفال هذا البحث ، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلات ، ولكني راعيت الأدب معكم فآثرت الاستقصاء .

والواقع ان مدائح الشريف ليست كسائر المدائح ، لأنه لم يكن يتكسب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يَفِدون من بلاد بعيدة ليبيعوا أشعارهم في بغداد ، وإنما كانت مدائحه شاهداً على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت تثور في فارس وفي العراق ، فالشريف الرضي شاعرٌ سياسيٌّ ، أعني أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية ، أو عنوان على متابعته لتقلب الأحوال السياسية ، فهو شاعر « متحرك » كما يعبّر أهل بغداد في هذه الايام .

ويجب النص أيضاً على ان ممدوحيه لم يكونوا من الاغبياء ، فاكثرهم كان يتذوق البلاغة العربية ، وأكثرهم نوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمون بكرائم المعاني ، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أَنِس بارواحهم وأذواقهم ، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد .

والمهم عندي أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء والملوك لم يكن حرصاً على منفعة رخيصة تُقوَّم بالدراهم والدنانير ، وإنما كان حرصاً على منفعة عالية ، هي أن يكون رجلاً له شأن في تصريف

المعضلات السياسية ، وقدتم له من ذلك بعض ما أراد ، فاستطاع انيكون صلة الوصل بين الحجاز والعراق وبين فارس والعراق، و بين الشام والعراق وإليكم أسوق بعض الامثال :

كانت إمارة الحج إلى أبي أحمد الموسوي ثم إلى ابنه الشريف الرضي ، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة ؟ قد يكون ذلك، ولكني أرجو أن تصدقوني إذا قلت إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه ان يكون على صلات بالقبائل العربية التي كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام . والتاريخ يشهد بان أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان انصرفوا عن الحج أعواماً كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق ، وكان يتفق في احيان كثيرة أن تُنهَب قوافل الحجيج وان يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين ومجروحين ، ولا يكفي ان يقال ان الموسوي كان من الفرسان ، وإن ابنه الرضي كان من الفرسان ، وإنما يجب ان نفهم ان هذين الرجلين كانا يعرفان قيمة الصداقة في العلائق «الدبلوماسية» فكانا يتصلان اتصالا وديًا باكثر القبائل وينالان بالسلطة الروحية مــا تعجز السيوف .

وقد رأيتم فيما سلف ان الموسوي كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين وليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادي والجيش الفارسي، وهذا يشهد بأن تسوية الشؤون المعقدة بين فارس والعراق كانت توجب ان يكون في العراقيين رجال يؤتمنون على الارواح ، ويهمهم ان يسود الصفـاء بين أمم تُفرّقها العُنصرية ويجمع بينها الدين .

وكانت اشعار الشريف نوعاً من الدعاية للعراق في زمن لم تكن فيه جرائد ولا مجلات : فكان يوزّع مدائحه ذات اليمين وذات الشمال على من

يتوسم فيهم القدرة على إنصاف العراق ، وكان ابوه من قبلُ يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الادبية والدينية ، وذلك أسلوبٌ من التلطف لا يبرع فيه إلا الأقلون . أترونني أفصحت عما اريد؟ انا اريد ان اقرر ان الشريف كان في مدائحه للخلفاء والوزراء والملوك رجلا سياسياً ، والسياسة لاتنافي الصدق في جميع الاحوال فهو كان يصادق ويعادي في سبيل وطنه الذي جار عليه الزمان في تلك العهود .

وكان يحاول ان يغنم لوطنه اصدقاء بين اولئك الذين حوّلوا منادح العراق إلى معسكرات .

وقد حملته هذه الرغبة على ان يفكر تفكيراً جدياً في مصاهرة ابي علي وزير بهاء الدولة ، وكان بهاء الدولة كاسترون قطب الاقطاب في ذلك الزمان . وهذه المصاهرة لم تكن إلا وسيلة سياسية ، فقد كان يدرك جيداً ان الوزراء في ذلك العهد كان اليهم زمام الملوك ، لانهم كانوا يصلون الى الوزارة بأموالهم وعصبياتهم ، وكان اليهم الامر المطلق في اكثر الشؤون .

وعقلية الشريف كانت عقلية سياسية : فهو يسترخص كل شيء في سبيل المجد ، ويستبيح اشتراء المناصب ، وقد اتفق مرة ان يهجم قوم في حضرته على رجل اسرف في البذل لينال الوزارة على البديهة :

اشترِ العز بما بيـــعَ فما العزُّ بغالِ
بالقِصار الصُّفر إن شئت أو السُّمر الطوالِ
ليس بالمغبون عقلًا من شرَى عزاً بمال
إنمـــا يُدَّخر المـــالُ لحاجات الرجال
والفتى من جعل الامـــوالَ أثمان المعالي

وما نريد أن نغض من شاعرنا ، وإنما نريد أن نصوره على ما كان عليه من أخلاق ، وليس يؤذيه أن نستبيح من التعبير ما استباح .

ثم أقول مرة ثانية إنه كان يريد أن يتزوج زواجاً سياسياً ، والزواج السياسي معروف من قديم الأزمان ، وقد أباحه الرسول ﷺ فدخل في مصاهرات كثيرة لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية ، وما على الشريف من لوم في أن يسلك ذلك المسلك المقبول، ليكون صلة الوصل بين فارس والعراق.

ولكنه ــ وا أسفاه ــ خاب في مسعاه !

وقد سجّل خيبته الأليمة بقصيدتين : الاولى بائية ، والثانية دالية .

وكان يجب أن نقف طويلاً في تشريح هاتين القصيدتين ، ولكن أين الوقت ؟ فيكفي أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية ، وكان للرجل وهو من شعراء الوجــدان أن يتألم لضياع البخت من فتاة نشات في النعيم . والحسنُ المنعَّم له مَذاقٌ خاص . ولكنه وقف حسرته على ضياع المطمَع السياسي فقال في مطلع البائية :

أمانيُّ نفس ما تُناخ ركابهــا ... وغيبة حظٍّ لا يُرَجّى إيابها
ووفدُ همومٍ ما أقمت ببلدةٍ ... وهنَّ معي إلا وضاقت رحابها
وآمال دهر إن حسبت نجاحها ... تراجعَ منقوضاً عليَّ حسابها

ثم قال :

ألا أبلغا عني الموفّق قولةً ... وظنّيَ أن الطَّول منه جوابها[1]
أترضى بأن أرمي إليك بهمتي ... فاحجَب عن لُقيا عُلّا أنت بابها

---

(١) الطول بالفتح هو الجود

وأظما إلى درِّ الأمـــاني فتنثني باخلافـــها عني ومنك مصابها[1]
وليس من الإنصاف أن حلقت بكم قوادم عزٍّ طاح في الجو قـــابها[2]
وأصبحتُ محصوص الجناح مهضَّما عليَّ غواشي ذِلّةٍ وثيـــابها[3]
تعِدُّ الأعـــادي لي مرامي قذافها وتنبحني أنى مررتُ كلابـــها
لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعي إلى غيركم حيث العُلا واكتسابها[4]
فهذي المعالي الآن طواعى لأمركم وفي يدكم أرسانهـــا ورقابها[5]
إذا لم أرد[6] في عزكم طلب العلا ففي عز من يُجدي عليَّ طلابهـــا

وهذه الأبيات صريحة في أنه لا يبكي ضياع الحظ من فتاة جميلة كان يشتهي أن تكون أنس حياتـــه ، وإنما هو يبكي فرصة سياسية ضاعت بضياع تلك المصاهرة المشتهاة.

وفي القصيدة الثانية يقول:

لك الله ما الآمالُ إلا ركائبٌ وأنت لها هادٍ وحادٍ وقائدُ
أبي لك إلا الفضلَ نفسٌ كريمةٌ ورأيٌ إلى فعل الجميل مُعاود
وطودٌ من العلياء مُدَّتْ سموكهُ فطالت ذُراهُ واطمأن القواعد
وإني لأرجو من علائـك دولةً تذللُ لي فيـــها الرقابُ العوائد
ويوماً يُظِل الخافقين بزنـةٍ رَذَاذُ غواديها الرؤوسُ الشوارد[7]

---

(١) الاخلاف : الانداء ، والمصاب بفتح الميم مصدر الصوب أي الأنصباب
(٢) القاب : الفرخ ، وهو أيضاً ما بين المقبض والسية من القوس
(٣) الجناح المحصوص هو الذي تساقط ريشه ، ويقال كذلك رأس محصوص
(٤) الذرائع جمع ذريعة وهي الوسيلة
(٥) الارسان جمع رسن بالتحريك وهو الحبل وما كان من زمام على أنف
(٦) من ورد يرد
(٧) الغوادي جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة أو مطرة الغداة ، والرذاذ على وزن سحاب هو المطر الخفيف ، وهذا البيت من وثبات الخيال .

لأعقدَ مجداً يُعجزُ الناسَ حَلّهُ | وتنحلُّ من هام الأعادي مَعاقد
فمن ذا يراميني ولي منك جُنةٌ[1] | ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد
عليَّ رداءٌ من جمالك واسعٌ | وعنديَ عِزٌّ من جلالك خالد
فلا تتركني عرضةً لِضاغنٍ | يُطارد في أضغانه وأطارد
ولا صدودٌ منك هانت عظائمٌ | تَشُقُّ على غيري وذَلّت شدائد
ولكنك المرءُ الذي تحت سُخطهِ | أسود ترامى بالردى وأساود[2]

وهذا المطمح هو من شواهد الفحولة في الشريف ، الفحولة الحسية والفحولة المعنوية ، وكان شاعرنا يتشهى أن يحكم ويستطيل ، وشهوة التحكم والسيطرة من أشرف عيوب الرجال .

أيها السادة :

ما أحب أن أضجركم فاطوف بكم على جميع ما دونتُ من صلات الشريف بالوزراء والملوك، ويكفي أن تتضح الفكرة في أذهانكم لترجعوا إلى أصولها في ديوانه حين تشاءون .

ولكن لا بدّ من الوقوف عند مسالتين مهمتين : الاولى صلات الشريف بالحمدانيين ، والثانية صلاته ببهاء الدولة الذي كان في زمانه ملك الملوك .

أما صلاته بالحمدانيين فلها اصول سياسية يعرفها المطلعون على التاريخ وربما جاز أن نحكم بأن هواه معهم يرجع أيضاً إلى أصول وجدانية ، فقد كان يعطف على إحدى نسائهم ، أو كانت إحدى نسائهم تعطف عليه . وقد مرت لذلك إشارة لا نعود اليها في هذا المساء . والرجل قد يعطف على أمة بأسرها من أجل امرأة يهواها أو تهواه .

---

(١) الجنة بالضم هي الوقاية

(٢) الاساود جمع اسود وهي الحية المائلة

وعواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر في مراثيه لمن عرف من رجالهم، كان يقول :

وسربٍ بنو حمدانَ كانوا حماتَه رعتْ فيه ذؤبان الليالي العوائثُ
فاين كُفاة القَطر في كل أزمةٍ وأين اللاجي منهم والمغاوث
وأين الجياد المعجّلات إلى الوغى إذا غام بالنقع الملا المتواعث[1]
إذا ما دعا الدعوان للباس والندى فلا الجودُ متزورٌ ولا الغوث رائث[2]
يرفُّ على ناديهم الحلم والحجا إذا ما لغا لاغٍ من القوم رافث[3]
من المطعمين الجدَّ بالبيض والقنا ملاء المقارى والعريب غوارث[4]
إذا طرحوا عِمّاتهم وضحتْ لهم مفارقُ لم يَغْضب بها العار لائث[5]

وقد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين وهو يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة، ويظهر أن صداقته لذلك الامير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدقَ رثاء، وتفجّع عليه أوجع تفجُّع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا وأن يردّ عليهم الشريف فيقول :

ألام أبي رثيتُ زافرةً[6] كانوا نجوم الفَخار أوْ لُمَعَه
إن لا تكن ذي الاصول تجمعنا يوماً فإن القلوب مجتمعه
كم رحمٍ بالعقوق نقطعها ورَحمُ الود غير منقطعه[7]

وللشريف في ذلك الامير مرثيتان، الاولى دالية :

---

(١) المتواعث الكثير التراب، والملا : الصحراء،
(٢) متزور قليل، والرائث : البطيء .
(٣) الرافث الذي ينطق بالفحش،
(٤) المقارى في الاصل رؤوس الاكام وهي هنا الجفان، والغوارث الجياع ويقال الجائع غرثان .
(٥) العمات جمع عمة بالكسر لغة في العمامة، وهي مستعملة في مصر
(٦) الزافرة : الجماعة . (٧) هذا بيت نفيس

تفوزُ بنا المنون وتستبدُّ ويأخذنا الزمان ولا يَرُدُّ
وأنظر ماضياً في عُقبِ ماضٍ لقد أيقنت أن الامر جِدُّ

ثم يخاطب المبكيَّ فيقول :

أإبراهيمُ أما دمع عيني عليك فما يُعَد ولا يُحَدُّ
يُغصِّص بالاوائل منه طَرفٌ ويدمَي بالاواخر منه خَدُّ
بكيتك للوداد ورب باك عليك من الاقارب لا يودُّ
وإن بكاء من تبكيه قُربي لَدونَ بكاء من يَبكيه ود[1]

ثم يقول في تحقير من قتلوه :

قتيلٌ فَلَّه ناب كهام وكان العَضب ضوَّاه الفِرِنْد
وذَلٌّ بذل قاتله فاضحى لقاتله به عِزٌّ ومجد[2]
فيا أسداً يصول عليه ذِئبٌ ويا مولًى يطول عليه عبد

والقصيدة كلها على هذا النسق الطريف .

أما القصيدة الثانية فهي اعجوبة في الجودة والرصانة والخيال ،وسنعود إلى درسها حين نتكلم عن المراثي في السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت إني لن أطيل الحديث عن صلات الشريف بالوزراء والامراء وإني سانتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، ولكن لا بدّ من تذكير القارىء بان هناك شخصيات سياسية عرضنا لها في مواطن مختلفة من هذه المحاضرات ، أمثال شرف الدولة وعبد العزيز بن يوسف والصاحب بن عباد .

وقبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له

(١) أرجو القارىء أن يتأمل في عذوبة هذه الأبيات
(٢) وهذا أيضاً بيت نفيس .

ذوقٌ لطيف في التفرقة بين مقامات الخلفاء ومقامات الملوك ، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفي بارسال القصائد اليهم وقد فَطِن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية فاغتابوه عند بهـاء الدولة واتهموه بالتكبر والازدهاء .

فلما بلغته الدسيسة كتب إلى بهاء الدولة يقول :

جَناني شجاعٌ إن مدحتُ وإنما | لسانيَ إنْ سِيمَ النشيد جبانُ
وما ضرَّ قوّالاً أطاع جنانهُ | إذا خانه عند الملوك لسان
ورُبَّ حييٍّ في السلام وقلبُهُ | وقاحٌ إذا لفَّ الجياد طِعان[1]
ورُبَّ وقاح الوجه يحمل كفّهُ | أناملَ لم يَعْرَق بهنّ عنان[2]
وفخرُ الفتى بالقول لا بنشيدهِ | ويروي فلانٌ مرةً وفلانُ

وللشريف في بهاء الدولة مدائح كثيرة جداً .

فمن هو بهاء الدولة ؟ أكان يستحق ان يُنفق الرضي في سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد ؟

نَظلم الأدب والتاريخ ونظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارىء يفهم أن بهاء الدولة لم يكن إلا طاغيةً يُجيد ثَلَّ العروش كالذي صنع مـع الطائع .

كان بهاء الدولة مع غطرسته شخصية فارسية مصقولة الحواشي ، وكان يتذوق الأدب الرفيع ، وكانت له أخلاق .

إي والله ، كانت له أخلاق !

والشاهد الآتي يُفصح عما نريده :

كان لشرف الدولة خـادم اسمه نحرير ، وكان وفياً لسيده اصدق

(١ – ٢) في هذين البيتين يفرق الشاعر بين الوقاحة في القلب والوقاحة في الوجه والوقاحة هنا معناها الشجاعة ، فهي في هذا المقام كلمة ثناء .

الوفاء ، وكان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتد شوقه إليه ، فلما تُوفي شرف الدولة وتولّى الامر بهاء الدولة كان هم الملك الجديد أن يجتذب نحريراً اليه ليجري في خدمته على ما كان يجري عليه في خدمة أخيه .

ولكن نحريراً امتنع ، وتظاهر بلبس الصوف ، ليفهم الناس أنه طلق دنياه [1] .

قال الراوي : كنت قائماً بين يدي بهاء الدولة وهو يخاطب نحريراً بقوله : لا تزهد فيّ مع رغبتي فيك ، فانا أولى بك على ما كنت عليه من قبل ونحرير يقبّل الارض ، ويستعفي إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية وقد دمعت عيناه : إفعل لله ! فاقام نحرير على أمر واحد في اللجاج الذي لا يقابَل الملوك بمثله وانصرف من بين يديه [2] .

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحرير .

قال الراوي :

وبقي أبو الحسن محمد بن عمر ونحرير ، فقال له محمد بن عمر : يا هذا ، قد أسرفت في الدالة [3] ومن أنت وما قدْرُك حتى تمتنع من خدمة هـذا الملك العظيم ـ وأغلظ [4] له في القول ونحرير مطرق ـ فلما زاد الأمر عليه رفع رأسه وقال له : أيها الشريف ! أين كان هذا القول منك في أيام مولاي وأنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمتُ في وجهك ؟ فاما الآن وأنا على هذه الحال فاستعمالُ ما أنت مستعمله لؤم قُدرة ، وسوء ملكة ، وكيف

---

(١) هذا شاهد جديد على أن التصوف مشتق من الصوف ، وهو يؤيد ما قلنا به في كتاب « التصوف الاسلامي »

(٢) تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٤ طبع مصر بعناية مرجليوث

(٣) في تجارب الامم (الدولة) وهو تحريف

(٤) في طبعة مرجليوث (فاغلظ) وما أثبتناه أصح

الام على ترك الدنيا بعد مَلكٍ ابتاعني بالف درهم ثم رفعني إلى أن كنت تخدمني ولا أخدمك ، وتحتاج إليّ ولا أحتاج إليك [1] .

وما نريد أن ناتي على بقية القصة ، فليس يسر القارىء أن يعلم ما صنعت الدسائس التي انتهت بقتل نحرير ، فقد يكون في ذلك مـــا يُحقِّر الجنس الذي اشترك في تكوينه آدم وزوجته حواء !

وأريد أن أقول أيها السادة إن بهاء الدولة كان رجلا له قلب وذلك مما يعطف عليه شاعر مثل الشريف ، وهو قد استطاع أن يُثبِّت قواعد الملك في العراق والموصل وخوزستان وشيراز وكرمان ، واستطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها ويقيم في خوزستان ويولّي عليها حاكما يسميه عميد العراق .

ومعنى ذلك أن العراق شهد في عهده أطياف الرخاء .

...

قلت إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع ، وشاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر فيرسل اليه القصائد الوحشية والقصائد الإنسية .

كان يخاطبه بالشعر الوحشي فيقول :

رأى على الغور وميضاً فاشتاق ... ما أجلب البرقَ لماء الآماق

ما للوميض والفؤاد الخفاق ... قد ذاق من بين الخليط ما ذاق

داء غرام ما له من إفراق ... قد كلّ آسية وقد ملّ الراق

لآل ليلى في الفؤاد أعلاق ... تزيد من حيث تقضي الاشواق

إلى آخر القصيدة وهي طويلة .

وكان يخاطبه بالشعر الإنسي فيقول :

---

(١) ص ١٥٥ – ١٥٦

خلِّ دمعي وطريقَهْ أحرام أن أريــــقه ؟

كمْ خليطٍ بان عني ما قضى الدمعُ حقوقه

يا شقيقي والقنا يُغـ ضِبُ في العدل شقيقَه

عاصياً ناصحه الآقـ رب ودًّا ورفيقه

من لبرق هبَّ وهناً من أبانين وسوقَه[1]

من شريقيّ الحمى ينشد نجداً وعقيقه

مـــن غمام كالمتالي ينقل الليل وُسُوقه[2]

لاحَ فاقتاد فؤاداً عازبَ اللبِّ مَشوقه

طـــال ذكر النفس أرواح زَرود وبُروقه

وعقـــابيل غرام يُذكِر القلب حقوقه

وخيال دلس القلـ بُ على العين طُروقَه

كــذِب تحسبه الصـ بُّ من الشوق حقيقه

أنعمي يا سرحة الحيّ وإن كنت سحيقه[3]

أتمنَّى لـــك أن تبقَيْ على النأي وَرِيـــقه

ثمَرٌ حرَّم واشيك علينا أن نذوقه

وهذا نسيبٌ مُرقِص .

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول :

يا قِوام الدين والفـــا رج للـــدين مضيقه

أنت راعيه وهادِيـ ـه إذا ضل طريقه

(١) أبانين مثنى أبان . وهما جبلان يقال لأحدهما أبان الابيض وللثاني أبان الاسود وانظر بقية الفروض في معجم البلدان . وسوقة بضم أوله موضع بنواحي اليمامة . وقيل ماء وجبل لباهلة (٢) المتالي الابل ، والوسوق جمع وسوق وهو الحمل

(٣) سحيقة :بعيدة

من رجال ركبوا الجد فما ذمّوا عنيقه[1]
معشرٌ كانوا قبيل العز قِدماً وفريقه
وملوك في ثراهم ضرب الجد عُروقه
ومغاوير الحفيظات وفُرسان الحقيقه
حَسَبٌ يحسب من فيه وأعراقٌ عَريقه
من ترى يدفع رَوْقَيه ومن يطلع نِيقه[2]
لهم الأيدي الطوال الطول والبيض الزّليقه[3]
ومواريث مقاري الليل والنار العتيقه
بوجوه واضحات في دجى الأزْل طليقه[4]
وأكفٍّ منفقاتٍ في الندى الغَمْر عريقه
وباخلاقٍ رقاقٍ دون أعراضٍ صفيقه[5]
تخذوا الجد أباً ما استحسنوا قطُّ عقوقه
إن فيهم مَوْلد الملك ومن قبلُ عَلُوقه[6]
ناشئاً تُسلمه الامُّ إلى الظِّئر الشقيقه
هم رَمَوْا عني جليل الخطب يُدمي ودقيقه
طردوا الأيام عن وِرْد دمي طرد الوسيقه[7]

---

(١) العنيق : السير

(٢) الروقان مثنى روق وهو القرن . والنيق بالكسر أرفع موضع في الجبل .

(٣) البيض الزليقة : السيوف الماضية.

(٤) الأزل بفتح فسكون هو الضيق والشدة .

(٥) المراد من صفاقة الاعراض قوتها وصلابتها .

(٦) العلوق على وزن صبور : المرضع

(٧) الوسيقة من الابل كالرفقة من الناس

أطلقوني من إسار الدهـ ـر إطلاق الرّبيقه [1]

إلى أن يقول :

عشتَ تستدرك فيـــنا خطَل الدهر و مُوقه [2]
واثقاً بالدهر تُعطي من رزاياه وثيقه
كلـــما عِفتَ صَبوح الـ ـعمر عوطيتَ غَبوقه
مَطلَع الشارق إن غا بَ رجا الناسُ شروقه
آمن المرتع ترعى روضة العز أنيـــقه
إن يكن عيـــداً فايا مُك أعيـــاد الخليقه
إنها أنوارُ أحدا قٍ ونُوّارُ حديقه [3]
ان تَعلّق الاعادي أسكت الذلُّ نَعيقه
لفظ الملك شجاهُ وأساغ اليوم ريقه

وهذا الشاهد المطوّل لا يهمنا لذاته ، كما تظنون ، وانما يهمنا لدلالته على أريحية الشريف وهو يمدح بهاء الدولة ، وهذه الاريحية تحتاج الى قليل من البيان :

ان الشريف ظل موصول الأواصر بمودة بهاء الدولة نحو عشرين سنة ، وهي مودة كان لها أثر كبير في شاعرة الشريف ، لأنها أفسحت أمامه المجال للتطريب والتغريد ، وراضته على الطواف حول كرائم المعاني ، فقد كان الشريف يحب أن يمدح الرجال ، لا للتكسب ولا للترلف ولكن للمعنى الذي شرحناه في الطبعة الثانية من كتاب « البدائع » وهو معنى دقيق لم يتنبه اليه احد من الذين أرخوا الادب العربي ، فالمدائح

(١) الربيقة البهيمة المربوطة في الربقة
(٢) الموق بالضم هو الحمق في غباوة ، ويقال حمق مائق .
(٣) النوار بضم النون هو الزهر.

كانت سجلا لما يفهم الشعراء من مكارم الاخلاق ، وكان الشريف في حدود هذا الفرض يسره أن يتكلم عن الشمائل والخصال التي ترفع أقدار الرجال.

فمدائح الشريف صورٌ لما كان يؤمن به من الحقائق الاخلاقية، وشاهد على أنه كان في أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاه لممدوحيه من أخلاق.

وهذه القصيدة فيها إشارة إلى ماضي الفُرس ، حتى النار ، وهي في شعره نارٌ عتيقة أي كريمة ، والعتق هو الكرم في الخيل وفي الصهباء .

وأريد أن أقول إن ثناء الشريف على ماضي الفرس كان شواهد تلطفه مع بهاء الدولة ، لأن الشريف له قصائد في تفضيل العرب على الفرس ، وبعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس ، كالقصيدة التي قالها حين اجتاز بالمدائن وشهد إيوان كسرى سنة ٣٩٧ .

قربوهن ليبعدن المغارا   ويبدّلن بدار الُهون دارا

وكان يتفق له أن يتغنى بمجد العرب وما صنعوا في قهر الفرس وهو يمدح بهاء الدولة ، فما تعليل ذلك ؟

أغلب الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب في الحدود التي رسمتها الشُّعوبية ، لأن الفرس أسلموا وتعصبوا أشد التعصب للغة العربية ، وكان إسلامهم واستعرابهم من أهم الامجاد في حياة العروبة والاسلام .

وأغلب الظن أيضاً أن الشعوبية لم تكن نزعةً إجماعية في حياة الفرس وإنما هي مناوشات أدبية أثارها الادباء ، وهم مصدر الشر في بعض الاحيان !

أقول هذا لأفهم وتفهموا كيف جـــاز للشريف أن يذكر انتصار العرب على الفرس في قصيدة يمدح بها بهاء الدولة فينص على أن عارض

الحرب يوم ذي وقار :

رحضَ الاغلف في تيارهِ ورد العلجُ وما كاد يرد [1]

يصطلي نار طعانٍ مضّةٍ أوقدتْ فيها نزار بن مَعسِد

والحقيقة أن الفرس في مؤلفاتهم وأشعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الإسلامية ، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر : إن الإسلام انتصر عليهم ، لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه ، وكانت بلادهم من الحصون التي اعتزت بها لغة القرآن .

وإنما نوهتُ بهذه القضية لاشرح كيف كان الشريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب ومجد الفرس ، وكيف جاز له أن يدور حول هذه المعاني بلا تهيب ولا إشفاق .

وما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث في هذه الأيام ، فالامم الإسلامية في هذا العصر يستقلُّ بعضها عن بعض ، بحيث يظن الغافل أنها كانت كذلك في الايام الخالية ، وما كانت كذلك ، وإنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن ، وإنما كان يشعر بانه يسير تحت راية الاسلام ، ولم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق .

• • •

أيها السادة

كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصةً عظيمة لجموح الخيال ، ففي تلك المدائح لفتاتٌ ذوقية وروحية وخُلُقية .

والذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات ، وفاتهم

---

(١) الرحض : الغسل ، والعلج : الرجل من كفار العجم .

أن الشريف كانت له في مدائحه وثبات غرامية، كان يقول:

من رأى البرق بغوريّ السند | في أديم الليل يَفري ويقُدْ
حيرة المصباح تزهوه الصّبا | خَلَلَ الظلماء يخبو ويَقِد[1]
كلما أنجـــد عُلويُّ السّنا | قام بالقلب اشتياقٌ وقعد
كم أضاء البرق لي من معهد | ذاب دمع العين فيه وجمد
ومغان أنبت الحسن بها | هَيَفاً ترعاه عيني وغَيَد
كلما عاود قلبي ذكرها | لعب الدمع بجفنيَّ وجد
إن ريم السّرب أدنى لي الجوى | ونأى بالصبر عني والجَـــلَد
بندى غضّين غصنٍ ونقاً | وجَنى عَذْبَيْن شَهدٍ وبَرَد

وكان يقول :

ذكرتُ على بُعدها من منالي | منازل بين قبا والمـــطال
ومبنى قبابِ بني عامر | على الغَور أطنابهن العوالي
عقائل علّمهن العفافُ | وصل المِطال ومَطل الوِصال
مرابع يشكو بهن الجراح | أسودُ الشّرى من ظباء الرمال
مضاحكهنّ عقود العقود | وأجيادهـــن لآلي اللآلي
أبعد الأسى عاد عِيد الغرام | وقَرفٌ من الشّوق بعد اندمال[2]
هوًى بين مقتصٍّ إثر الغزالِ | ولي ومنتص جيد الغزال[3]
وما طلبُ البذل من باخلٍ | بميسورهِ غير داءٍ عُضالِ
وما زال يلوي ديون الهوى | ويؤيسنا من قليل النوال

(١) يقد : مضارع وقد .
(٢) القرف قشر الجرح (٣) منتص الجيد : مرتفع العنق .

إلى أن قنعنا بزورْ المزار بعد النوى وخيال الخيال [1]

وكان يقول :

زارَ والركبُ حرامُ أوداعٌ أم سلامُ
طارِقاً والبدر لا يحفزهُ إلا الظلامُ
بين جَمْعٍ والمصلى ريمُ يِعربٍ لا يرام
وحُلولٌ ما قِرَى نا زلهم إلا الغرام [2]
بدّلوا الدور فلما نزلوا القلب أقاموا
يا خليليّ اسقياني زمن الوجد سَقامُ
وِصفالي قُلْعَةَ الركـ ـب ولليلِ مُقامُ [3]
من ألالِ حفزوا العيـ ـس كأريع النّعام [4]
فزفيرٌ ونشيجٌ وعجيجٌ وبغام
ومِنًى أين مِنًى مـ ـني لقد شطَّ المرام
هل على جَمْعٍ نزول وعلى الَخيف خيام
ياغزال الجزع لو كا ن على الجزع لِمامُ
أحسد الطوق على جيـ ـدك والطوق لِزام
وأعضّ الكف إن نا لَ ثناياك البَشام [5]

---

(١) الزور بالفتح هو الزائر ، والمراد بزور المزار طيف الزيارة .

(٢) الحلول : المقيمون

(٣) القلعة بضم القاف الارتحال . والليل مقام : إشارة إلى الرحيل في ظلام الليل .

(٤) ألال على وزن سحاب : اسم جبل بعرفات ، قال ياقوت : وأما اشتقاقه فقيل نه سمي ألالا لأن الحجيج إذا رأوه ألوا : أي اجتهدوا . وقد ذكره الشريف في قصيدة أخرى فقال :

فأقسم بالوقوف على ألال ومن شهد الجمار ومن رماها
لأنت النفس خالصة وإن لم تكونيها فأنت إذن مـــناها

(٥) البشام على وزن سحاب شجر يؤخذ منه السواك .

وأغارُ اليوم إن مرَّ على فِيك اللــثام
أنا عرَّضتُ فؤادي أولُ الحرب كلامُ
أن جعلتُ القلب مرمى كَثُرتْ فيه السهام
من يداوي داء أحشا ئك والداء عُقام[1]

وأنا أكتفي بهذه الشواهد الثلاثة لاريكم أن مدائح الشريف في بهاء الدولة تجمع أطايب من المعاني الذوقية . والقطعة الاخيرة مــــن الشعر النفيس ، وعهدي بالاستاذ محمد الهياوي يرحل من « حدائق القبة » إلى القاهرة ليسمعها مـــــن الاستاذ أبي بكر المنفلوطي ، كان الشريف هو وحده الذي يحسن أن يقول :

زارَ والركبُ حرامُ أوداعٌ أم سلامُ

أما المعاني الروحية فكثيرة ، يمثلها تلطفه مع بهاء الدولة إذ يقول :

لا ضَحا ظلكمُ يومـــاً ولا مطل الإقبال منكم ما وعد
وتفارطتم على رِفْهِ السُّرَى مورد النعماء والعيش الرغد[2]

وإذ يقول :

سيبلو منك هذا الصوم خِرْقاً رحيب الباع فضفاض الرداء[3]
تصوم فلا تصوم عن العطايا وعن بذل الرغائب والحِباء

وإذ يقول :

لا زعزعتك الخطوبُ يا جَبَلُ وبالعدا حلَّ لا بك العللُ
قد يُوعَكُ الليث لا لذلته على الليالي ويسلَم الوَعلُ[4]

---

(١) داء عقام بالفتح والضم ، والضم أفصح : لا يبرأ منه
(٢) تفارطتم : تقاسمتم .
(٣) الخرق بالكسر الظريف في سخاوة والفتى الحسن الكريم الخليقة .
(٤) الوعل : تيس الجبل .

لا طَرقَ الداءُ من بصحته يصح منا الرجاء والأمل
حاشاك من عارض تُراع به ذاك فتورُ النعيم والكسلُ
النجم يخفى وأنت متضحٌ والشمس تخبو وأنت مشتعل
ما صرف الدهر عنك أسهمَهُ فكل جرح يصيبنا جَلل[1]
باقٍ تخطّاك كل نائبةٍ إلى العدا والنوازل العُضلُ
فما يقول الأعداء لا بلغوا السُّ ؤْل ولا أدركوا الذي أمَلوا
بنا الأذى لا بكم إذا نزل الخَ طب طَروقاً وصمّم الأجل
ودمتمُ للعُلا وعيشُكمُ غضٌّ وراووق عزكم خَضل
لا عجبٌ أن تَقيكمُ حذراً نحـــن جُفونٌ وأنتمُ مُقَل

وإذ يقول في تعزيته عن إحدى بناته وهي التي عقد عليها للخليفة القادر بالله :

لَمان الغمد ما بقيَ الحسام وبعضُ النقص آونةً تمامُ
إذا سلك العلا سَلِمَتْ قواه فلا جَزَعٌ إذا انتقص النظام
وأهون بالمناكب يوم يبقى لنا الرأس المقدّم والسّنام
وما شكوى المناهل حين تمسي مغيّضةً إذا بقيَ الـــغمام
وهل هو غير فذٍّ أخلفتهُ لنا العلياء والنعم التُّوامُ
وما شَررٌ تَطاوَحَ عن زنادٍ بمفتـــقَدٍ إذا بقيَ الضرام
أفق يا دهر من أمسيت تحدو وقد منع الخزامة والزمام
قدعتَ مبرّز الحَلَبات يغدو جَموحاً لا ينهنهه اللجام[2]

---

(١) الجلل بالتحريك معناه هنا الهين . و (ما) ليست نافية وإنما هي ظرفية .

(٢) القدع : الكبح .

ولوداً مثل ما خالستَ منهُ   وأنت بمثله أبداً عُقام[1]

أما اللفتات الخلقية فكثيرة جداً ، كأن يقول :

كان قضاء الإله مكتوباً   لولاك كان العزاء مغلوبا
ما بقيتْ كفك الصناع لنا   فكل كسر يكون مرءوبا[2]
ما احتسبَ المرء قديهون وما   أوجعَ ما لا يكون محسوبا
نهضاً بها صابراً فانت لها   والثّقل لا يعجز المصاعيبا
فقد أرتك الأُسى وإن قَدُمتْ   عن يوسفٍ كيف صبرُ يعقوبا[3]

وما تقصر المعاني الُخلقية على الشعر الذي يجري مجرى الامثال ، وإنما هي تشمل كل ما أشاد فيه بالشمائل والخصال ، ومن الواضح ان هذا الحكم ينساق على جميع المدائح في الشعر العربي ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان ينوه بخلائق الرجال وهو يُحسها أقوى إحساس .

أما بعدُ فليس من همنا أن نستقصي ما قال الشريف في بهاء الدولة ، فذلك بحثٌ يطول ، ويكفي أن تكونوا عرفتم أن الشريف عاش مدة وهو في حركة عقلية وذوقية ومعاشية بفضل ذلك المَلِك ، وتشهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أغدق عليه نعم التشريف والتبجيل وانه كان يعتمد عليه في كثير من الشؤون .

وفي جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ مات بهاء الدولة فرثاه الشريف بهذه القصيدة الباكية :

---

(١) العقام والعقيم من العقم وهو انقطاع النسل .

(٢) الكف الصناع : الماهرة في الصنع ، وليست من الصنيع بمعنى الاحسان كما في هامش طبعة بيروت .

(٣) الأسى بضم الهمزة جمع أسوة وهي القدوة في العزاء .

دع الذَّميل إلى الغايات والرَّتكا ... ماذا الطِّلاب أترجو بعدها درَكا[1]

مالي أكلِّفها التهجير[2] دائبةً ... على الدُّجى وقِوامُ الدين قد هلكا

حُلٌّ الغُروضَ فلا دارٌ ملائمةٌ ... ولا مَزُورٌ إذا لاقيتَه ضحكا[3]

اليوم صرَّحت الجُلّى وقد تركتْ ... بين الرجاء و بين اليأس معترَكا[4]

رزيئةٌ لم تَدَع شمساً ولا قمراً ... ولا غماماً ولا نجماً ولا فَلَكا

لو كان يُقبَل من مفقودها عِوضٌ ... لأنفق الجدُ فيها كل مـــا مَلَكا

قد أدهش المُلك قبل اليوم من حذر ... وإنما اليومَ أذرى دمعه وبكى

أمسى بها عاطلاً من بعد حِليتهِ ... وهادماً من بناء المجد ما سمكا[5]

مَن للجياد مراعيـــها شكائمها ... يحمِلْن شوك القنا اللذاع والشُّككا[6]

يطابها تحت أطراف القنا زلقاً ... من الدماء و من هام العدا نَبَكا[7]

من للظِّبا يختلي زرع الرقاب بها ... حكم القصاقص لا عقلٌ لما سفكا[8]

من للقنا جعلت أيدي فوارسه ... من القلوب لها الإطواق والمُسكا[9]

من للأسود نهاها عن مطاعمها ... فكم وردنَ فريساً بعد ما انتهكا

---

(١) الذميل والرتك من ضروب السَّير

(٢) التهجير : السير في وقت التهجير .

(٣) الغروض جمع غرض وهو الرحل كالحزام للسرج .

(٤) الجلى:الامر العظيم .

(٥) سمك البناء: ارتفع .

(٦) الشكك: جمع شكة بالكسر وهي السلاح .

(٧) النبك : جمع نبكة بالتحريك وتسكن وهي أكمة محدودة الرأس .

(٨) الاختلاء : القلع ، والقصاقص : الأسد . والعقل : الدية

(٩) المسك :جمع مسكة بالضم وهي ما يمسك به .

من للخطوب ينجّي من مخالبها ... وينزع الظفر منها كل ماسدكا [1]

من معشر أخذوا الفُضلَى فما تركوا ... منها لمن يطلب العليـــاء متّرَكا

قدّوا من البيض خلقاً والحيا خُلُقاً ... عيصاً ألفّ بعيص الجد فاشتبكا [2]

لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههم ... دراري الليل لو كانت لها سلكا

هم أبدعوا الجد لا أنْ كان أولهم ... رأى من الجد فعلاً قبله فحكى

الراكبين ظهوراً قلما رُكِبتْ ... والمالكين عنانـــاً قلما مُلِكا

يا صفقةً من بياعٍ كلها غَرَرٌ ... مَن ضامن للعلامن بعدها الدركا [3]

خلالها كل ذئب مَعْ أكيلتهِ ... من واقع طار أو من عاجز فنكا

الموت أخبث من أن يرتضي أبداً ... لا سُوقةً بدلاً منه ولا مَلِكا

لا تتبعوا في المساعي غير أخمصهِ ... فاخصرُ الطّرق في العلياء ما سلكا

ما مثلُ قبرك يُستسقى الغمام لهُ ... وكيف يسقى القطار النازل الفَلَكا

لا يُبعِد الله أقواماً رُزِئتهمُ ... لو ثُلّموا من جُنوب الطود لانهتكا [4]

فقدتهم مثلَ فقد العين ناظرها ... يبكي عليها بها يا طول ذاك بُكا

إذا رجا القلب ان ينسيه غصتهُ ... ما يُحدِث الدهر أدمي قرحه ونكا

إن ياخذ الموت منا من نضنّ بهِ ... فما نبـــالي بمن بقّى ومن تركا

إني أرى القلب ينزو لادّكارهم ... نزْو القطاطة مدّوا فوقها الشَّركا [5]

---

(١) سدك : ثبت ولزم .

(٢) العيص بالكسر الشجر الكثير الملتف .

(٣) الغرر بالتحريك هو التعرض للضياع .

(٤) هذا المعنى نفيس جداً .

(٥) القطاطة هي القطاة

لا تبصر الدهر بعـــد اليوم مبتسمًا

إن الليالي أنست بعـــده الضحكا

• • •

وكذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتز الشريف بمدحه من بين الملوك، وربما كان صادقاً فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فان الشريف لم يعمّر من بعده طويلا.

• • •

العلا والمعالي في قصائد الشريف

أيها السادة :

أرينا كم فيما سلف صوراً كثيرة من صلة الشريف بعصره وصِلاته بمن عرف فيه من عُلماء وشعراء وأمراء وخلفاء وملوك ، وأرينا كم كيف عرف النعيم والبؤس والضحك والبكاء .

والآن نحدثكم عن غرامه بالمجد ، وهيامه بالعلياء ، وفنائه في التخلق بأخلاق الأبطال .

والشريف في هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق ، لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبداً من التسامي إلى كرائم المقاصد وشرائف الغايات ، وهو قد يلهو وقد يلعب ، ولكنه يظل مشغول القلب بمـــا يتسامى اليه ، وتدور خواطره حول أمانيه في كل وقت ، وإن ظنه الناس من اللاهين .

وما رأيتم من لهو الشريف وما سترون ، لم يكن لَهْوَ خِصيان ، وإنما كان لَهْوَ فحول ، فهو لم يكن في غرامياته مـــن الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكاء والانين ، وإنما كان شاعراً فحلاً يرى الحسن لم يُخلَق إلا لغرامه الجموح ، وسترون فيما بعد أنه تزوج وأنجب ، ولم يترك الدُّنيا إلا وهو ملء العيون والقلوب .

أيها السادة :

نحن مُقبلون على مصافحة الجبل الاشمّ ، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذي بذَّ جميع الفرسان حين قال :

نبهتُهم مثل عوالي الرماح   إلى الوغى قبل نُمُوم الصباح

فوارس نالوا المُنى بالقَنا وصافحوا أغراضهم[1] بالصِّفاح
لغارةٍ سامعُ أنبائها يَغَصُّ منها بالزُّلال القَرَاح
ليس على مُضرمها سُبَّةٌ ولا على المُجلِب منها جُناح[2]
دونكمُ فابتدروا غُنْمها دُمًى مباحاتٌ ومالٌ مُباح[3]
فإننا في أرض أعدائنا لا نطأ العذراء إلا سِفاح[4]
يا نفسُ مــن همٍّ إلى همّةٍ فليس من عِبء الأذى مُستراح
قد آن للقلب الذي كدَّه طول مُناجاة المُني أن يُراح
لا بــدَّ أن أركبها صعبة وقاحةً تحت غلامٍ وقاح[5]
يجهدها أو ينثني بالردى دون الذي قدَّر أو بالنجاح
الراحُ والراحةُ ذلُّ الفتى والعزُّ في شرب ضَريب اللقاح[6]
في حيث لا حُكمَ لغيـر القنا ولا مُطاعٌ غير داعي الكفاح
وأشعثِ المفرق ذي همةٍ طوّحه الهمُّ بعيداً فطاح
لما رأى الصبر مضراً بهِ راح ومن لا يُطِق الذل راح
دفعاً بصدر السيف لما رأى أن لا يُردَّ الضيمُ دفعاً براح

---

(١) في الديوان « أعراضهم » والصفاح : السيوف

(٢) المجلب في هذا البيت هو الذي يكثر الصياح من الفزع . والمراد وصف هذه الحرب بالقسوة والعنف بحيث لا يكون على الهارب منها جناح .

(٣) الدمى جمع دمية بالضم والمراد بهـا المرأة الجميلة . وهي في الاصل صورة توضـع في المحراب .

(٤) هذا البيت قوي جداً .

(٥) الغلام هو الفتى في شعر الشريف ، والوقاحة هي الشجاعة .

(٦) الضريب : اللبن ، واللقاح : النوق ، والمفرد لقوح على وزن صبور .

متى أرى الزوراء مُرتجّةً تمطر بالبيض الظّبا أو تُراح

يصيح فيها الموت عن ألسُنٍ من العوالي والمواضي فِصاح

بكل روعاء عَظيْنيّةٍ[1] يحثّها أروع شاكي السلاح

كأنما ينظر من ظلها نعامةً زيّافةً بالجناح

متى أرى الأرض وقد زُلزلت بعارضٍ أغبرَ دامي النّواح[2]

متى أرى الناس وقد صبّحوا أوائل اليوم بطعن صُراح

يلتفت الهارب في عِطفهِ مروّعاً يرقُب وَقع الجراح

متى أرى البيض وقد أمطرت سيل دمٍ يَغلب سيل البطاح

متى أرى البَيضة[3] مصدوعةً عن كل نشوانَ طويلِ المِراح

مضمّخ الجيد نَؤوم الضّحى كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رَدَاح الرّوع عنّت له فرّ إلى الكَعاب الرّداح[4]

قومٌ رَضوا بالعجز واستبدلوا
بالسيف يَدْمَى غَربُهُ كاس راح[5]

توارثوا الملك ولو أنجبوا لوَرّثوه عن طعان الرماح

غطى رداءُ العز عوراتِهم فافتضحوا بالذل أيَّ افتضاح

إنيَ والشاتم عرضي كمن روّع آساد الشّرى بالنّباح

---

(١) العظَينية : المنتفخة البطن من أكل العظون وهو شجر (أحمد عباس الأزهري) .

(٢) النواح : هي النواحي ، أعلت بحذف الياء .

(٣) البيضة هنا ما يلبس من الحديد .

(٤) الرداح على وزن سحاب هي الكتيبة الثقيلة الجرارة ، وهي ايضا المرأة الثقيلة الأوراك وبهذا يفهم البيت .

(٥) الغرب بالفتح حد السيف .

يطلب شاوي وهو مستيقن أن عناني في يمين الجماح
فارم بعينيك مليًا ترى وقع غباري في عيون الطلّاح
وأرق على ظلعك هيهات أن يزعزع الطود بمرّ الرياح
لا همّ قلبي بركوب العلا يوماً ولا بلّ يدي بالسماح
إن لم أنلها باشتراط كما شئت على بيض الظبا واقتراح
يطمح من لا مجد يسمو به إني إذاً أعذر عند الطماح
وخطة يضحك منها الردى عسراء تبري القوم بري القداح
صبرت نفسي عند أهوالها وقلت من هبوتها لا براح
إما فتى نال العلا فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

ماذا ترون ، أيها السادة؟ حدثوني ماذا ترون؟

هل رأيتم في الشعر كله قصيداً يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة في ديوان الحماسة لو وُضع كله في الميزان لشالت كِفته ورجحت كِفة هذه القصيدة ، ولكن أين من يفهم المعاني .

إن هذا القصيد خليق بأن يكون « نشيد الفتوة العربية » وأهل لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية ، فهو جذوة من الفتوة ، وقبس من الرجولة ، وشهاب من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال .

ارأيتم :

نبهتهم مثل عوالي الرماح إلى الوغى قبل نموم الصباح

أرأيتم هذه الصورة ، صورة الفتك ، صورة القائد الذي يختال بما يصنع وهو ينبه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشير الصباح!

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالي الرماح!

انظروا هذه الصورة ثم تذكروا ما يقابلها من الصور، فهناك شعراء ينبهون رفاقهم أيضاً، ولكنهم لا ينبهون إلى الاصطباح بالحرب، وإنما ينبهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينبه الجنود :

لغارةٍ سامعٌ أنباءَها يَغَصُّ منها بالزُّلال القَراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التي تُغِصُّ سامع أخبارها بالماء القَراح فكيف ترونها تصنع بمن يصطلي لظاها ؟

أرأيتم كيف يشوّق جنوده إلى الحرب فيقول :

دونكمُ فابتدروا غُنْمَها دُمًى مباحاتٍ ومالٌ مباح

فهو يطمعهم فيما سينالون من الأموال ومن النساء، وهي مطامع حسية كانت على الدهر من أعظم مغانم الحروب.

أرأيتم كيف يحدد مقامه ومقام جنوده من الحقائق الاخلاقية فيقول:

فإننا في أرض أعدائنا لا نطأ العذراء إلا سفاح

وهذه الاخلاق تبدو في بشاعة الوحشية، ولكنّ للشاعر عذراً وأنتم يلومون، فهو يسجّل أخلاق الجنود المغاوير، والجنود المغاوير لا يعرفون المصقول من آداب الناس، فالجندية هي في ذاتها وحشية، وهل اشتقت الفروسية إلا من الافتراس ؟

ثم يقول :

يا نفسُ مــــن همٍّ إلى همةٍ فليس من عبء الأذى مستراح

قد آن للقلب الذي كدّه طول مناجاة المُنى أن يراح

فيصوّر لكم قلق الرجل الطمّاح الذي تُغرقه مطامحه في بحر من الهموم فلا يرى نجاته في غير القتال .

ثم يقول :

لا بدّ أن أركبها صعبةً وقاحةً تحت غُلامٍ وقاح
يُجهدها أو ينثني بالردى دون الذي قدّر أو بالنجاح

والغلام في هذا الشعر هو الفتى ، والشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين : النصر أو الموت، وهو معنى سيكرره في آخر القصيدة إذ يقول:

إما فتى نال العُلا فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

وهو بهذا سبق الفرنسيين إلى هذه الحكمة العالية ، سبقهم بمئات السنين إلى الحكمة المسطورة على محراب البانتيون في باريس: Vaincre ou mourir

ولم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب ، ولكنه أورده مورداً قوياً جداً بحيث لا يكون من المغالاة ان نعده من معانيه المبتكرات :

ثم يقول:

الراح والراحة ذل الفتى والعزُّ في شرب ضَريب اللقاح
في حيثُ لا حُكمَ لغير القنا ولا مُطاعٌ غير داعي الكفاح

فنفهم عن طريقه أعظم معضلة في تربية الابدان والنفوس ، وهل نسيتم ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا في البادية ؟ هنـــا نفهم السر : فاللغويون يظنون ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على فصاحة الاعراب ، وهذا له وجه ، وإنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على الصراحة والصرامة والطغيان . فالحكم في البوادي لا يكون لغير السيف والرمح ، وعيشُ البادية مِرانٌ عنيف على الخشونة والصلابة والفتك .

وقد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داءُ الامم ، داؤها المقام الذي

يعزُّ منه الشفاء ، وانما كان الترف داء الامم لأنه يجردها من الخشونة التي لا يمكن بغيرها صراعٌ ولا قتال .

إن ربيب البادية هو وحده الذي يقدر على منازلة الطبيعة في رُعودها وبُروقها وجحيمها ، أما ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكري «غادةٌ ينقصها الحجاب، ينظر في المرآة ولاينظر في كتاب » أو كما قال الشريف :

مضمَّخ الجيد نَؤوم الضُّحَى كأنه العذراءُ ذات الوشاح
إذا رَدَاح الروع عنَّت له فرَّ إلى ضم الكعاب الرداح

وأنتم ترون أن الامم التي ليست عندها بادية ، تخلق لنفسها بادية ، وهل كان نظام الكشافة إلا رجوعاً إلى النظام البدوي الذي مكّن أسلافنا من أن يكونوا أشجاراً قوية تقاوم الزعازع في مختلف البقاع والأجواء .

إنما كان الترف داء الامم لأنه يورث اللين ، والشاب اللين لا يصلح لقتال ولا صراع .

ويصور الفتى الصوّال فيقول :

وأشعثِ المفرق ذي همةٍ طوَّحه الهم بعيداً فطاح
لما رأى الصبر مضراً به راح ومن لا يُطِق الذُّل راح
دفعا بصدر السيف لما رأى أن لا يُرَدّ الضيمُ دفعاً براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرق ، أما صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان ، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم ويقارعون الخطوب . وأنتم قد ترون في دنياكم فتياناً من أبناء الزمان يضيّعون في تزيين مفارقهم ما يضيّعون ، وهم فتيان لهم شان في التمدن الحديث ، وإليهم مصاير الامور في أكثر الاحيان ولكنهم سيظلون حيث وَقَفَتْهمْ نفوسهم الصغيرة فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغني دفعه بالراح ، فهم كما قال الشريف :

قوم رضوا بالعجز واستبدلوا بالسيف يدمى غربُهُ كاس راح
توارثوا الملك ولو أنجبوا لورّثوه عن طعان الرماح

وللشريف في هذه القصيدة إشارات لاتخفى عليكم ، فقد وجه إلى خصومه كلمات أشد من وقع النبل ، وحق لمثله أن يقول :

يطمح من لا مجدَ يسمو بهِ إني إذاً أعذَر عند الطمّاح

ـ صدقت ، أيها البطل ، صدقت !

• • •

ويتوثب الفارس إلى الفتك فيقول :

وإن قعودي أرقبُ اليوم أو غدا لعجزٌ فما الإبطاء بالنّهضانِ
سأتركُ في سمع الزمان دَوِيّها بقرعَيْ ضرابٍ صادقٍ وطعان
وأخصف أخفافاً بوقع حوافر إلى غاية تقضي منّى وأماني
فإن أسرِ فالعلياء همي وإن أقِمْ فإني على بكر المكارم باني
وإن أمض أترك كل حي من العدا يقول : ألا لله نفسُ فلان

فهذا الفارس ينكر الترقب ، ويراه من العجز ، ويشوقه أن يتأثر المتنبي الذي كان يرى المجد في الفتك والطعان ، ويؤمن بأنه الفائز في كل حال ، فهو إن نهض فإلى الحرب ، وإن قعد فلبناء المجـــد ، ويشعر بأن أعداءه سيترحمون عليه يوم يموت .

والأبيات الآتية قالها الشاعر في مطلع صباه ، والظاهر أنـــه كان مفطوراً على الفتوّة منذ الحداثة ، وإلا فكيف صح له أن يقول وهو في سن المراهقين :

ستعلمون مـــا يكون مني إن مَدّ من ضبعيّ طولُ سني
أأدَعُ الدنيا ولم تدَعني يلعبُ بي عناؤهـــا المعنّي

ناطحةً بالُجمّ هام القِرن   نطاحَ رَوْقِ الجازىء الأغن[1]

وسِعتْ أيامي ولم تَسَعني   أفضُل عنهـــا وتضيق عني

لمْ أنا مثلُ القاطنِ المُبنّ[2]   أسحبُ بُرْدَيْ ضَرَعٍ وأفْنِ[3]

ولي مضاءٌ قطّ لم يخُنّي   ضميرُ قلبي وضميرُ جفني[4]

أحصلُ من عزمي على التمني   وليتني أفعـــل أو لو آني

راضٍ بما يُضوي الفتى ويُضني   أسّس آبائي وسوف أبني

قد عزّ أصلي ويعزّ غصني   غَنيتُ بالجدِ ولم أستغن

إنّ الغِنَى مجلـــبةٌ للضّنّ   وللقعود والرضا بالوَهْن

الفقر يُنشي والثراءُ يدني   والحرص يُشقي والقُنوع يُغني

إن كنتُ غير قـــارح فإني   أبدٌ جَرْيَ القارح المُسِن[5]

جُنِنْتُ باساً والشجاع جِني   آثارُ طعن الدهر في مِجَنّي

تشهد لي أن الزمان قِرني   سوف ترى غبارها كالدّجن

قساطلا مثل غوادي المُزن   تجري بضربٍ صادقٍ وطعن[6]

جريَ عزالي[7] المطر المستنّ   إن غِبتُ يوماً عنك فاطّلبني

بين المواضي والقنا تجدني   أمام جيش كجُنوب الرّعن[8]

---

(١) الجم جمع أجم وهو الرجل بلا رمح والكبش بلا قرن ، والقرن بالكسر هو كفؤك في الشجاعة ، والروق بالفتح القرن ، والجازىء الأغن كناية عن الظبي

(٢) يقال بن يبن وابن يبن إذا أقام ، فالمبن هو المقيم ،

(٣) الضرع بالتحريك هو الذل ، والأفن ضعف العقل .

(٤) ضمير الجفن هو العين وقد يراد به السيف .

(٥) القارح من ذوي الحافر بمنزلة البازل من الابل .

(٦) القساطل جمع قسطل أو قسطال وهو الغبار .

(٧) العزالي جمع عزلاء وهي في الاصل مصب الماء من الراوية .

(٨) الرعن بالفتح أنف يتقدم الجبل .

جون الذّرا أقود مُرجَجِن   أنفض عني نقعه بِرُدني[1]

لتعرفــنّي ولتعرفــنّي   أيام أفني بالقنا وأغني

أفِرُّ عين الفاقر[2] المِرنّ   عساي أنفي الضيمَ أو لعنّي

كم صبر خافي الشخص مستجن   منطمر من الأذى في سجن

مرتهن بهمة تعــنّي   يا ليتها بنهضة فدتني

من قبل أن يَغلَق يوماً رهني[3]   متى تراني والجواد خِدني

والنصل عيني والسنان أذني   وأميَ الدرع ولم تــلدني

أجرُّ فضل ذيلها الرفن[4]   ما احتبس الرزق فساء ظني

ولا قرعتُ من قُنوطٍ سني   يا أيها المغرور لا تهجني

وعذ بإغضائيَ واستغذني   واحذر عداء قاطع في ضمني

ينطق عني بلسان ضغني   نبهت يقظان قليل الأمن

مخرّق الثوب بطعن اللّدن[5]   يا دهر سيفي معقلي وحصني

والخوف يغري طلبي فخفني   يا ليت مقدورك لم يُؤمني[6]

جنيت من قبل وسوف أجني   أثنى يدي والعزم أن أثنّي

فما رأيكم في هذا الطفل الذي أنضجه العزم وسقته نفسه ذوب الحديد المتوقد؟

---

(١) الأقود: المستطيل، والمرجحن: المرتفع والنقع: الغبار، والردن: الكم.

(٢) في الديوان (الفاقد) والفاقر أظهر في المعنى، وهو الذي يكسر الفقار. والمرن: المصوت ويقال أيضاً قوس مرنان و (لعني) لغة في (لعلي).

(٣) قال الفيروز ابادي: غلق الرهن كفرح استحقه المرتهن وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط، قلت: وهذه العبارة هنا كناية عن الموت.

(٤) الرفن: الطويل.

(٥) اللدن: الرماح.

(٦) لم يؤمني: يصبني.

ما رأيكمُ في الطفل الوادع الذي يصرخ فيقول:

ستعلمون مـــا يكون مني إن مدَّ في ضبعيَّ طول سني

ما رأيكم في الطفل الذي يبدأ بمحاسبة نفسه فيقول:

أأدع الدنيـــا ولم تدَعني يلعب بي عناؤهـــا المعنّي

ما رأيكم في الطفل الذي يرى نفسه قرين الزمان:

إن كنت غير قـــارح فإني أبذّ جرى القارح المسنّ

جُننت باساً والشجاع جنى آثارُ طعن الدهر في بجـــني

تشهد لي أن الزمان قِرني سوف ترى غبارها كالدجن

ما رأيكم في الذي يتشوف إلى مصيره في الفتوّة فيقول:

متى تراني والجواد خـــدني

والنصل عيني والسنان أذني

وأميَ الـــدرع ولم تـــلدني

إن هذه القصيدة من أنفَس ما قال الفتيان، فليحفظها وليتادب بها كرام الفتيان.

...

وصحّ لهذا الفارس وهو في السادسة عشرة أن يقول:

أمن شوقٍ تعانقني الأماني وعن ودٍّ يخادعني زماني

وما أهوى مصافحة الغواني إذا اشتغلت بناني بالعنان

عدمت الدهر كيف يصون وجهاً يعرّض للضراب وللطعان

تعرّفني بأنفسها الليالي وآنف أن أعرّفها مكاني

أنا ابن مفرّج الغمرات سوداً تلاقي تحتها حلق البطان[1]

---

(١) البطان على وزن كتاب: حزام القتب

وجدي خابط البيداء حتى تبدّى الماء من ثغب الرعان[1]
قضى وجياده حول المعالي ووفدُ ضيوفه حول الجفان
تكفّنه ظُبا البيض المواضي ويغسله دم السُّمر اللدان
نشرت على الزمان وشاحِ عز ترنح دونه المقل الرواني
خفيري في الظلام اقبّ نهدٌ يساعدني على ذم الزمان[2]
جواد تُرْعد الابصار فيه إذا هزأت برجليه اليدان
كأني منه في جاري غدير ألاعب من عناني غصن بان
حيي الطرف إلا من مكّر يبيّن مـــن خلائقه الحسان
إذا استطلعته من سجف بيت ظننت بأنه بعض الغواني
سأطلع من ثنايا الدهر عزماً يسيل بهمة الحرب العوان
ولا أنسى المسير إلى المعالي ولو نسيتْه اخفاف الحواني[3]
وكنا لا يرّوعنا زمـــان بما يعدى البعاد على التداني
ونأنف أن تشبّهنا الليالي بشمس أو سَنا قمر هجان[4]
فها أنا والحبيب نودُّ أنا تدانينا ونحن الفرقـــدان
وليلٍ أدْهمٍ قلق النواصي جعلت بياض غرته سناني
وصبح تطلع الآجال فيه وناظر شمسه في النقع عاني[5]
عقدت ذوائب الأبطال منه بأطراف المثقفة الدواني

الأغرب والأعجب أن تعلموا ان هذا الشعر هو مطلع قصيدة في المدح

---

(١) الرعان جمع رعن وهو أنف الجبل أو الجبل الطويل ، والثغب بالتحريك هو الغدير.
(٢) الأقب : الضامر . والنهد : الفرس الحسن الجميل .
(٣) المراد بالحواني الابل ، والشاعر يتمثلها دائبة الحركة .
(٤) الهجان على وزن كتاب : الخالص البياض .
(٥) العاني هو الاسير .

وهي تجزية طريفة فقد كان الشعراء يبدأون قصائد المـــدح بالنسيب ، وكثر منهم ذلك حتى صح للمتنبي ان ينتقدهم فيقول :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم أكل فتًى قد قال شعراً متيمُ

والمهم ان تعرفوا ما في هذه القصيدة من الشاعرية ، المهم ان تعرفوا ان ذلك الفتى كان يشعر بانه أعلا من الأماني والزمان فيقول :

أمن شوق تعانقني الأماني وعن ود يخادعني زماني

واي شاعرية امجد واعظم من شاعرية من يتمدح بأن جده كفنته السيوف وغسلته الرماح :

قضى وجيادهُ حول العوالي ووفدُ ضيوفه حول الجفان
تكفّـنه ظُبا البيض المواضي ويغسِله دم السُّمر الـــلدان

وهل رأيتم احلا واعذب من شاعرية الفارس الذي يتغزل في جواده فيقول :

خفيري في الظلام أقبُّ نَهدٌ يساعدني على ذمّ الزمانِ
جوادٌ تُرعَد الأبصار فيه إذا هزأت برجليه اليدان
كأني منه في جاري غديرٍ ألاعب من عناني غُصن بان
حيٌّ الطرف إلا من مكَرٍّ يبِيّن من خلائقه الحسان
إذا استطلعتَهُ من سَجْف بيتٍ ظننتَ بانه بعض الغواني

ذلكم هو الفارس ، وتلكم هي الفروسية ، والذي يقول هذا الشعر فتًى كان يرشّح نفسه لإمارة الحج ، ومنصب القضاء ، ونقابة الأشراف ، وكذلك كان أسلافنا فتياننا يستهويهم جمال الخيل وميادين القتال .

• • •

وقد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد ، ومـــا وصف

الشريف الاسد بلى ، وصف الشريف الاسد لانه وصف نفسه فقال :

سيُرعِب القومَ مني سَطْوُ ذي لبد ... لــه بعثّرَ اعراسٌ وولِدان [1]

لا يَطعَم الطُّعم إلا مــن فريسته ... إن يعدَم القِرن يوماً فهو طــيّان [2]

ماشي الرفاق يراعى ابن مسقطهم ... والسمع منتصب والقلب يقظان

يستعجل الليلة القمراء أوبتها ... إذا بنو الليل من طول السُّرى لانوا

حتى إذا عرّسوا في حيث تُفرِشهم ... غارقَ الرمل أنقاءٌ وكثبان

دنا كما اعتسَّ ذو طِمرين لمــلِقطه ... من فضله الزاد بالبيداء ركبان [3]

ثم استقرت بــه نفس مشيّعةٌ ... لهــا من القَدَر المجلوب مِعوان

فعاث ما عاث واستبْلَى عقيرتهُ ... يجرها مطعم للصيد جذلان

قِرنٌ إذا طلب الأوتار عن عرضٍ ... لم تَفد منه دماء القوم ألبان

وغلمة أخــذوا للروع أهبتهُ ... لف البطون على الأعواد خُمصان [4]

طارت بأشباحهم جُردٌ مسوَّمةٌ ... كأنما خطفت بالقوم عقبــان

من كل أعنقَ ملطومٍ بغُرتــهِ ... كأنه من تمــام الخلق بنيان [5]

يمــدُّ للجَرس مثل الآستين إذا ... خان التوجس أبصارٌ وآذان [6]

فاستمسكوا بنواصيها وقد سقطت ... من غائر الجري ألباب وأرسان

---

(١) عثّر بفتح العين وفتح الثاء مشددة اسم مأسدة

(٢) طيان : جائع ، وهو من الطوى

(٣) عس واعتس : طاف بالليل ، والتلقط تتبع الساقطة بالضم وهي بقية الطعام

(٤) خمصان : ضامرون

(٥) الأعنق : القوي العنق ، وملطوم بغرته : كناية عن البياض

(٦) الجرس : الصوت أو خفي الصوت ، والآستان مثنى آسة ، واحد الاس وهو يصف الجواد بدقة السمع.

كممت فاغرة الثغر المخوف بهم ... يهفو بإيمانهم نَبْعٌ ومُرّان [1]

كأن غرّ المعالي في بيوتهمُ ... بيضٌ عقائل يحميهن غَيْرانُ

إلى كم الرحم البلهاء شاكية ... لها من النعي إعوالٌ وإرنانُ

حيرى يُضِلّونها ما بيننا ولها ... منا على عُدَوَاء الداء نِشدان

النَّجْر متفقٌ والرأي مختلفٌ ... فالدار واحدة والدين أديان [2]

وثَمّ أوعية الإحسان مكفأة ... فوارغٌ ووعاء الشر ملآن

إنا نُجِرُّهمُ [3] أعراضنا طمعاً ... في أن يعودوا إلى البُقيا كما كانوا

أنّى يُتاه بكم في كل مظلمة ... وللرشاد أماراتٌ وعنوان

ميلوا إلى السِّلم إن السِّلم واسعةٌ ... واستوضحوا الحق إن الحق عُريان

يا راكباً ذرعتْ ثوبَ الظلام به ... هوجاء مائلة الضبعين مِذعان

أبلغْ على النأي قومي إن حللت بهم ... أني عميدٌ بما يلقون أسوان

يا قوم إن طويل الحلم مَفسدةٌ ... وربما ضرّ إبقاء وإحسان

مالي أرى حوضكم تعفو نصائبهُ ... وذودُكم ليلة الأوراد ظمآن [4]

مدفّعين عن الأحواض من ضَرَعٍ ... ينضو بهامكمُ ظلمٌ وعدوان [5]

لا يُرهَبُ المرء منكم عند حفظته ... ولا يراقَبُ يوماً وهو غضبان [6]

---

(١) كممت بهم الثغر المخوف : سددته بهم . والكمم في الاصل شد فم البعير لئلا يعض . والنبع والمران من الأشجار التي تتخذ منها الرماح .

(٢) النجر بالفتح هو الأصل .

(٣) نجرهم أعراضنا : نطعمهم اعراضنا : كناية عن الصفح .

(٤) النصائب : حجارة تنصب حول الحوض ويسد ما بينها من الخصاص بالمدر المعجون . والأذواد جمع ذود بالفتح وهو جماعة الإبل .

(٥) الضرع بالتحريك هو الذل .

(٦) الحفظة بالكسر هي الحية والغضب . ومثلها الحفيظة .

إن الاولى لا يعزُّ الجار بينهمُ ... ولا تُهان عواليهم لذُلّان[1]
كم اصطبـــارٌ على ضيم ومنقصةٍ ... وكم على الذل إقرارٌ وإذعان
وفيكم الحامل الممهام مسرحهُ ... داجٍ ومن حَلَق الماذيِّ أبدان[2]
والخيل مخطفة الاوساط ضامرةٌ ... كأنهن على الأطـــواد ذؤبان
الله الله أن يبترَّ أمركم ... راعٍ رعيتُه المعزيُّ والضان
ثُوروا لها ولتهُن فيها نفوسكُم ... إن المناقب للأرواح أثمان
فمن إباء الأذى حلّت جماجمها ... على مناصلها عبسٌ وذبيان
وعن سيوف إباء الضيم حين سَطَوْا ... مضى بغصته الجعديُّ مروان
فإن تَنالوا[3] فقد طالت رماحكمُ ... وإن تُنالوا[4] فللأقران أقران

ذلك وصف الأسد كما تصوَّره جامع الديوان، فماذا ترون في هذا القصيد ؟

إن الشاعر هنا قويُّ الروح جداً ، ولا يمكن إدراك قوة الروح هنا في القصيد إلا بقراءته مرتين أو مرات ، وهو شبّه نفسه بالأسد وساقه ذلك إلى وصف الأسد ، ولكن أي وصف ؟ انه وقف عند المعاني النفيسة التي تصور ما في الاسد من عزة وكبرياء .

ثم تحدث عن رفاقه في الحرب أجمل حديث فجعل المعالي في بيوتهم بيضاً عقائل تحميها الغيرة ويحرسها الإباء .

ثم التفت إلى قومه فعنّفهم على التنابذ والتقاطع ، وعجب من أن يتفق الاصل ويختلف الرأي ، وجزع من تعدد الاديان مع وحدة الوطن

ثم استصرخهم الى حماية الحوض ، وذكّرهم بالذين نثروا جماجمهم على

---

(١) ذلان بالضم ذليل. (٢) الممهام : الأسد . والماذي : كل سلاح من الحديد.
(٣) بالبناء للفاعل . (٤) بالبناء للمفعول .

المناصل في سبيل الحفاظ .

والقصيدة جيدة جداً ، ومن العجب أن يسكت عنها نقاد المعاني .

وللشريف قصائد طوال قصرها على همومه في المعالي ، منها الميمية

أرى نفسي تتوق الى النجوم ساحملها على الخطر العظيم

وفيها يقول :

ولي أملٌ كصدر الرمح ماضٍ سوى أن الليالي من خصومي
ويمنعني المدامَ طروق همي فما يحظى بهـــا الا نديمي
وما أوفت على العشرين سني وقد أوفى على الدنيا عزيمي[1]

وله فيها نفثات موجعات :

أرى الأيام عـــاديةً علينا ببيضٍ من نوائبها وشيم[2]
يضلُّ نفوسَنا داءٌ عُقامٌ فيُسلمنا الى أرض عقيم
ونُتبع بالدموع وأيُّ دمع يُجير ولو أقام على السُّجوم
ويُفردنا الزمان بلا قريب يُذِمُّ من الزمان ولا حميم[3]
ونلقى قبل لقيان المنايا رماحَ الداء تطعن في الجسوم[4]

وفيها يقول :

الا مَن مبلغ الأحياء أني قطعتُ قرائن الزمن القديم
وأني قد أبيتُ مقامُ رحلي بوادي الرمث أو جبل الغميم

---

(١) في الديوان (غريمي) وهو تحريف . والعزيم مذكر العزيمة .
(٢) الشيم جمع شيماء وهو السوداء .
(٣) يذم من أذم إذا رفع أسباب الذم واللوم .
(٤) سنذكر في « بكاء الشباب » بالجزء الثاني أن الشريف كان يشكو علة خفية يكتمها عن الناس . وهذا البيت من شواهد ذلك .

وعن قربٍ سيشغلني زماني برعي الناس عن رعي القُروم [1]
ومالي من لقـــاء الموت بدٌّ فمالي لا أشدُّ له حزيمي [2]
سألتمس العُلا اما بِعُربٍ يروُّون اللهاذم أو بروم

وهذا كلامٌ نفيس جداً ، وهو قويٌّ الدلالة على خطر ما كان يصطرع في تلك النفس من آمال .

وله ميمية أخرى منها هذه الأبيات :

وما ابنُ غِيلٍ تُذيع الموتَ طلعتُهُ اذا تطلَّعَ غضباناً من الأَجم [3]
يجلو دُجى شدقه عن صبح عاصلة مطرورة كشَبا المطرورة الخذُم [4]
يوماً بأقدم مني في مُلملةٍ [5] شَعْواء تعزِف بالعقبان والرَّخم

وله ثالثة جمع فيها بين الفخر والنسيب فقال :

ألا خبرٌ عن جانب الغَور واردٌ ترامَى به أيدي المطيِّ الرواسم
واني لأرجو خُطوةً لوذعيةً تُجيب بنا داعي العُلا والمكارم
نداوي بها من زفرة الشوق أنفساً تطلعُ مـــا بين اللهى والحيازم
واني على ما يوجب الدهر للفتى ولو سامه حمل الامور العظائم
مقيم بأطراف الثنايا صبابة أسائل عن أظعانكم كل قادم
وأرقب خفّاق النسيم اذا حـــدا من الغرب أعناق الرياح الهواجم

---

(١) القروم : الفحول ، بمعناها الأصلي ، والمعنى أنه سينتقل من رعاية الابل إلى رعاية الناس .

(٢) الحزيم على وزن أمير هو الصدر .

(٣) الغيل هو الشجر الكثير الملتف وهو الأجمة .

(٤) العاصل والعاصلة : السهم الشديد ، والمراد الناب . والمطرورة : المحددة ، والخـــذم القاطعة .

(٥) الململة هي الحرب .

بناتِ الثَّرى هذا الذي كان قلبهُ يسومك أن تصلَيْ بنار العزائم
ومن كل وضاح الحسام مشمراً اذا شحبت فينا وجوه المظالم
يمسّح أضغان العدوّ وانما يقبّل ثغراً من ثغور الأراقم
اذا شهد الحربَ العوانَ تدافعتْ صدور المواضي في الطلى والجماجم
وعفَّر فرسان العدا ودماؤهم جوامدُ ما بين اللحى والعمائم
حدا فقدُهُ كلَّ العيون الى البكا فقطَّع أرسانَ الدموع السواجم
وما خطرتْ منه على المجد زلةٌ فيقرع في آثارهـا سِنَّ نادم
ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ألاطِمُ أعناق الرُّبا بالمناسم
وهل تقذف البيداء رحلي اليكمُ تنفَّس عن ليلي أنوف المخارم
ولا بدَّ أن ألقى العدا في حميلة من الخيل تولي بالقنا والصوارم

والجمع بين الفخر والنسيب كثير في شعر الشريف ، وهو شاهد على اشتباك النوازع في تلك الروح ، فذلك قلب يجمع بين العنف واللطف ، والقسوة واللين ، هو قلبٌ عامر النواحي ، فيه حنان الأطفال ، وصيال الأبطال ، يرقّ فتحسبه نسيماً ، ويقسو فتحسبه جحيماً ، وانظروا كيف يقول وهو يجمع بين الفخر والنسيب :

يا دار ما طربتْ اليك النوقُ الا وربعُك شائقٌ ومشوقُ
جاءتك تمرح في الأزمّة والبُرَى والزجرُ وردٌ والسِّياط عَليق
ونحنُّ ما جـدَّ المسير كانما كل البلاد محجَّر وعقيق
دارٌ تملّكها الفراق فرقُها بالمَحْل من أسر الغمام طليق
شرِقَتْ بادمعها المطيُّ كانما فيها حنين اليَعْمَلات شهيق
الآنَ أقبل بي الوقارُ عن الصبا فغضضت طرفي والظباء تروق
ولو أنني لم أعط مجدي حقهُ أنكرت طعم العِز حين أذوق

رُمتُ المعالي فامتنعنَ ولم يزلْ أبداً يمانع عاشقاً معشوق

وصبرت حتى نلتهنّ ولم أقل ضجراً دواءُ الفارك[1] التطليق

ما كنت أول من جثا بقميصه عَبَقُ الفخار وجيبه مخروق

كثرت أمانيُّ الرجال ولم تزل متوسعات والزمان يضيق

من كل جسم تقتضيه حفرةٌ فكأنه من طينها مخلوق

والقصيدة طويلة جداً ، ويكفي أن ننبه إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه

والشاعر في هذا النسيب يجعل المطيّ باكيات ، والشعراء يتصورون المطي باكيات ، ولكنها في هذه المرة تبكي لبكاء الشاعر فهي لا تحن الى العَطن الذي ستعود اليه ، وانما تبكي على الديار التي يفارقها صاحبها الأمين

ويصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل والهوى فيقول :

الآن أقبل بي الوقار عن الصبا فغضضت طرفي والظباء تروق

ثم ينص على أن العزّ لا طعم له الا إن ناله الرجل عن طريق الكفاح فيقول :

ولو أنني لم أعط مجدي حقهُ أنكرت طعم العز حين أذوق

ويرى المعالي معشوقات فيقول :

رقت المعالي فامتنعْن ولم يزل أبداً يمانع عــــاشقاً معشوق

وقد صدق : فالعزائم كالقلوب لها صَبَوات ، والمعالي أحق بالعشق من الملاح ويتأثرُ الخاق النبيل خُلقَ الفتيان الذين يتمدحون بالقميص الممزق ، فيقول :

ماكنت أول من جثا بقميصه عَبقُ الفخار وجيبه مخروق

---

(١) الفارك : المرأة تبغض الرجل .

وعبق الفخار أشرف من عبق الطيب ، وإن غضب الشبان الظرفاء .

والنص على الخشونة والتشعث في شجعان الفتيان قديمٌ في الشعر العربي فما ابتكره الشريف ، ولكن إلحاحه في توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون ، وانظروا أيضاً كيف يقول :

وعـــدت يا دهر شيئاً بتُّ أرقبهُ ... وما أرى منك إلا وعد عُرقوبِ
وحاجة أتقاضاها وتمطلني ... كأنها حاجــــة في نفس يعقوب
لأُتعبن على البيداء زاحلةً ... والليلُ بالريح خفّاق الجلابيب
في فِتية هجروا الاوطان واصطنعوا ... أيدي المطايا بإدلاج وتأويب [1]
من كل أشعث ملتاث اللـــثام له ... لحظٌ تكرّره أجفانُ مَنعوب
يوسّد الرحل خداً مــــا توسّدهُ ... قبل المطالب غير الحسن والطّيب

وهو في هذه المرة يجعل جنوده شباناً نشأوا في النعيم ، ثم قهرهم حب المعالي على فراق النعيم ، وهذا أبلغ في تصوير المجد .

...

ويصور قلق الفتى الصوّال فيقول :

سئمتُ زماناً تنتحيني صروفُهُ ... وثُوبَ الأفاعي أوديبَ العقارب
مُقامُ الفتى عجزٌ على ما يضيمُهُ ... وذلُّ الجريءِ القلب إحدى العجائب
سأركبها بَزْلاءَ إما لمادح ... يعدّد أفعالي وإما لنادب [2]
إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصارهُ ... وأقلعَ عنه الضيم دامي المخالب
وما بلغ المرمى البعيد سوى امرىءٍ ... يروح ويغدو عرضة للجواذب
وماجرَّ ذلاً مثلُ نفس جزوعةٍ ... ولا عاق عزماً مثلُ خوف العواقب

---

(١) التأويب : الرجوع ، والادلاج : السرى بالليل .

(٢) البزلاء : الناقة القوية .

ألا ليت شعري هل تسالمني النوى وتخبو همومي من قِراع المصائب

إلى كم أذود العـــين أن يستفزها وميض الأماني والظنون الكواذب

حُسِدتُ على أني قنعت فكيف بي إذا ما رمى عزمي مجال الكواكب

وما زال للانسان حاسد نعمةٍ على ظاهر منها قليل وغائب

وأبقت لِيَ الأيام حزماً وفطنةً ووقّرن جاشي بالأمور الغرائب

توزّع لحمي في عواجمَ جَمَّـــةٍ وبان على جنبيّ وَسْمُ التجارب

وفي هذه القصيدة يبدو الشريف هادىء النفس ، ولكنه هدوء من يُزْعجه الهدوء ، وكيف يهـــدأ من يتصور الحوادث وهي تدبُّ دبيب العقارب ، أو تثب وثوب الأفاعي؟

وهو يرى مُقامَ الفتى على الذل عجزاً قبيحا ، ويرى ذل القلب الجرىء إحدى الأعاجيب . وانظروا الصورة الشعرية التي يمثلها الشطر الثاني من هذا البيت :

إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصاره وأقلعَ عنه الضيمُ دامي المخالب

وهو يرى الذل من ثمار الجزع ، ويرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال .

•••

وهناك دالية نرى تنبيهكم اليها من أوجب الفروض ، وهي مما جمع فيه بين الفخر والنسيب :

لأي حبيب يَحسُنُ الرأي والودُّ وأكثر هذا الناس ليس له عهدُ

أكل قريب لي بعيـــدٌ بودهِ وكلُّ صديق بين أضلعه حقد

ولله قلبٌ لا يَبُلُّ غليلَهُ وصالٌ ولا يُلهيه عن خِله وعد

يكلفني أن أطـــلب العز بالمنى وأين العلا إنْ لم يساعدنيَ الجدُّ

أحنُّ وما أهواه رمحٌ وصارمٌ ... وسابغةٌ زُعفٌ وذو مَيعَة نَهد [1]

فيا ليَ من قلبٍ معنًّى به الحشا ... ويا ليَ من دمعٍ قريحٍ به الخـد

أريد مـن الأيام كل عظيمةٍ ... ومـا بين أضلاعي أسدٌ وَرْدُ

وليس فتًى من عاق عن حمل سيفهِ ... إسارٌ وحلّاه عن الطلب القِد [2]

إذا كان لا يمضي الحسام بنفسهِ ... فللضارب الماضي بقائمه الحـد

وما العيش إلا أن تصاحب فتيةً ... طواعنَ لا يَعنيهم النحس والسعد [3]

إذا طربوا يوماً إلى العز شمّروا ... وإن ُندبوا يوماً إلى غارة جَدُّوا

وكم ليَ في يوم الثوية رقدةٌ ... يضاجعني فيها المهنّد والغِمد

ولو شاء رمحي سدَّ كل ثنيةٍ ... تطالعني فيها المغاوير والُجرد

نصلْنا على الاكوار من عجز ليلة ... ترامى بنا في صدرها الغَور والوهد

طردنا اليها ُخفَّ كل نجيبةٍ ... عليها غلامٌ لا يمارسه الوجـد

ودُسنا بأيدي العيس ليلاً كأنما ... تشابَه في ظلمائه الشِّيب والُمرد

ألا ليت شعري هل تبلّغني المنى ... وتلقى بيَ الاعداء أحصنةٌ ُجرد

يعيد عليها الطعن كل ابن همة ... كأن دم الأعداء في فـمه شهد

يضارب حتى ما لصارمه قُوًى ... ويطعن حتى ما لذابله جهد [4]

إذا عربي لم يكن مثـل سيفهِ ... مضاءً على الأعداء أنكره الَجد

والقصيدة طويلة ، وفي هذه النفثات كفاية .

والشاعر يذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأماني ، ثم يثور على هذا المطلب لأنه يعرف أن المعالي لا ُتنال بالأماني ، وإنما ُتنال بالجهاد .

ويرى أن الحسام ان لم يَمض بنفسه فليس له حدٌّ ، وإنما الحد للضارب

---

(١) الزعف هي الدروع الواسعة المحكمة (٢) حلاه مخفف من حلاه بمعنى منعه ، والقد : القيد

(٣) طواعن جمع طاعن ، وجمع فاعل على فواعل للعاقل قليل ، ولكن له شواهد كثيرة في شعر الشريف . (٤) الصارم : السيف . والذابل : الرمح .

الماضي . وهذا معنًى نفيس . وإليكم بيت القصيد :

إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفهِ   مضاءً على الاعداء أنكره الجَد

...

وانظروا روعة الفخر في هذه الأبيات :

شبابي إن تكن أحسنتَ يوماً   فقد ظَلمَ المشيبُ وقد أساء
ويا معطي النعيم بلا حسابٍ   أتاني من يقتّر لي العطاء
متاعٌ أسلفتناه الليالي   وأعجلنا فاسرعنا الأداء
سأمضي للتي لا عيب فيها   وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلب غايةً إن طوحتْ بي   أصابت بي الحِمام أو العَلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالي   إذا الامد البعيد ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافي   وعطّل بعضُ جمعهم الفضاء
غناني من أباة الضّيم نامٍ   أفاض عليَّ تلك الكبرياء
شأونا الناس أخلاقاً لِدانا   وأيمانا رِطاباً واعتلاء
ونحن النازلون بكل ثغر   نُريق على جوانبه الدماء
ونحن الخائضون لكل هول   إذا دبّ الجبان به الضَّرَاء[1]
ونحن اللابسون لكل مجد   إذا شئنا ادراعاً وارتداء
أقمنا بالتجارب كل أمر   أبى إلا اعوجاجا والتواء
تجرُّ إلى العُداة سُلاف جيش   كعرض الليل يتّبع اللواء
نُطيل به صدى الجُرد المذاكي   إلا أن نُورد الاَسَل الظّماء[2]

أقف عند هذا الحد. أيها السادة ، فما يتسع وقتي للنص على جميع المواطن التي تحدّث فيها الشريف عن العُلا والمعالي ، وهي محفوظة في مذكراتي ،

(١) دب الضراء : مشى في خفية (٢) المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان

وأنا أضن بها على تلاميذي ، لأني أحب لتلاميذي أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف وأن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء .

أحب لتلاميذي أن يحفظوا جميع ما قال الشريف في العُلا والمعالي فتلك بوارقُ من الروحانية تحيي ميت العزائم، وتقيم ما صدّعته أجيال البؤس من النخوة العربية .

أحب أن يرجع تلاميذي فيفتشوا على ما أغفلت من القصائد ، أحب لهمُ أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذي أقام الشرائع لعزائم الفتيان.

...

وأنتهز هـــذه الفرصة ، أيها السادة ، فأعتب على القدماء من مؤرخي الأدب العربي ، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يَفتنهم إلا بقصائد الحجازيات ولو أن الله كان هداهم فالتفتوا إلى أشعاره في المعالي كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب في المعالي لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع في توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال .

اسمحوا لي أيها السادة أن أبتكر عبارةً جديدة هي عبارة « معالي الشريف » فهي عندي أفحل وأصدق من « حجازيات الشريف » وهي أعظم من « زهديات أبي العتاهية » و « تشبيهات ابن المعتز » و « مدائح البحتري » و « خمريات أبي نواس » .

إن « معالي الشريف » قصائد مقدودة من الفُتُوّة ، ومَنحوتةٌ من العزيمة والنظرُ فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة والبطولة ، ويُدخل على الدم جبروت النار والحديد .

الشريف كاتباً ومؤلفاً

١ ـ في الرابع عشر من صَفر سنة ١٣٥٧ فرغت من كتاب « عبقرية الشريف الرضي » وأنا اليوم في السابع والعشرين من المحرّم سنة ١٣٥٩ ، وقد لا أفرغ من هذه الحواشي إلا في الرابع عشر من صَفر ، لأني موزّع الوقت والجهد بين أسفار و شواغل لا تمنحني من هدوء البال ما أريد .

فأين كنت من صُحبة الشريف قبل فراق عامين ؟

كنت أنهيت القول في حياته الشعرية ، ولم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته في الكتابة والتأليف ، فما الذي جدّ بعد ذلك للفراق ؟

ظهرتْ فصول عن الشريف الرضي في مجلة « الغَريّ » كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وهو من أكابر أهل العلم بالنجف ، ولكن تلك الفصول لم تحملني على أن أرجع إلى كتابي بشيء من التغيير أو التعديل : لأن طريقتي في البحث تختلف عن طريقته كل الاختلاف ، ولأني أحرص دائماً على تجنّب الطريق المسلوك عساني أوفّق إلى رأي طريف .

وقد تلطّف السيد آل كاشف الغطاء فأشار إلى اسمي مرةً بالتصريح ومرةً بالتلميح في مواطن أوجبتْ فيها الأمانة العلمية ان يستأنس بكلامي فعليه مني أجزل الثناء .

٢ ـ والآن أرجع إلى الشريف الكاتب والمؤلف بعد أن استجممت عامين فأقول :

لم يصح عندي أن الشريف كان من كتّاب الرسائل القصار أو الطوال ، وإن كنت احتفظت بالآثار التي نقلتها مجلة « العرفان » عن كتاب الدرجات

الرفيعة » في أعيان الشيعة » للسيد علي خان الشيرازي [1] .

وتعليل ذلك سهل فالشريف غلبتْ عليه النزعة الشعرية في كل ما يتصل بنقد المجتمع او الإفصاح عن الوجدان .

والثروة التي أثِرت عنه في التاليف لا تنفي ما أقول : لأن تاليف الكتب غير إنشاء الرسائل ، فالمؤلف يتخذ أسلوباً في التعبير يغاير اسلوب النثر الفني ، وقد يبعد عنه اشد البعد في كثير من الاحايين .الشريف كاتب بلا جدال ولكن طريقته في التعبير طريقة علمية لا فنّية ، وان غلبتْ عليها الصنعةُ في بعض الاحوال .

والمهمُّ هو النص على أن الشريف شاعرٌ أولاً وقبل كل شيء ، فحياته الشعرية هي ثروته الباقية على الزمان ، وان كان من أعاظم الباحثين في الحدود التي تسمح لرجل مثله بان يكون من أقطاب الحياة الفكرية والعلمية في عصر « اخوان الصفاء » .

ومعاذ الأدب أن أستخفَّ بآثار الشريف في ميادين الفكر والعقل : فقد بلغ الغاية في كتاب « المجازات النبوية » وكتاب « حقائق التأويل » ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء ، ولكن عبقريته الشعرية جنتْ عليه فخفَّ ميزانه في الحياة العلمية بالقياس الى بعض معاصريه ومنهم اخوه الذي أتى بالأعاجيب في الفقه والتوحيد .

ولو أن الرضي وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين ولكنه شَغَل الناس بشعره الفائق فظنوه وسطاً بين الباحثين ، وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق .

٣ ــ وهنا تسنح الفرصة لتسجيل خَصيصة من خصائص الشريف : فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية والشعرية ، لأنها في

(١) قيل ان المراسلات بينه وبين الصابي بلغت ثلاث مجلدات ، ولكنا لا نعرف مكان تلك الرسائل حتى نحكم له أو عليه .

الأغلب خالية من السمات الاصطلاحية، ولأنها أدبٌ صرف لا يعرف البَهرج والترويق الا في الحدود المقبولة من الصناعة الشعرية ، ولو قيل ان الشريف شاعرٌ بدويٌّ ينطق بالفطرة والسليقة وانه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب لجاز ذلك في أذهان من يجهلون مكانته في التاريخ .

الشريف شاعرٌ بدويٌّ منقطع عن الحياة العلمية أشد الانقطاع وهو فى هذه الناحية ظاهر كل الظهور ، بحيث يُظَنُّ أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشارٌ وأبو نواس وابن الرومي والمتنبي ، الشريف في شعره بعيد كل البعد من اساليب العلماء من نحاة ولغويين وفقهاء ، هو شاعرٌ بدوي لا تظهر عليه سيا الحضارة الا في ترف العقل والذوق ، وهو في شعره أقل حضارةً من عمر بن ابي ربيعة ومن الكُميت ومن جميل ، مع انه نشأ في بغداد وعرَف المترفين من أهل فارس وأهل العراق ، الشريف في شعره نموذج للسليقة البدوية التي لم تعرف من الحضارة غير أطياف ولم تسمع بقعقعة النحاة واللغويين في بغداد .

فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالما يشهد نثره العلميُّ بأنه من أقطاب الادباء ، رأينا رجلا يكتب في العلوم اللغوية والشرعية بأسلوب مضمّخ بعِطر الأدب الرفيع .

وكذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : شخصية الشاعر المطبوع، وشخصية العالم الأديب .

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك !

أغلبُ الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار والابتداع : كان يرى شعراء عصره قـــد غلبتْ عليهم المظاهر الحضرية فآثر التفرد بالشمائل البدوية ، فهو بالشعر بدويٌّ وهو في العلم أديب . وتلك خصيصةٌ نادرة

في ذلك الزمان .

وتظهر هذه الخصيصة إذا وازنا بينه وبين أخيه ، وقد نشآ في بيت واحد وتلقّيا العلم في الحداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد ، فأخوه المرتضى يكتب كما يكتب العلماء ، ويشعر كما يشعر العلمـــاء ، ونفسيته نفسية عالم لا نفسية أديب ، حتى قيل إن المرتضى كان يحرص على منافـــع دنياه حرص الفقهاء ، أما الرضيُّ فكان رجلاً سمحاً يجود بما يملك ، ويرى الكرامة أثمن ما يحفظ الاحرار من ذخائر الوجود .

٥ ـ شخصيّةُ الشريف شخصيةٌ معقّدةٌ عند من يجهل ، ولكنها في غاية من البساطة والوضوح عند من يعرف ، هو رجلٌ يحب التفرد بكرائم المعاني ، فهو يشتهي أن يكون شاعراً لا كالشعراء ، وأن يكون عالماً لا كالعلماء وقد وصل إلى ما يريد .

ولو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف : فأنا أعتقد أن لغة الشريف في شعره تجمع النوادر من الالفاظ البدوية ، وأن لغة الشريف في نثره تجمع الاطايب من المصطلحات العلمية .

ومن المحتمَل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثاً أمضى قلماً مـــن الشريف قبل ذلك العهد ، وقد قوي عندي الظن بأنه مهّد السبيل لعـــبد القاهر الجرجاني ، فعبد القاهر عندي تلميذ الشريف في الميادين البيانية ، وليس كتاب « دلائل الإعجاز » إلا خطوة ثانية بعد كتاب « المجـــازات النبوية » وإن كان الجرجاني أقدر من الرضيّ على الإفاضة والاستقصاء .

٦ ـ قد أقول : إن البويطي في « الام » هو أول عالم شرَح دقائق الفقه بأسلوبٍ أدبيٍّ ، وإن سيبويه في « الكتاب » هو أول نحوي شرح تكوين الجمل بعبارة أدبية ، ولكني مع ذلك مقهورٌ على الاعتراف بأن

الشريف تفرّد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة والجزالة في شرح أغراض القرآن والحديث.

فكيف اتفق ذلك للشريف

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلا صريحاً في جميع ما يتناول من الشؤون ، وأظهر صفة من صفات الشريف هي بغض النفاق ، ألم يتخذ الحج موسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلا من أشراف الرجال ، وبهذا الرأي صح له أن يعبّر عن أحلام هواه بقصائد خالية من شوائب الزور والرياء .

وقد انساق هذا الطبع السّمح إلى حياته العلمية فعبر عن أغراضه في اللغة والفقه والتوحيد بعبارات هي أسلس وأرشق من تبختُر الجدول الرّقراق.

٧ ـ وهنالك خصيصة ظاهرة من خصائص الشريف ، هي اندماجه اندماجاً كلياً في الجوّ الذي يعيش فيه: فهو في الشعر يخيّل إليك أنه لا يحلّق في غير الأجواء الشعرية ، ويكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيماناً جازماً بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافي ، ومَثله في ذلك مَثل ابن الرومي وقد قيل إن الشعر كان أقل أدواته ، وهو قولٌ لا نصدّقه إلا بعناء ، لأن شاعرية ابن الرومي أدت إلينا محصولا يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبر عن أغراضه بغير القوافي ، وقد قرأنا مرةً أن البحتري كان من المؤلفين فلم نصدّق ، لأن البحتري فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء .

وقد اتفق لأبي تمـــام أن يكون مؤلفاً ، ولكن كيف؟ غَلَب عليه التصنيف في اختيار الاشعار ، وهو فن ينساق مع ذوق الشاعر كل الانسياق.

٨ ـ يمكن للشاعر أن يكون مؤلفاً ، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعراً ، ولكن الذي وقع للشريف عَجَبٌ من العجب ، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب ، ولكنها توهمك أنه لم يكن شاعراً تُعَدُّ جياد أبياته بالالوف .

ما الذي نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف .

نجد رجلاً يُحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يُشعرنا بانه قضى دهره وهو مشغول بالتاليف ، نجد رجلاً يحدثنا عن مؤلفاته بلغت العشرات في موضوعات مختلفات ، وتشهد قوةُ تعبيره ، وغزارة علمه بأن « المؤلف » هو الشخصية الاصيلة التي تحتل صدر ذلك الباحث الجليل .

ومؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية ، ولم يُعان شواغل السياسة والشعر والحب ، ولو أن ديوان الشريف كان ضاع وبقيت مؤلفاته لما صدّق أحدٌ أنه كان من أعلام الشعراء ، فضلاً عن التصديق بانه أشعر قريش .

٩ ـ يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الافق : فهو يكتب في الفقه والتوحيد والنحو والبيان ، وله إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الادبية والشرعية ، وله توجيهات لكلام من سبقوه ، توجيهات تشهد بانــه تناول حياة التاليف بالنــقد والتمحيص والتهذيب .

الشريف العالم شخصيةٌ هائلةٌ جداً ، وهي تنسيك مواهبه الأدبية والسياسية والوجدانية ، وتفرض عليك الإيمان بانه لم يُجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف .

فكيف اتفق له ذلك ؟

لا تنس أنه كان إماماً من أئمة الدين ، وأن شهرته بالشعر والحب كانت

تؤرّقه من وقت إلى وقت ، لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه في الغض من مكانته الدينية ، مسالم يهوّنون من شانه فيُقصونه عن مناصب التشريف باسم الدين .

فهل نستطيع أن نقول إن الشريف كان يتعمد الكتابة في الشؤون اللغوية والعلمية ليصدّ عن مجده الادبي والسياسي عُدوان خصامه ومنافسيه.

لذلك شواهد في العصر الحديث ، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجلٌ أديب لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الازهرية ، فحمله ذلك على الدفاع عن سمعته العلمية ، فالف في شؤون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

وكان شاع أن الشيخ محمد المراغي رجلٌ بَعُدَ عهده بالعلوم الازهرية فصدّ كيد خصومه بدروس ألقاها في علم الاصول .

١٠ – لم يبق عندي شكٌّ في أن الشريف كان يفهم جيداً أنه مُعرّض للأكاذيب والاراجيف بسبب إيغاله في شِعاب الصبابة والوجد ، وبسبب حيرته في بيداء الحياة السياسية ، فلم يكن له بدٌّ من تمزيق الحبائل التي ينصبها أعداؤه وحاسدوه ، وكذلك أقبل على التالف بعزائم الفحول ليقيم الادلة والبراهين على انه أهلٌ للتشريف باسم العلم والدين .

فما الذي وصل اليه ؟

ما زال الرجل يُبدىء ويعيد حتى أتى بالغرائب والعجائب في ميادين الفكر والعقل ، وحتى صحّ القول بانه تفرد بآراء لم يهتد إلى مثلها الاسلاف .

١١ ــ وهنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف ، هي خصيصة العالم المزوّد بادوات الادب ، والادب هو ديوان العرب ، وهو

التعبير الصادق عن ذوقهم الاصيل .

ولو بقيت آثار الشريف في التاليف لجاز القول بانه طراز فريد بين أقطاب المؤلفين ، ولكانت له منزلة تعز على من رامها وتطول .

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكر لم تخيب ظنون محبيه، فهي تدل على القيمة الاصيلة لمواهبه العقلية ، وهي تعرب عن قدرتـــه على التصرف في علوم القدماء .

١٢ ـ وليست اولئك الخصائص هي كل ميزات الشريف المؤلف ، فهنالك خصيصة أعظم وأروع ، وهي طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية .

كان الشريف شيعياً ، والشيعة فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة في فهم أغراض القرآن والحديث ، والشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلا في سن الثلاثين مع أنه نشا في بيت من بيوتات الدين ، وتلك ظاهرة قد توهم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضاً على المشتغلين بالشؤون الدينية ، ومن اجل ذلك كثرت القالة حول أولئك القوم واحتاجوا إلى الدفاع عـــن انفسهم من هذا الجانب الدقيق .

وحين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجف رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدق في وجهي وقال: إشهد أنك رأيت المصحف في يدي وقد زرتني على غير ميعاد !

وانما احتاج الرجل الى هذه العبارة لأن في الشيعة فرقة لا تهتم كثيراً بالمصحف الشريف ، وهي فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة في العراق.

والمهم هو النص على ان الشريف كان شيعياً سليما ، أعني انه كان مسلماً صحيح العقيدة ، والتشيع في جوهره لا ينافي الدين إلا حين يوكل

أمره إلى الجهلاء من أهل الانحراف .

ولا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين ، وهو من عظماء المؤمنين وإنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل في حماية البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع ، وهو فضل عظيم .

مَثَل الشريف بين أهل التشيُّع كمَثَل الجاحظ بين أهل الاعتزال ، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواصّ ، وكذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواص .

وأقول : إن اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التي وجهت إلى التشيع ، والتي ادعت ان الشيعة لا يهتمون بالقرآن والحديث .

ومن هنا نفهم أن الشريف المؤلّس كان معلّماً عظيما ، وكان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية ، وهو بالتكريم خليق .

النفحات السارية في مؤلفات الشريف هي أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع والتجديف [1] .

١٣ ـ يؤيد هذا ما أثر عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعي وهو مذهب سني أصيل، ولا يقال إن مرجع ذلك إلى عذوبة لسان الشافعي فيما يتصل باهل البيت ، لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يرعون كرامة سائر أهل العلم والدين .

وإمارة الحج التي وُكلتْ إلى الشريف وإلى أبيه من قبل تشهد بان التشيع لم يكن يُنظَر اليه بعين الغضب والمقت ، فقد كان مذهب أهل السنة هو

---

(١) في كتاب (التصوف الاسلامي) تفاصيل وافية عن اصل فكرة التشيع وعما عرضلها في ميادين الادب والاخلاق ، وعن صلتها بالسياسة الاسلامية وكذلك تحدثنا عنها بالتفصيل في كتاب (المدائح النبوية) فليرجع القارىء إلى هذين الكتابين إن كان يهمه الاستقصاء .

السائد يومئذ في العراق ، ولم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعي في مثل فضل الشريف .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الغلوّ في التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة والحمق ، أما أهل اليقظة والعقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف في الفروع لا يضير مع الاتفاق في الاصول ، وكذلك اشترك عقلاء السنة في الالتفاف حول راية القرآن والحديث ، ولن تمرّ أعوام طوال قبل أن تسود الالفة بين سائر المذاهب الإسلامية ، ويُحلّ الوفاق مكان الشقاق .

١٤ـ ومهما يكن من شيء فالخلاف بين السنة والشيعة هو جزء من ماضينا ، وهو خلاف كان له فضلٌ عظيم في يقظة العقول والآراء ، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخي الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع في ماضينا من صراع ونضال .

والعبرة من هذا الكلام : هي إبراز شهامة الشريف ، الشريف الشيعي الذي عاش في عصور لا تخلو من ظلمات ، واستطاع مع ذلك أن يكون مثلا في السماحة المذهبية ، وأن يظفر بعطف من ترجوا له من أهل السنة ، وأهل السنّة رجالٌ ينصبون الموازين لأقدار الرجال .

١٥ـ وهنا ملاحظة تستحق التسجيل .

لما دخلت العراق وجدت قوماً من أهل العلم يحقدون عليّ أشنع الحقد بسبب كتاب « الأخلاق عند الغزالي » ثم هالني أن أعرف أن السيد هبة الدين الشهرستاني من أولئك الحاقدين وهو شيعي لا سُنيّ ، فكيف يتعصب للغزالي وهو خصمه في المذهب ؟

تعصّب الشهرستاني للغزالي لمعنًى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل

مثل الغزالي ، وكذلك تكون شمائل العلماء .

ورأيت هناك باحثاً يعطف عليّ لاهتمامي بدرس أشعار الشريف وهو الاستاذ عباس العزّاوي فقدّرت أنه شيعي ، ثم عرفت أخيراً انه سُني ، وكذلك يكون الصدق في فهم المعاني .

ورأيت الاستاذطه الراوي يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك براً بالعصبية المذهبية ، ثم عرفت أنه سني لاشيعي ، وطه الراوي من أعيان الفضل والعلم والذوق في بغداد .

صديقنا الشريف هو الذي سنّ شريعة التسامح بين المذاهب والآراء ، وفضله على الشيعة عظيم : لأنه خلق لهم صداقات في البيئات السنية وحفظ لهم مكانة عالية في العراق بفضل جهاده في الأدب والدين .

ونحن في مصر لا نحس الخلافات المذهبية ، ويؤذينا أن نعرف أن إخواننا في الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين ، فهل أرجو التقرب إلى الله بتهوين شان تلك الخلافات ! وهل أستطيع الترحم على الشريف لأنه منحني الفرصة لهذه الكلمات التي أردت بها التقريب بين القلوب .

الله يشهد أني أكتب هذا وأنا متوجع ، فما يرضيني أن يقال إن في المسلمين أقواماً يخاف بعضهم بأس بعض .

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب .

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول ، فان جاوز ذلك فهو رجسٌ من عمل الشيطان .

الشقاقات المذهبيه لم يعرفها الشرق والغرب إلا في عصور الظلمات ، ونحن في عصر النور ، فان لم يكن بد من الخلاف فلنختلف في أساليب الخلاص من أقفاص الظلم والاضطهاد ، والقراء يعرفون ما أعني ومن أعني .

يرحم الله الشريف فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه فظفر بالإعزاز

والتبجيل من الجميع .

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

١٦ ـ أيراني القارىء حددت خصائص الشريف كاتباً ومؤلفاً؟

لقد وضعت الاساس لمن يهمه أن يستقصي أحوال الشريف في الكتابة والتاليف، ولم يبق إلا أن أقدّم بعض الشواهد التي تعين مذاهبه في التعبير، فما هي تلك المذاهب !

أنا أعتمد في تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، وحقائق التاويل .

أما كتاب « المجازات النبوية » فقد طُبع أولا في بغداد طبعاً ممسوخاً تاذّى به روح المؤلف، ثم طبع أخيراً في القاهرة بعنايـــة الاستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية ، وقد تانقت مكتبة مصطفى الحلبي بإخراجه في حلة رقيقة الحواشي .

وأما كتاب « حقائق التاويل » فقد طُبع بالنجف وأخرجه « منتدَى النشر » في رونق جميل .

١٧ ـ ما هي تلك المذاهب الإنشائية ؟

نلمح ـ أولا ـ ان الشريف الكاتب قصير النفَس ، فهو لا يُطنب إلا في قليل من الاحايين .

ونلاحظ ـ ثانياً ـ أن الشريف الكاتب قليل الفُضول فهو لا يتكلم إلا بميزان .

ونرى ـ ثالثاً ـ ان الشريف المؤلف قليل الاستطراد ، وهذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب عليه من النزعة العلمية ، لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضي به المناسبة مـــن

المعارف الأدبية واللغوية والشرعية .

ونشهد ــ رابعا – أن الحرفيات قد تسيطر عليه ، فقدهمه أن يسجل أن قول الرسول في أحدٍ : « هذا جَبَلٌ يُحبنا ونُحبُّه » محمولٌ على المجاز ، لأن الجبل على الحقيقة لا يُحِبُّ ولا يُحَب .

وهذا خطأ من الشريف ساقه اليه خضوعه للحرفيات في بعض الاحوال فالرسول في رأيي أراد الحقيقة لا المجاز ، وسرُّ ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة « وَحْدة الوجود » .

ونسجِّل ــ خامساً ــ أن الشريف يحرص بعض الحرص على السجع والازدواج ، ولذلك شواهد مبثوثة في المجازات النبوية وحقائق التأويل يدركها المُطالع بدون عناء .

ونقرر ــ سادساً ــ أنه قد ينسى الزخرف نسياناً تاماً في بعض المواضع فيصبح اسلوبه وهو مثل أعلى في سماحة التعبير ، كأن يقول في تلخيص ما قاله علي بن عيسى النحوي في أحوال كان :

« قال لي في القراءة عليه : إن لكان أربعة مواضع : أحدها أن تكون مستقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر ، نحو : كان الأمر ، أي حدَث ووقع. والثاني أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر ، نحو : كان زيدٌ منطلقاً ويكون عمرٌو شاخصاً . والثالث أن تكون زائدة ، مثل قولهم : زيدٌ ــ كان ــ منطلق وما ــ كان ــ أحسن زيداً ، أيْ ما أحسن زيداً ، كقول الشاعر : « وجيرانٍ لنا كانوا كرامٍ » إذا لم تجعل « لنا » الخبر وجعلته صفة جيران كأنك قلت : « وجيرانٍ لنا كرامٍ كانوا » والرابع أن تكون كصار ، تقول : كان زيدٌ منطلقاً ، أي صارت حاله هذه تريد هو الآن كذا لا فيما مضى ، وأنشد قول الشاعر :

بفيفاء قفرٍ والمطيُّ كأنها   قطا الحزْنِ قد كانت فراخاً بيوضُها

يريد صارت فراخاً . قلت أنا والصحيح في رواية هذا البيت « قــد صارت فراخاً بيوضها » وإنما غيّر ليوافق الاستشهاد ، فلأجل ذلــك ضعف هذا القسم من بين أقسام كان »[1] .

فهذا كلامٌ تقريري يقوم على أساس الدقة والجلاء ، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة برواية الشعر ليوافق الاستشهاد !

وهذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل ــ سابعاً ــ أن الشريف في مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية ، والنحو كان في تلك العهود ميداناً لسباق القرائح الجياد .

١٨ ــ أما بعد فتلك حالة الشريف الكاتب والمؤلف ، وهي تجلوه في صورة تُضيف إلى حياته الشعرية ألواناً من الظلال ، وهي تؤكد ما قلناه من أنه شاعرٌ مثقف يرى الوجود في ظواهره وخوافيه بعين الناقد البصير الذي لا يشغله التأمل في جمال الوجود عن النظر في فهم الرجال لحقائق الوجود .

الشريف عجيبٌ حقاً ، فهو تارةً يحدّثك بأنه كان يقرأ عـلى شيخه فلان باب كذا من أبواب النحو وأن شيخه قــال له كَيْت وكَيْت ، وتارة يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب الفقه وأن شيخه قال له زَيتَ وزَيت ، وحيناً يذكر أنه اختلف في فهم آيــة أو حديث ، وأنه اعترض بكَيْتَ فأجيب بزَيت ، واحياناً يتحدث عــن مصاولاته مع اللغويين وما نقل عنهم من توجيه كلام الأعراب .

وفي هذا الجوّ المشبَع بأقباس المجادلات النحوية والفقهية والادبية

---

(١) انظر حقائق التأويل ص ٢٢١و٢٢٢ .

واللغوية لا ترى الشريف إلا شيخاً يجادل أهل العلم والأدب والدين في مساجد بغــــداد وهو في زي المجاورين الذين شرّفهم الله بالانقطاع إلى البحث والتنقيب في مخلّفات القدماء .

ثم تلتفت فتسمع أنه كان فارساً لا يُشَق له غبار .

ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة ومن أهل البصر بتدبير المكايد في ظلام الليل .

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقاً يحسّ الجمال بأروع مما أحسّ عُمر وكثيّر وجميل .

ثم تسمع أنه صال وجال في اشهر الاقطار الإسلامية بالشرق .

ثم تعلم انه كان مدير مدرسة، وانه مع ذلك تعقب اخبار الماجنين والعابثين .

ثم تعرف انه كان رَبّ بيت وله اهلٌ وأبناء .

فما معنى هذا التعقيد الغريب ؟

معناه ان الشريف الرضي كان منوّع المواهب، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، فلا يَعجَب الكسالى المتزمتون من ظَفره بحسن السمعة في جميع ما اخترق من الميادين ، ولا يستكثروا عليه ان يكون من افاضل المؤلفين ! وأكابر المربين وأشاوس الفرسان، واماجد العُشّاق ، واماثل العارفين الواصلين ، ولو عُرف قبره على التحقيق لكان مثابة لطلاب الخيرات والبركات ، رحمه الله وطَيّب مثواه ، وجعلنا من اصدقائه الاوفياء !!

نهج البلاغة والشريف

١ ـ خلّف الشريف فيما خلّف كتاباً نفيساً هو « نهج البلاغة » وهو مجموعة كبيرة من الخطب والرسائل والوصايا والحكم والمواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين [1] .

وما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين في كتاب «المدائح النبوية» ولا ما قلته عن نهج البلاغة في كتاب « النثر الفني » أو كتاب «وحي بغداد» .

وإنما يهمني أن أنشىء فصلاً جديداً عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربي ، وأكمل به المباحث حتى تعرضتُ لها من قبل ، وأنا بعيد كل البعد من التحيز لذلك الكتاب أو التحامل عليه .

٢ ـ لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين ، وهذه الشكوك مما يشرّف ماضينا : لأنها فرعٌ من التحقيق العلمي الذي تفوّق فيه أسلافنا أشد التفوّق ، وما يجوز القول بأن تلك الشكوك قامت جميعاً على أساس النزعات المذهبية ، فقد كان في أسلافنا رجالٌ لايهمهم غير الحق ولا يستهويهم غير الصدق ، ولا يرضيهم أن يُزَوَّر التاريخ .

٣ ـ وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ألوان تلك الشكوك ، وهي تُلخّص في أن كثيراً من أرباب الهوى يقولون إن كثيراً من نهج البلاغة كلامٌ مُحْدَث

---

(١) امير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعلي بن ابي طالب ، فان رأى القارىء هذا اللقب في كتاب قديم من غير نص على اسم الملقب به فليعرف ان المراد هو علي بن ابي طالب ، واذا رأيت بين الاسماء اسم عبد الامير فاعرف ان المراد عبد علي بن ابي طالب .

صَنَعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

ونحن نعتب على ابن أبي الحديد بعض العتب، فإن عبارة «أرباب الهوى» لا تخلو من جفاء، وفيها غض من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسُّوا نهج البلاغة بالوضع والتزييف.

٤ ــ والحقُّ أن الأدب العربي تعرَّض إلى شُبُهات كثيرة من هذا اللون: فقد كان للاحزاب السياسية والدينية دخلٌ في تلوين الآثار الادبية، وقد حدَّثنا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الاغاني على أن يزيد بن المفرّغ هو الذي صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية.

٥ ــ ونزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين والعلويين إلى أقصى حدود القسوة والعُنْف، ومن المستبعَد أن يكون أنصار العلويين قد تفردوا بالتجمُّل وإيثار الصدق في محاربة أعدائهم من الامويين.

وهل يجوز أن يلتزم العلَويون الصمت وهم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب.

لا يقول بذلك إلا من يجهل كيف تأرّثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التي قضت بان يامر بنو أمية بسبِّ عليٍّ فوق المنابر، وبأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه وهذا الحمق السياسي غير مستغرب: فقد رأينا له شبيهاً في زماننا يوم أمرتْ إحدى الوزارات المصرية بأن لا يُذكر اسم سعد زغلول في الجرائد!

فالذي يتَّهم الشيعة بأنهم أنطقوا عليًّا بأقوال لم يَقُلها ليؤيدوا اقضيتهم

المذهبية لا يبعد في حُكمه عـــن الروح الذي كان سَرَى في الخصومات السياسية لتلك العهود .

٦ ـ ولهذا الرأي شاهد من التاريخ : فقد أسرف الشيعة في تحقير يزيد حتى صار مثلاً في الرقاعة والسُّخف ، ومع ذلك رأينا مـــن يرفع يزيد إلى صفوف العظماء ، كالذي صَنع مؤلف « نجباء الأبناء » فهو يرد قالة بقالة ، ليرفع عن يزيد إصر الاراجيف .

وعلى ذلك لا يُستغرب في شِرعة العقل أن تكون مناقب الامويين والعلَويين مدخولة في كثير من الشؤون وَفقاً لمـــا اصطلح عليه العُرف السياسي من تحقير الأعداء وتعظيم الاصدقاء .

والعُرف السياسي خَلَقَه أسلافنا ، أو سلكوا فيه مسالـــك اليونان والرومان وهو عرفٌ يقضي بان لا ترى في صديقك غير الحسَن ، ولا ترى في عدوك غير القبيح .

والادب العربي مَدينٌ للافك السياسي أكبر الدَّين ، فبفضل ذلـــك الإفك خُلقت محامدُ ومثالبُ هي صورٌ روائع من الشمائل الإنسانية ، ولو خلا أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلا في العُجف والهُزال

٦ ـ وأقول بصراحة إن التزيد على أمير المؤمنين أمرٌ واقع ، وهذا التزيد يشرِّف من اقترفوه ، لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالا أقوياء يعرفون كيف يتسلحون للحرب السياسية ، وهي حربٌ لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع والافتعال .

وسيأتي يوم نعرف فيه أقدار الكتاب البارعين الذين أمدُّوا الحرب السياسية بوَقود من سِحر الفصاحة والبيان ، والذين أذاعوا في محصول الادب العربي روح القوة والنضال .

٧ ـ التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع ، والتنصل منه جهل ، ولكن المشكلة هي وضع « نهج البلاغة » في موضعه الصحيح .

عندنا في هذا المقام مشكلتان :

الاولى عبقرية علي بن أبي طالب ، عبقريته الخطابية والإنشائية .

والثانية ضمير الشريف الرضي .

والمشكلة الاولى تحدثت عنها في كتاب « النثر الفني » فقد كان معروفاً ان ابن أبي طالب له مجموعة من الخطب ، مجموعة تحدث عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث ، وهل يعقل أن تضيع آثار ابن أبي طالب ضياعاً مطلقاً وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء .

كان علي خطيباً مفوّهاً ، وكان كاتباً فصيحاً .

فاين ذهبت آثاره في الخطابة والانشاء ؟

وهل يعقَل أن تضيع آثاره وحولَه أشياع يحفظون كلّ ما ينسب اليه؟

هل يُعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الاموي وينسوا آثار خطيب قُتل بسببه ألوف وألـ ـف من أبطال الحروب؟

ومن الذي يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتَنسى خُطب الرجل الذي غُسّل بدمه في يوم من أيام الفتن العمياء ؟

وإذا جاز أن يحفظ الناس ما دسّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا ما نُسب اليه على وجه صحيح ؟

وأين العقل الذي يَقبل القول بان عليًّا لم يَجيءَ بيانُه إلا في الآثار المفترَيات ؟

أين ونحن نجزم بان في الشيعة أنفسهم رجالا من العرب الصرحاء الذين يؤذيهم الكذب والافتعال .

وهل كان الشيعة إلا قوماً تستهويهم السياسة حيناً ، و يأسرهم الصدق في أحايين .

لا مفرّ من الاعتراف بأن « نهج البلاغة » له أصل ، وإلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ .

٨ ـ أما ضمير الشريف الرضيّ فهو عندي فوق الشُّبهات ، وهو قد خدَم التشيُّع بالصدق لا بالافتراء ، فان كان جَمْعُ آثار علي بن ابي طالب خدمة سياسية لمذهب التشيُّع فهو ذلك ، ولكنها خدمة أُدّيتْ باسلوبٍ مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين ، ولا يعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي بجميع الوسائل والاساليب ما دام في حدود العقل والذوق .

فان قيل إن النقد الصحيح يشهد بان في مجموعة « نهج البلاغة » أشياء يبعدُ صدورها من علي بن أبي طالب بسبب الغُلوّ في العصبية ، أو بسبب ضعف الديباجة ، او بسبب التكلف الذي خلَتْ منه لغةُ الصدر الاول ، بسبب الكلمات الاصطلاحية التي لم تشيع في ذلك العهد ، إن قيل ذلك فنحن نجيب بأن إصر تلك الاشياء لا يقع على عاتق الشريف ، وإنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم ان يُنطقوا امير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيّد مذهبهم بعض التاييد.

انا لا اقول بأن مجموعة « نهج البلاغة » صحيحةُ النسب الى امير المؤمنين في كل ما اشتملت عليه ، ففيها فقرات وفصول ينكرها الناقد الحصيف .

ولكني اقول بأن آثار علي بن ابي طالب تعرّضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الادبية والسياسية والدينية ، ثم اجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد ، وإنما وقع عن جهل بما تعرضت له تلك الآثار من الوضع والافتراء .

٩ ــ وهذا الحكم القاسي لا يطوّق به عنق الشريف إلا إن ثبت ان مجموعة «نهج البلاغة» لم تُعرّض بعدو فاته للزيادات والإضافات التي توجبها النزعة المذهبية في عصور وصل فيها الكفاح السياسي إلى ابعد حدود القسوة والعُنف ، فان ثبت بعد البحث انها سَلمتْ من الزيادات فهي شاهد على ان الشريف كان يُعوزه التدقيق في بعض الاحايين .

اما اتهامُهُ بالكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية فهو اتهامٌ مردود ، ولا يَقبله إلا من يجهل اخلاق الشريف .

١٠ ــ ومهما تكن حال «نهج البلاغة» فهو وثيقةٌ أدبية وتاريخية وسياسية قليلة الامثال ، هو إن صحّ صورةٌ من صُوَر النضال السياسي في مطلَع العصر الاموي ، وإن لم يصح فهو ايضاً صورة لذلك النضال حَسْبما فهمت الاجيال التي سبقت مولد الشريف ، وهو كذلك ثروةٌ أدبية ولغوية تؤرّخ اللغة في ذلك العهد ، او تؤرّخ ما فهم الناس انها كانت عليه في ذلك العهد ، وهو ايضاً يصور ما فهم العرب من اصول السياسة والمعاش وتدبير الملك في اعقاب عصر النبوّة ، او ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الاصول .

هو في جميع الاحتمالات خِدمةٌ أدّاها الشريف إلى اللغة والادب والسياسة والاخلاق .

وإني لأعتقد أن النظر في كتاب نهج البلاغة يُورث الرجولة والشهامة وعظمة النفس، لأنه فيضٌ من روح قهّار واجَهَ المصاعب بعزائم الاسود .

١١ ــ وهناك خدمة ثانية أدّاها كتاب نهج البلاغة للغة العربية ، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الافهام والعقول .

ألا تعرفون شرح ابن ابي الحديد ؟

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية : ففيه فوائد ادبية ولغوية وتاريخية وفقهية لا يستهين بها إلا الغافلون عما في ماضينا الادبي والعلمي من اطايب وفرائد وآيات .

...

١٢ ـ فان ذكرتم ان نهج البلاغة شُرح نحو اربعين مرة ، وإن ذكرتم انفيه فصولا تُرجمتْ إلى بعض اللغات الشرقية والغربية ، وإن ذكرتم انه فَتَح امام النقد ابواباً ومذاهب ، وإن ذكرتم ان له فضلاً على اكثر الفصحاء من الخطباء ، وإن ذكرتم انه اشهر مجموعة واكبر مجموعة حفظت منسوبة إلى عصر الخلفاء ، وإن ذكرتم ان له شرْق وغَرْب ولم تَخلُ منه مكتبة عربية او اعجمية من المكتبات التي تستوفي اصول المراجع ، وإن ذكرتم ان مُفَنّديه لم ينكروا قيمته الأدبية ...

إن ذكرتم كل هذه الخصائص عرفتم ان الشريف خدم الادب واللغة والاخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد ، وصدق ابو فراس حين قال:

ومـــن شرفي ان لا يزال يعيبني حسودٌ على الامر الذي هو عائب

زكي مبارك

مصر الجديدة في الثامن من صفر سنة ١٣٥٩

اعلام الجزء الاول

قوافي الجزء الاول

لن ننص في هذا الفهرس على قوافي الأمثال لأنها مرتبة في عــدة صفحات تبتدىء من الصفحة الرابعة والعشرون وتنتهي في الصفحة الحادية والأربعون ، والقصائد الخاصة بالطائع لله مرتبة في الفصل الخاص به ، وكذلك القصائـد الواردة الكلام عن العلا والمعالي .

فليراجع القارىء ذلك .

حرف الراء

حرف السين

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الياء

فهرست

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

يُعد هذا الكتاب «عبقرية الشريف» لونًا جديدًا فى اللغة العربية لما له من تأثير فى توجيه الدراسات الأدبية، إذ يتناول شعر الشريف ويستنبط الدلالات بالنقد والتحليل، كما يعكس الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية إبان عصره، أدلى الدكتور زكى مبارك بشهادته حول الشريف الرضى قال فيها: «أيها الشريف.. لقد قضيت حقك وأنصفتك، وأيدت مركزك فى عالم الخلود بلا من عليك، وهذا كتابى أقدمه إليك بمناسبة مرور ألف سنة على ميلادك، وأنا أحمد الله الذى وصل جناحى بوطنك لأحلق فى الجو، الذى عشت فيه، فأرى أسرار قلبك وسرائر روحك، وأقاك وجهًا لوجه بين مدارج الرشد والغى فى ضمائر الزوراء».

والشريف الرضى هو «محمد بن الحسن بن موسى بن على بن أبى طالب الموسوى البغدادى ولُقب بأبى الحسن الموسوى البغدادى» من أشراف العرب وفحول شعراء العراق، وقد ترك لنا ديوانًا شعريًا ضخمًا فى جزأين، ومن أعماله الخالدة: نهج البلاغة، الخصائص، تلخيص البيان عن مجازات القرآن.

وبالرغم من ذلك، تم تناسيه وتجاهله فى الكثير من كتب النقد الأدبى إلى أن أنصفه د. ذكى مبارك فى كتابه هذا.



الهيئة المصرية العامة

١٠ جنيهات

